أنيس منصور

التاريخ أنياب وأظافر

دار الشروق

التاريخ أنيابه وأظافره

الطبعة الرابعة

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

الطبعة الخامسة

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

الطبعة السادسة

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

الطبعة السابعة

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص. ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص. ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

أنيس منصور

التاريخ أنياب وأظافر!

دار الشروق

فى هذا الكتاب

صفحة

هذه الحيوانات التي طال عليها الزمن!

هــذا نوع آخر من التاريخ . انه مجموعة عظام . اى ان الحيوانات التى كانت تعيش من ملايين الســـنين قد ماتت فى ظروف لا نعرفها . وتركت بقــاياها . وجاء العلم الحــديث فجعل العظام فحما . ثم درس الفحم وحلله وراح يعد ذراته ليعرف كم واحــدة من هــذه الذرات قد ماتت .. ومن طريق الذرات الباقية يعرف عمر هذه الحيوانات .

ويمكن ان يقال أن التاريخ : كومة تراب وجدها احد العلماء فى احد الكهوف . ففى الكهوف جاء الانســان القديم وامسك غصن شجرة وغمسه فى الدم ثم رسم على الجدران صــورا لهذه الحيوانات .. وجاءت الأجهزة الحديثة واستخرجت من الدم شهادة ميلاد الانسان وشهادة دفن هذه الحيوانات .

وجاء الانسان مرة أخرى وجمع التراب والعظم ونظم منها معانى جديدة لكل ما حدث .. فالتاريخ عمل انشــائى .. أو موضــوع انشاء .. ففيه الكثير من الكذب الجميل .

فالتاريخ هو دكان سمك .. أو حظيرة أبقار .. لأنه تاريخ الحيوان على هذه الأرض .. ولكن هذا التاريخ لهذه الحيوانات وبهذا المعنى ظلم لها جميعا . لأن الحيوانات قد قاومت ملايين السنين . واكتسبت تجارب وتصلبت ضلوعها وارجلها وارتفعت أعناقها ونبتت لها الريش والزعانف وقاومت قسوى الطبيعة . وقاومت الانسان .. واستطاعت أن تبقى أكثر تنوعا واكبر عددا واطول عمرا .. وسوف تنتهى الحياة الانسانية على هذه الارض أو تنتقل الى كواكب اخرى . ولكن الحيوانات هى التى سترث الأرض وما عليها .

فكل الحيوانات التى تعيش الآن واضعف من الانسان كانت آلهة . عبدها الانسان وتلمس بركتها . واقام لها المعابد واشعل من اجلها الحروب .

وفى الكهوف والمعابد القديمة آثار باقية تدل على هذا التقديس العظيم للكلاب والقطط والطيور والثعابين والحيوانات الاخرى . فكان هذه الحيوانات كانت فوق ، على العين والراس ، ثم أصبحت تحت أحذية الانسان .. كانت آلهة فأصبحت عبيدأ يسوقها ويذبحها . او يحبسها ويتفرج عليها .. ان كل هذه الحيوانات آلهة مال عليها الزمن !

عبدها الانسان .. ثم طاردها . وقتلها . ثم طاردها وصادها . وحاول أن يستأنسها . وتحقق له ذلك ورباها ليذبحها ويأكلها . ثم استخدم بعض هذه الحيوانات فى جر العربات وجر عربات التاريخ من قارة الى قارة ، ومن مرحلة الى مرحلة .. ففى السنة التى ولد فيها الرسول عليه السلام هاجمت الفيلة الكعبة . وكان ذلك عاما حاسما .. وسمى عام الفيل ..

والقائد هانيبال زحف الى أوربا وأثار فيها الرعب وانسحبت أمامه كل قواتها لانه استخدم الفيل لاول مرة ..

والخيول دخلت مصر مع الهكسوس .. وبدخول الخيول مصر تغير وجه التاريخ .. وتغيرت معالم المعابد وجدرانها .

وحيوانات أخرى غيرها اشتركت فى ملحمة الحياة والصبر عليها والصمود من أجل ما هو أفضل لها ولصغارها .

وتاريخ الانســـان والحيوان هو ملحمة العذاب من أجل البقاء . انها معارك الصداقة والعداوة . معارك الســيادة .. وكان من الطبيعى أن يسود الانسان بعقله . وقد سجل ذلك كله فى اغانيه واعماله الفنية وفى أساطيره ..

والبداية قديمة جداً . فالحياة بدأت على هذه الأرض من ثلاثة آلاف مليون سنة . وكان شـــكل الحياة بسيطا بدائيا . عبارة عن خلية حية . هذه الخلية ظهرت فى الماء . والحياة على الأرض كلها خرجت من الماء . القرآن الكريم يقول : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » . فقد كانت الأرض ملتهبة أول الأمر . وأخذت تبرد فى ملايين السنين . وتتكون من حولها السحب . ومن هذه السحب التى بها كل عناصر الحياة : الهيدروجين والاوكسيجين وثانى أوكســيد الكربون ومن ورائها ومن حولها الاشعة فوق البنفسجية التى تفيض من الشمس خرجت الحياة . أو كان « الجو » أو « البيئة » أو « الحضانة » التى لابد أن تخرج منها الحياة . وخرجت وكان ذلك فى الماء .

ومضت ملايين أخرى من السنين عندما انحسر المــاء وأصبحت هناك محيطات وشواطىء من الوحل . والوحل هو الماء والطين معا . أو هو « الحل الوسط » بين البر والبحر ومضت الوف السنين لتتعقد

الحياة ويكون لها شكل . وينتقل هذه الكائنات من البحر الى البر . وتعيش هنا وهناك . وما تزال فى المحيطات كائنات غريبةعجيبة. هذه الكائنات هى سلالات مستمرة من مئات ملايين السنين .

وتوجد بعض الآثار فى شمال أمريكا وشمال أوربا تشير الى هذا النوع من الحياة التى ظهرت فى البحر وتسللت الى البر ثم عادت الى البحر ..

وفى الصراع المستمر من أجل البقاء تدرعت بعض الكائنات البحرية بالعظام والأنياب حتى لا تفنى . وتطورت الأشكال العظمية وانيابها وازدادت مرونة . بل اننا نجد بعض الكائنات البحرية أصبح لها فك اكثر مرونة . واقدر على أن يمسك وان يعض . وهذه خطوة هائلة فى تطور الكائنات البحرية .. او الاسماك .. ولا تزال بعض الاسماك محبوسة فى اقفاصها العظيمة . وهذه الاقفاص سجل تاريخى لما كانت عليه هذه الحيوانات من مئات ملايين السنين .

وفى الوقت الذى ظهرت فيه الأسماك فى البحر ، ظهرت الاعشاب على الشاطىء .. والشجيرات والأشجار الكثيفة .. وانتقلت الأسماك من البحر الى الشاطىء . وليس هذا الانتقال قصيرا كهذه العبارة . ولكنه طويل بملايين السنين . واهم ما حدث : هو أن هذه الحيوانات استطاعت ان تتنفس الهواء مباشرة ـــ اى هواء الجو وليس الموجود فى المـاء !

ومنذ ٣٠٠ مليون سنة حدث ارتفاع فى درجة حـرارة الأرض . فذابت المساحات الهائلة من الجليد .وحدث طوفان . غرقت الأرض. وزحف البحر على الأرض . فكان كل شيء بحرا . وغرقت معظم الغابات وتراكم بعضها فوق بعض.ومضت الوف السنين . وانحسر الماء الساخن . أو الماء الذى يغلى . والذى جف . واحترق كل شيء

على الأرض . وتحولت الأشجار المحترقة الى فحم .. الى مناجم الفحم التي ستخدمها الحضارة الصناعية وقودا منذ مائتي عام ..

ولم تنعدم الحياة على الأرض .. بل كانت هذه الحياة قد اكتسبت تجارب جديدة ، واتخذت لها أشكالا متنوعة . وتعلمت الحشرات أن تطير من الارض الى الشجر . ومن الشجر الى الشجر . بعض الاسماك كانت تطير أيضا . ولا يزال بعضها يرتفع من الماء الى الشاطىء . أو من البحر الى النهر . أو من النهر الى البحر .. وبعضها له زعانف كالأجنحة تماما .. أو هى اجنحة .

واجتهد العلماء فى تفسير ما حدث لهذه الحيوانات ، ذهابا وايابا من البر الى البحر .

ففى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وعلى أيام نابليون تصور العلماء أن تطور الحياة يشبه التطورات السياسية . ففى أيام نابليون كانت عروش تقام وعروش تنهار . وحدود يمحوها الانسان، وحدود جديدة يضيفها الانسان .. وتصور العلماء أن الحياة كانت على شكل ما ثم حدث ما غير هذا الشكل بعنف .. ومعنى ذلك أن تطور الحياة ، كالتطورات السياسية ، هزات عنيفة وانتكاسات وثورات . فتاريخ الحياة ينتقل من عنف الى عنف .

وظهرت نظرية تقول ان الزواحف أطول عمرا . لان الزواحف تخرج من الماء الى البر . وتعود الى الماء . وان هذه المرونة واتساع مجال الحركة والحياة قد أعطاها فرصا أكبر للبقاء لانها تضع بيضها على الشاطىء بعيدا عن الزواحف او الاسماك المفترسة .

ويظل البيض على الشاطىء أو فى الطين حتى تخرج الصغار من البيضة . واذا كان البيض يحمى الصغار حتى تخرج ، فبعد خروجها تفتقر هذه الحيوانات الصغيرة الى الحماية مرة اخرى . من مشاكل التماسيح الآن فى بحيرات أواسط افريقيا أنها تضـــع بيضها على الشاطىء وعندما تخرج التماسيح الصـــغيرة من البيض تعاجلها القردة بقتلها .. أو أن القرود تحطم البيض قبل أن يفقس .. ولذلك فالقرود خطر على هذه التماسيح !

وظهرت حيوانات ضخمة . هذه الحيوانات الضخمة كانت قادرة على أن تقاوم الحيوانات الصغيرة . ولكن هذه الحيوانات قضت على نفسها أيضا . فضخامة حجمها جعلتها أثقل حركة . وجعلتها أقل مرونة . وجعلتها اذا وقعت لا تقوم . واذا قامت تنحشر بين الأشجار أو بين الجبال . وتظل كذلك حتى تموت .. فالعلم الحديث كشف لنا من عدد من فصائل الديناصور الهائل قد حبسها احد الوديان حتى ماتت .. مع أن أصغر حيوان يستطيع أن يتسلق الأحجار وأن يصعد الجبل ومنه الى الوادى أو الكهف يستأنف حياته من جديد . فضخامة الأجسام آفة هذه الحيوانات .. فالكبير عاجز عن الشىء الصغير الذى ينقذه من الموت أو من الفناء ! وقد فنيت هذه الكائنات الكبيرة، لأنها كبيرة . والفيل والنمر خير دليل على ذلك . الفيل أكبر وأقوى . ولكنه أقل حركة . ولذلك كان « مجاله الحيوى » ضـــيقا .. أى المساحة التى يستطيع أن يتحرك فيها أضيق من المساحة التى يتحرك فيها النمر ، فافترست فيلة كثيرة جـــدا ، وبقيت نمور أكثر .. فالقوة ليست العضلات ، ولكنها القدرة على مواجهة المشاكل والافلات منها ، بالدوران حولها أو عدم التعرض لها ، أو بالقضاء عليها — أنظر الى حياتك وتذكر مواقف معينة ثم تساءل كيف هزمتك أو كيف قهرتهـــا ؟ مع فارق واحـــد : أن لديك عقـــلا ، ولدى

الحيوانات مخالب وانياب . وانها بانيابها واظلافها واظافرها نقشت تاريخهـــا على انقاضها وانقاضنا . وبقيت وبقينا ولكننا الـــدر والمضـــل !

ولابد من لفت نظر هنا والان وبسرعة :

حتى لا نتصور ان الحياة اخرجت نفسها من الماء الى الارض ، وزحف وطارت وقامت وقاومت من تلقاء نفسها ، يجب الا ننسى أن هناك « ارادة عاقلة » .. أن هناك « حكمة واعيـــة » أو « عقـــلا كونيا » يعنى : الله ..

فنحن لا نقول مثلا ان فندق شيراتون عبارة عن مجموعة من قوالب الطوب .. أو مجموعة من الالواح الزجاجية أو الخشبية .. مع أن هذا الفندق مجموعة قوالب وألواح واسلاك . ولكن الفندق ليس كومة من المواد المختلفة . وانما هو شكل هندسى معمارى . هذا الشكل هو مجموعة قوانين ونظريات فى العمارة والكهرباء والميكانيكا والاقتصاد والسياسة ايضا . انه صورة عقلية . صورة حكيمة . اى أن هناك عقلا أو اكثر من عقل جعل الطوب غرفا والألواح نوافذ والاســـلاك كهرباء وتليفونات وتلغرافات .. ثم هناك قواعد وقوانين تربط بين الموظفين والزبائن .. والذى يحدث فى فندق حدث فى الوف الملايين من الكائنات عندما تحولت من خلايا الى كائنات حية .. الى كائنات متطورة .. الى زحف عنيف نحو الحيـــاة والبقاء رغم كل الظروف الطبيعية والانسانية المضادة ..

هناك ـــ اذن ـــ حكمة الحياة .. التى هى ارادة هذا الكون ..

ارادة الله . التى لا نعرف منها الا القليل . لان وسائل المعرفة صغيرة فوسيلتنا هى العقل . والعقل ما يزال عاجزا من الكثير جدا (الف مرة جدا) مما فى هذا الكون .. مما فى هذه الأرض .. أو مما فى هذا الجسم الانسانى أو الحيوانى .. أو فى هـذه الخلية الحية فى حيوان او انسان أو نبات ! ـ انتهى لفت النظر !

والنقوش فى الكهوف تصور الحيوانات على جدرانها . الحيوانات تجرى . بعض هذه الحيوانات تنزف دما . اذن لقد صورها الانسان وهو يطاردها . لانه أقوى منها . وهو يصورها دامية استعراضا لقوته . فالدم اذا نزف يدل على انه قتلها . وانه لا يخافها . وانما يغريه ذلك بأن يكرر ذلك مرة والف مرة . ونحن لا نعرف بالضبط أن كان الانسان قد استأنس الحيوانات أولا ، ثم أكلها ، أو انه اكلها قبل أن يستأنسها . على كل حال بعض النقوش تصور لنا هذه الحيوانات هادئة ساكنة ، كأنها رضيت بحكم انسان عليها . وحكمه عليها انه حبسها واذلها أو ذللها حتى أصبحت ذيلا له .. مثل كلبه تماما . والانسان كان يستخدم الكلب فى الصيد . ومعنى هذا انه استأنس الكلب ثم أطلقه على الحيوانات . فالكلب هو أول حيوان استأنسه الانسان . وعندما عرف الانسان كيف يستأنس هذه الحيوانات ، عرف أيضا ان يبنى الأسوار لتحمى الحيوانات وراءها . وكانت الاسوار من الاشجار ثم من الاحجار وعرف الحبال التى يمسك بها الحيوانات . . ولابد ان تلتف الحبال حول ارجل أو أعناق الحيوانات .

ولا يمكن أن تلتف الحبال دون أن يعرف الانسان كيف يصنع من الحبل « عقدة » . وعندما اهتدى الانسان الى « العقدة » كان قد

اكتشف شيئا عظيماجدا . فهذه العقدة كانت رابطة للخيوط والانسجة والحبال . وقد تبدو العقدة عملا تافها . وهى بالفعل كذلك الان . ولكن من مئات الالوف من السنين كانت اكتشافا لا يقل عن اختزان الكهرباء فى البطاريات الجافة فى السيارات والبطاريات والراديوهات وسفن الفضاء !

وتدل الآثار التى عثر عليها العلماء فى البرازيل أن الهنود الحمر كانوا يحبسون الخنازير دون ان يعرفوا انها طعام يمكنهم ان يعيشوا عليه .. كل انسان كان « يقتنى » بعض الحيوانات لا لانها طعام ، ولكن لانها جميلة الشكل فقط . أى أن الانســـان كان يصيد الغزال والماعز والحصان لان لها شكلا جميلا . ومعنى ذلك أن الانسان كان فنانا محبا للجمال .وهذا الحب للجمال معناه أن لديه ما يأكله ، وأن لديه ما يتفرج عليه .. والانسان لا يســـتطيع أن يحقق الفائدة المادية واللذة الجمالية الا من طريق القوة .. قوة الصيد وقدرته على حماية ما يصيده .. فاحتفاظه بهذه الحيوانات دليل على اقتداره ودليل على ذوقه .

وفى سنة ١٨٧٩ عثر الأب برويل فى أسبانيا على نقوش فى كهوف . هذه النقوش هى القوة والجمال . فالحيوانات منطلقةبسرعة هائلة . والانسان قد سجل هـــذه الحركة . فهو اقتناها وراقب حركتها . وتمتع بذلك . ثم انتقل من مجرد الاعجاب الى تسجيل ذلك .وجاءت ابنة هذا العالم ، وبالصدفة ، فدخلت أحد الكهوف وراحت تصرخ بالأسبانية : توروس .. توروس .. أى ثيران . ولم يكن الذى رأته ثيرانا فقط وانما كانت هناك خيول ايضا . الوانها حية قوية جميلة . وكانت هذه الخيول والثيران تعيش على حدود أسبانيا وفرنسا من عشرين الف سنة .

وبعد ١٦ سنة عثر العلماء فى أنحاء متفرقة من الكرة الأرضية على نقوش مماثلة تسجل ما جرى فى العالم فى نفس الوقت .

ولابد أن فكرة « راس المال » قد ظهرت فى هذا الوقت . لان كلمة « راس » هذه قد جاءت من رؤوس الغزلان والأبقار والخيول . فالذى يملك عددا كبيرا منها هو الأغنى وهو الأقوى وهو القادر على صيدها والاحتفاظ بها وحمايتها واطعامها والتباهى بها . فهذه الحيوانات ثروة وقوة . ولا يزال راس المال قوة . ولا تزال بعض القبائل البدائية ترى فى كثرة الحيوانات مصدرا للقوة والسلطة . ولا يزال « المهر » هو عددا من الأغنام أو الأبقار . ان قطيعا منها هو استعراض واضح بارز متحرك لثروة الأب واهمية العروسين عند الأهل أو القبيلة ..

وبعد ذلك عرف الانسان أن الحيوانات ليست الا طعاما مدخرا .. طعاما يمشى على أربع .. والحيوان ليس الا حارسا للحمه حتى يجىء الانسان فيقرر ان يذبحه ليأكله او يذبحه ليبيع لحمه . أو يبيعه لغيره من الناس ..

والقصة طويلة ومتنوعة ومثيرة ومسلية وفيها الكثير من الاشارات والتلميحات الى الانسان نفسه كما سنرى .

واذا كانت الحيوانات يقتل بعضها البعض جوعا ، اى من اجل الطعام والبقاء بعد ذلك : فان الانسان هو الحيوان الوحيد الذى يقتل الحيوان او الانسان الآخر لأسباب اخرى غير الجوع . وقد حاول الانسان ان يقنع نفسه بالعدول عن القتل . ولكن هذه المحاولات لم تنجح بعد — مع ان حيوانات كثيرة قد عدلت عن ذلك من وقت طويل !



كالحيوانات
يموتون كما يولدون في الظلام!

الانسان حاول ان يفسر كل شيء حوله تفسيرا انسانيا . فهو ينظر الى سلوك الحيوانات كما ينظر الى سلوكه هو . فالحيوانات تخاف وتغضب . وتعيش حياة اجتماعية ولكل جماعة زعيم . وزعيم القطيع هو الذى يقودها يمينا وشمالا ..

واذا مات راس القطيع ارتبكت الجماعة حتى تجد لها راسا جديدا . والانسان قتل الحيوانات ليأكلها او خوفا منها . ولذلك خاف الانسان من هذه الحيوانات ان تنتقم من الانسان .

وهذا الخوف من الانتقام هو الذى جعله يكف عن قتلها بالالوف . فالخوف من الانتقام يمكن أن يكون بداية ظهور فكرة الضمير عند الانسان . فالضمير يقول له : لا تفعل كذا حتى لا تصاب بكذا .

ولذلك وجدنا الانسان من مئات الالوف من السنين يعلن أن

بعض الحيوانات يجب الا يمسها بسوء .. او لا يمسها . فهى شىء ممنوع لمسه . فاللمس بمناسبة . ثم أن الانسان اتخذ من بعض الحيوانات رمزا له . أو علامة مقدسة . او شيئا مقدسا يتلمس عنده البركة والوقاية من الحيوانات الاخرى ومن أعوانه من البشر .

وكثيرا ما أصيب الانسان بكل كوارث الدنيا ، ولكنه رغم ذلك لم يكفر بهذه الحيوانات المقدسة . تماما كالجندى الذى يحارب تحت العلم . ورغم ما اصابه من هزيمة فانه لا يمزق العلم . وانما يظل ممسكا به ايمانا منه بأن العلم هو شرفه وهو كرامته .. وانه لابد أن ينتصر مرة أخرى !

وظهرت عند الانســـان فكرة اخرى تقول : انه بعد أن يموت فسوف يتحول الى حيوان .. او ينتقل من جلده الانســـانى الى جلود مئات الحيوانات . ويعتبر انتقاله الى أجســـام الحيوانات الاخرى نوعا من الانتقام منه .. فحتى لا يكون حيوانا بعد وفاته ،فمن الافضل الا يؤذى الحيوان بقتله او أكله !

وربما كانت هذه الفكرة هى التى ادت فيما بعد الى أن يقال أن الانسان أصله حيوان .. وانه ينتقل من الحيوانية الى الانســـانية ومنها الى الحيوانية مرة أخرى — وهذه هى « الدائرة الحيوانية » التى يتحرك فيها الانسان حيا وميتا .

وعند الفراعنة كانوا يرون أن الانسان يتحول الى حيوان بعد موته . وبعد أن يبقى حيـــوانا ثلاثة آلاف سنة يعود انســـانا مرة أخرى . وبعد فترة قصيرة يعود من الانســـانية الى الحيوانية من جديد .. والمصريون القدماء يرون أن كل شىء ثابت الا الانسان ..

فالنيل له مواعيد للفيضـــان ، والشمس تشرق وتغرب .. والقمر يصغر ويكبر .. كل ذلك فى مواعيد ثابتة .. الا الانسان فان حياته متغيرة متبدلة .. وهذا التبدل اهم مظاهره : أن ينتقل الانسان من جسم الانسان ألى جســم الحيوان . وهذا الانتقال بالروح . فهذه أولى نظريات تناسخ الأرواح . وهذه النظرية قد انتشرت لاسباب غير واضحة لنا الآن ، فى الشرق والغرب . وفى القرن السادس قبل الميلاد . فمثلا عند الفيلسوف اليونانى فيثاغورس ، وعند تلامذته من بعده . وعند الراهب الكبير بوذا فى الهند والصين . ولكن بوذا كان حريصا أن يؤكد لتلامذته ان كلامه عن الحيوانات ليس الا رمزا .وانه استخدم الحيوانات فى نصائحه لتجسيد أفكاره وجعلها واضحة عند أقل الناس قدرة على الفهم . ولكن تلاميذه أخذوا نصائحه حرفيا ..

يقول بوذا .. ايها الرهبـــان هنـــاك اناس كالحيوانات . او حيوانات يعيشون على الاعشـــاب . أيها الرهبـــان انها الخيول والاغنام والابقار والحمير وكل من يحب الطعام يرى ان الحياة هى الطعام ومن اجل الطعام هو هذه الحيوانات . واذا قدر له ان يعيش بعد الموت فانه سيكون حيوانا مرة اخرى .. ايها الرهبان هنـــاك حيوانات تأكل الزبالة مثل الكلاب والكتاكيت والخنازير . ان الزبالة تنعشها وتهبها الحياة . ولو ماتت لتمنت أن تعود الى الزبالة .. ايها الرهبان ان هناك اناسا هكذا . افهمونى . ايها الرهبان : ان هناك حيوانات ولدت فى الظلام وسوف تموت فى الظلام . النـــور يوجعها ويضللها ويفزعها . ان هـــذه الكائنـــات هى البراغيث والصراصـــير والخفافيش والبوم .. ان هنـــاك حيوانات ولدت فى الماء وماتت فيه كالاسماك والسلاحف والتماسيح . . ان الاشرار، ايها الرهبان ، هم الذين بعد موتهم يفضـــلون الحياة الدنيـــا انهم .. مشدودون اليها . انهم عاجزون من الانســـلاخ عن الجســـد من المادة من الشهوة .. انهم حيوانات » .

ولم يفهم تلامذته مئات السنين أن المقصود ليس الحيوان ، وانما الحياة الحيوانية ..

وعند الاغريق وجدنا الآلهة يعاقبون الانسان بان يمسخوه حيوانا. او انهم يقومون بتهريب الانسان في صورة حيوان .. ومن السهل جدا أن يتحول الانسان الى حيوان ثم يعود الى انسانيته . والاغريق عباقرة في حكاية هذه الخرافات . وفلسفتها وتعميقها . والشاعر اوفين في كتابه « التحولات أو مسخ الكائنات » من ترجمة د. ثروت عكاشة يقدم لنا روائع القصص والمغامرات وكنزا من المعاني الرائعة . ولكن الاغريق يرون أن الانسان هو اسمى الكائنات . بل انهم يرون أن الانسان أعظم من الآلهة وقادر على أن يتغلب عليهم بل ان الآلهة تحقد على الانسان وبعض الآلهة يتمنى ان يكون انسانا ولكنه لا يستطيع .. ولذلك فالاله اذا اراد أن يتفوق على الانسان كان من الضروري أن يمسخ نفسه انسانا .. ماذا فعل تغلب عليه الانسان . ولذلك فان الآلهة تتكاتف معا ضد الانسان القادر على التمرد على كل الآلهة !

والعالم الكبير فريزر يقول : لابد أن الخنزير كان حيوانا مقدسا عند اليهود من الوقت السنين . فاليهود يحرمون أكل الخنزير ويحرمون أكل الجمل . ويرون ان الجمل مصدر لكثير من الامراض . ولكن السبب الحقيقي أن الخنزير لا يناسب الحياة التي يعيشها البدو في المناطق الحارة . فهو بطيء الحركة . وهو في حاجة الى كثير من الطعام ، وغير قادر على أن يتحمل الجوع فكرهوه ووجدوه عبئا ثقيلا عليهم . وقد اثبت العلم الحديث ان لحم الخنزير هو مصدر متاعب المعدة والامعاء . وتحريم لحمه صحي ايضا (وفي التوراة نجد وصفات علاجية عن طريق لحم الطيور . فقد وصف الانبياء

اليهود لحم الطيور علاجا للمصابين بكثير من الامراض الجلدية التى استعصى شفاؤها) .

شىء عجيب حقا أن يتقدم الفراعنة فى كل مجـــالات المعرفة وان يسبقوا زمانهم ، وانهم لا يزالون اسبق شـــعوب العالم فى الفلك والتحنيط ، ومع ذلك يقدسون الحيوانات !

والحيوانات التى يقدسونها كثيرة . وهذا يجعلنا نعتقد انالفراعنة كانوا نباتيين . فهم يقدسون الابقار . والعجل آبيس (بالالف الممدودة والباء الثقيلة) قد عثر عليه العالم الاثرى مارييت فى سقارة . وهذا العجل موجود بطول وعرض الحضارة المصرية . وتماثيله واضحة وهو يحمل قرص الشمس بين قرنيه . وكانت تقـام له الحفلات . وتقام له الجنازات اذا مات . وبعد وفاته مباشرة ينطلق الكهنة بين قطعان الماشية يبحثون عن معبود له علامة خاصة فى راسه أو عنقه أو جسده ــ فاذا وجدوه أقاموا الحفــلات وتوجوا المعبود الجديد . واستراح الناس لانهم عثروا على رب لهم ، أو حارس لهم يحميهم من الحيوانات الاخرى . . ولذلك قدموا له طعاما خاصا وحريما من الاناث !

والفراعنة عبدوا الطائر « ابيس » ــ بالالف المكسورة والبـــاء الخفيفة ــ وهذا الطائر شبيه بابو قردان ولكنه ليس هو . ويقال انه الطائر ابو منجل . . ويقال ان هذا الطائر قد انقرض ولم يعد احد يراه الا فى اعالى النيـــــل وفى المتحـــــف المصرى . انه بنى العنق والذيل متوسط الحجم .

والتمساح الذى وصفه هيرودوت بانه يملأ النيل . وان سكان العاصمة المصرية لا يعرفون طعم النوم بسبب بكاء التماسيح . وقد ظل العالم كله يتصور أن التمساح يملأ النيل حتى ان زعيما عالميا كبيرا سأل الرئيس عبد الناصر ان كانت التماسيح ما تزال فى مياه النيل عند القاهرة ؟ !

ولم يكن حيوانا مقدسا عند كل المصريين . فالناس فى «اسوان» كانوا لا يكنون له احتراما كافيا . كانوا يأكلونه . وقد جاء فى احدى الاغنيات المصرية القديمة أن واحدا يقول ما معناه : اقوم من النوم اقول يارب عدلها ، بلد حبيبى قصاد عينى ومش قادر اعدى لها .. وكان المصرى القديم يقول : بلد حبيبتى أمام عينى ولكن لا استطيع أن اذهب الى حبيبتى . ان التماسيح فى الماء ولكن حبى جعل التماسيح ضفادع .. ثم جعل الضفادع فقاقيع فى الماء . ولا بد أن اذهب الى حبيبتى » .

وكان المصرى القديم اشجع واصدق واكثر استعدادا للتضحية . أما المصرى الجديد فهو قد افتعل صعوبة العبور الى حبيبته ليشكو . فهو قادر على أن يذهب الى حبيبته — أن كانت حبيبته — فلا مشاكل فى المواصلات ولا تماسيح فى النيل ..

وفى « كتاب الموتى » الفرعونى اجد كلاما كثيرا عن « القط » الذى يمزق الافاعى تحت الاشجار المقدسة . ومن الغريب اننا لا نجد رسوما كثيرة للقط فى المصاطب القديمة . وربما كان أول ذكر للقط قد جاء قبل الميلاد بعشرين قرنا عندما عرفنا أن زوجة أحد رجال بلاط الملك منحوتب الاول اسمها « بوسى » . وان هذا القط جاء الى

مصر من الغرب ومن الجنوب . وهناك رسومات كاريكاتورية تبين الفنان المصرى وهو يتسلى أو هو يحاول ان يجد الموعظة الاخلاقية . فهناك صور لجنث من الفئران تهاجم قطا محاصرا فى قلعة . وهناك فأر عملاق امام قط مربوط بالحبال !

اما الكلب فهو من اخلص الحيوانات للانسان ، ولذلك استحق منه عظيم الاحتقار . وقد جاء خطــاب بعث به موظف مصرى قديم يعيش على اطراف الوادى : انه لا يكاد يفتح باب بيته حتى يتقــدم له ٢٠٠ قط و ٣٠٠ كلب متوحش و ١٠٠ ذئب . كلها تقف امام بابه، فلا هو قادر على أن يخرج ولا هو قادر على أن يربى ماشيته ولا على أن يأكل .. أما النوم فهذه مشكلة المشاكل :

والحمار افريقى الاصل . وهو لا يزال فى مصر كما كان من آلاف السنين . والحمار كالكلب استحق احتقار الانسان ايضا . واول مرة رأينا فيها رسما لحمار كان هكذا : حماران احدهما يمشى وراء الآخر وأمام الاثنين جحش صغير . وقد رأينا كرســيا على ظهر الحمار الاول . ولم يشأ الرسام أن يبين لنا ما الذى يحمله الحمــار الآخر .. ولكن لابد انه يحمل شيئا مماثلا .

ويقال ان المصريين وصفوا أحد ملوك فارس بأنه : ملك حمار . فما كان من الملك الفارسى ارتكسركس الثالث الا أن اقام احتفــالا للعجل أبيس ، ووضع حمارا بدلا من هذا العجل وغضب المصريون وثاروا ! ! !

ويقال ان المصريين القدماء كانوا يحرقون مدينة الاسكندرية ذات

الطابع الافريقى والتى تقام فيها تماثيل ادوليس وافروديت ، لأن احد الرومان قد قتل قطا !

اما الحصان فالمصريون قد عرفوه أيام الاسرة الثامنة عشرة . ويقال ان الحصـــان قد أتى به الهكسوس ـــ وهم ملوك الرعاة . ولكن ليست هذه حقيقة مؤكدة . فمن المعروف أن الحصـــان قـــد استخدمه البابليون قبل ذلك بوقت طويل . وعندما دخل الهكسوس الى مصر ، كان الحصان قد سبقهم اليها . ولا يزال الحصان يحتفظ بالاسم العربى القديم : سوسيم ـــ اى خيول . والعربات اسمها : مركبوت .

اما الجمل فلم يدخل مصر الا فى عهد الرومان ..

والمصريون قد عرفوا الخيول التى تجر العربات قبل أن يعرفوا ركوب الخيول نفسها . وفى متحف اللوفر لوحة مشهورة اســـمها لوحة النسور . ففى هذه اللوحة بعض النسور تحوم حول جثث القتلى بينما نجد احد ملوك سومر يركب عربة يجرها حصان . وكان ذلك قبل الميلاد بعشرين قرنا اى على أيام حامورابى ..

والخيول حيوانات مفضلة عند الاغريق . فهم يرون أن الحصان: حيوان نبيل جميل . وان الحصان لابد ان يكون الآلهة قد صنعوه بأيديهم مباشرة . اى انهم لم يكلفوا احداً من صغار الآلهة بصنعه .. وكان الاغريق يفضـــلون الحصـــان لأن فيه تمردا اى نزوعا الى الحرية . فهو جميل نبيل حر . وكلما كان الحصان شرسا ، كان ذلك مجالا وتحديا للانسان ان يستأنسه فاذا فعل فهو بطل . الاسكندر

الاكبر مثلا كان له حصانه المشهور بوسيفالس . ولم يكن أحد يقدر على ركوبه . ولكن الاسكندر استطاع عندما اتجه بحصانه ناحية الشمس . والشمس هى التى جعلت الحصان أقل انطلاقا . ولم يكن هناك شىء اعز عند الاسكندر من هذا الحيوان الجميل . فلما مات حصانه اقام له المدن باسمه . وأقام مدينة فى نفس المكان الذى دفن فيه رمزا للوفاء . فقد حمله هذا الحصان حتى الهند !

واتخذ الشعراء والفنانون الكثير من الحيوانات مادة لاعمـــالهم الفنيـــة . فهم يختارون للحيوانات أدوارا فى الحيـــاة الاجتماعية والسياسية للانسان . ويجعلون للحيوانات حياة تنقذ حياة الانسـان . والمؤلف المسرحى العظيم اريســـتوفانيس له مسرحيات : الغربان والضفادع والطيور .. وقد استخدم هذه الحيوانات للسخرية من الانسان . وقد فعل ذلك كثيرون من الادباء فى كل العصور .

والكاتب اليونانى سيمونيدس عندما يتحدث عن أصل المراة يقول ان هنـــاك اربعة انواع من النســـاء : نوع جميل نبيل انحدر من الخيول . والثانى هو الذى لا يكف عن العمل ، ولابد انه انحدر من النحل . والنوع الثالث هو الذى يدفن نفسه فى الانجاب وهو الذى انحدر من بذور القمح . والنوع الرابع القذر الدنىء ولابد ان يكون قد انحدر من كلبة ـــ ولا تزال كلمة « كلبة » فى اللغة الانجليزية احط انواع الشتائم .

وهناك الفنان اليونانى الشـــهير ايســـوب . كان عبدا واطلق سراحه . وظل يرتقى حتى أصبح سفيرا . وقد روى قصص الحيوانات ونوادرها وهو لا يرفع عينه من الانسان وسفالته وانحلاله الخلقى .

ويقال ان ايسوب هذا قد هاجم رجال الدين . ودبر له رجال الدين مكيدة . فعندما زار معبد الفن أفلح رجال الدين ان يضعوا كوبا من الذهب في ملابسه . ثم ضبطوه وحوكم . وتقرر اعدامه قذفا من احدى الصخور ، فمات غريقا !

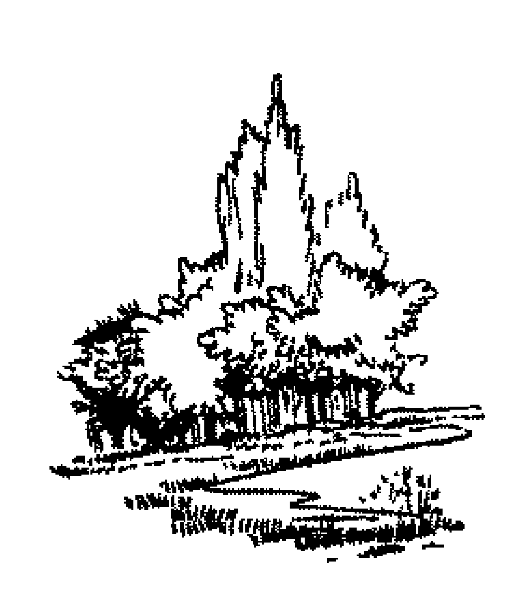
ـــ وظل الانسان الوف السنين ينظر الى الحيوانات على انها كائنات ناقصة التكوين ترى ولا تعرف كيف تعبر . أو اذا عبرت كان ذلك في صمت . وراح الانسان يفسر سلوك هذه الحيوانات كما يفسر سلوكه هو . ولكن رجلا عبقريا فذا اسمه أرسطو هو الذى أرسى قواعد علوم باكملها بعقله الجبار . فهو بدأ ينظر الى الحيوانات ويلاحظ سلوكها . ويقارن بين بعضها البعض .. فهو الذى ادرك أن حيوانات لها دم وحيوانات لا دم لها .. حيوانات لهـا فقرات وحيوانات بلا فقرات .. حيوانات تلد وحيوانات تبيض .. وهو أول من اشار الى أن هناك علاقة بين بيض الدجاجة وبين الديك. وهذا يكفيه جدا أن يقول ذلك منذ ٢٥ قرنا . وقد احصى ارسطو في كتابه « التاريخ الطبيعى » حوالى ٥٠٠ حيوان .

ويقال أن الاسكندر الاكبر هو الذى كان يبعث اليه بالحيوانات والنباتات العجيبة من كل مكان يذهب اليه . ولكن هذه الحيوانات مهما بلغ عددها لم تكن سببا كافيا لان يهتدى ارسطو الى هذه الحقائق الحيوية . لقد اخطأ ارسطو كثيرا في الاستنتاج . ولكن هذه اخطاء تعتبر تافهة اذا قورنت باكتشافاته العظيمة في علوم الحياة ووظائف الاعضاء . لقد اخطأ في عدد الاسنان وعدد الضلوع وعدد الفقرات .. ولكن اشاراته الى الحياة في بطن الام ، هى الخطوات الاولى الباهرة في العلم الذى سوف يظهر بعد ذلك باسم « علم الاجنة » .

وعندما سئل ارسطو فى احدى المرات : ما الذى تفعله بالضبط مع هذه الحيوانات والنباتات ؟

قال : لا شىء . اننى فقط اعلمها كيف تنطق باللغة اليونانية لعلى افهم شيئا مما تقول . ولكنها مع ذلك لا تقول كثيرا !

سوف تقول اكثر فيما بعد !



علمته وتعلمنا هذه الحيوانات !

ثلاث مراحل مرت بها الانسانية ..
مرحلة : اكلنا الرغيف وتفرقنا !
اى كل ما كان يجمع بيننا هو لقمة العيش .
ومرحلة : انني اعــرف جانب الرغيف الذى اضع عليه الزبدة .
فهنــاك اكثر من الرغيف .. ثم ان للرغيف جانبين ، وانا لا آكل الزبدة لانني وجدتها . ولكني استطعم الزبدة واختار لها المكان المناسب .
ثم ان عندى متسعا من الوقت !

ثم مرحلة : كل ما أطلبه من هذه الدنيا هو الرغيف والفرفشة !

اى آكل رغيفى وابسط نفسى بالضحك واللعب والحب . وبعد ذلك لا شيء . ويجب الا يكون هناك اى شيء آخر .

الأديب الرومانى القديم الساخر جوفينال قال : ما الذى يريده هؤلاء .. العمال .. لا شىء الا الرغيف والذهاب الى السيرك !

ولم يكن جوفينال يحترم العمال وانما يحتقرهم . فهو يرى أن الذى يعمل بيديه لا رأس له . فقط يأكل ويحب . ولا قيم أخلاقية ولا دينية ولا مثل عليا ولا طموح !

ولكن جوفينال من ١٩ قرنا كان ظالما . فهؤلاء العمال كانوا يطلبون الخبز ، لأنهم لو طلبوا شيئا آخر ما وجدوه ، لو طلبوا اللحم مثلا ، فمن أين يشترونه لو وجدوه فى الأسواق . فلم تكن الحيوانات متوافرة فى ذلك الوقت . لأن اللحوم ما تزال طعـــام القادرين . أما الفقراء فليس لهم الا الخبز والضحك على الأغنياء والسخرية من فقرهم — ولا تزال هذه مشكلة مئات الملايين فى العـــالم .

***

وما حدث فى الحرب العالمية الثانية دليل جدا على ذلك . ففى أثنـــاء هذه الحرب ماذا جـــرى ؟ الجنود وحدهم هم الذين يجدون اللحم . وطبيعى الا يبخل احد عليهم بذلك . فقد ذهبوا يقـــدمون أرواحهم من اجل الآخرين .. ثم ان عمال مصانع الذخيرة ارتفعت اجورهم وأصبحوا قادرين على شراء الرغيف واللحم ومع ذلك فان امريكا نفسها قد وزعت اللحوم بالبطاقات !

فكانت اللحـــوم نوعا من الترف . لأن الأرض لا تســـتطيع ان تطعم كل الحيوانات . والحيـــوانات لا تستطيع أن تشـــبع كل الناس . والأغنياء فى الدنيا يمـــلأون موائدهم بلحوم الحيوانات

والطيور والاسماك ، والفقراء يلتقطون فتات الخبز . ومع بداية حرب الطبقات فى التاريخ ، اتخذت الحرب شكل الصراع بين الخبز واللحم .

ففى المدن الاغريقية القديمة ، كان لابد أن يجد الأغنياء وسيلة للحصول على اللحوم ، فزرعوا المراعى .. أو تركوا الحيوانات تأكل الأعشاب والغلال والأشجار ، ولم نجد فى الأدب الاغريقى القديم حديثا كثيراً عن الحيوانات ولحومها وطعامها وطعامهم .

ولكن عند الرومان نجد هذا التخصص فى الاستمتاع بالطعام ونقرأ نثرا وشعرا عن الخبز والقبلات واللحم .

(ومن المناسب هنا أن أنبه الى اننا الآن نتعلق من ذيل بقرة أو جاموسة أو كلب ونمشى معه أو وراءه فى تاريخ الانسان .. فانا وانت معا نقرأ « بصمات » الحيوانات على عقل وقلب ومعدة ملايين الناس فى الوف السنين ـــ انتهى التنبيه الذى أضأته حتى لا تنسى ولا انسى انا ايضا عن اى شىء نتكلم منذ اسبوعين وفى الاسابيع التالية .

وهذا يذكرنى بما قاله داروين عندما وجدوه يجمع الأصداف وجذور النباتات وجماجم الحيوانات فقال : لا شىء سوى أننى أقفز من شجرة الى شجرة وراء قرد فيه شبه كبير جدا بالانسان) ! ..

* * *

نعود الى صورة غريبة لرجل عظيم مات منذ اكثر من عشرين قرنا . هذا الرجل اسمه « لوكولوس » . هـذا الاسم يتردد فى كتب كثيرة فى التاريخ . ففى تاريخ المعارك كان قائدا عظيما .

ذهب بقواته الى ارمينيا وهزمها . وســـحقها ومات من جيشـــه خمسة من الضباط وجرح مائة جندى . جيشه كله كان ١٨ الفا . هذا الرجل عندما اتجه الى روما توقف عند احدى المدن الأرمنية وبكى ، فقد احالها جنوده ترابا !

هذا الرجل ايضا كان يحب الكلام ، أو يحب الكلام اثناء الطعام. وهو أول من قال : ان الكلام يساعد على الهضم . وكان سابقا لعصره بعشرين قرنا . فالأطباء اليوم يرون أن الجلوس الى المائدة يجب أن يطول قدر استطاعتك فلم تعرف الانسانية قرحة المعدة الا عندما عرفت السندوتش . اى عندما عرفت الاكل اثناء المشى واثناء القراءة واثنـــاء العمل واثنـــاء الفرجة على المسرح وعلى السينما وعلى التليفزيون .. ولم تعرف الانسانية أوجاع المصران الغليظ الا عنـــدما عرفت الموائد الصـــغيرة فى المطاعم اذ يجلس الزبون وحده وقد أدار وجهه الى الحائط . وهو قد أدار وجهـــه الى الحائط لأنه مشغول بهمومه الخاصة . وهو ـــ ككل ابنـــاء المدن الكبرى ـــ حريص على أن يكون مع همومه وحده .. وتتأكد له هذه الوحدة ، والقرحة ايضا !

* * *

وهذا الرجل ايضا عندما توفى حاول الناس أن يدفنوه فى احتفال ضخم . ولكنه قد سبقهم جميعا وأوصى بأن يموت على مزاجه . فطلب الى اقاربه أن يملأوا قبره بالتفاح وأن يتغطى به وبالورود!

وبعد وفاته جاء الصيادون وجمعوا من البحيرات التى انشأها حول قصره ٢٥ الف كيلو سمكا !

واذا جاء ذكر الفلاسفة فلم يكن هذا الرجل مفكرا عظيما . وانما كان عاشقا لكل صاحب فكر عظيم . وكان اذا أراد أن يتحدث مع احد طلب اليه أن يزوره فى بيته . فاذا جاء الى البيت راح الاثنان ياكلان ويشربان ومن المؤكد أنه قد شهد ميلاد الكثير من القضايا الفلسفية والاجتماعية والسياسية . وكان يضحك دائما ويقول : مساكين هؤلاء الفلاسفة . انهم لا يجدون ما ياكلون واذا وجدوه لا يستطعمونه . انهم اناس لديهم مشاكل فى احشائهم — ولم يكن فى هذا مبالغة . بل كان سابقا لعصره بمئات السنين!

لأسباب أخرى يهمنا هذا الرجل لوكولوس . فهو اول من ابتدع « البيسين » . . أى حفر الارض وملأها بالماء . ثم القى فى الماء الأسماك . وكلمة « بيسين » معناها فى اللاتينية حوض السمك . وهو كان حريصا على ذلك لأنه يريد أن يأكل السمك طازجا . وكان يأتى بالأسماك من اماكن مختلفة من العالم . وهو أيضا أول من ابتدع « الكباريه » . . فهو قد صنع كهوفا تحت الأرض . . وأضاءها . . وجعل الراقصات والمغنيات يفرفشن الضيوف . . ثم أول من جعل الحيوانات تمر بين الصفوف ليتفرجوا عليها . وكان يأتى بالحيوانات والطيور النادرة من أفريقيا . وكانت الكهوف ملونة . وكانت عليها نقوش للآلهة واساطير الاغريق وأساطير الشعوب القديمة .

وهو اول من اتى بثمرة الكريز من البحر الاسود . وقدمه لضيوفه .

. وهو أيضا أول من اتى بالحيوانات المفترسة واطلقها فى غابة لها اسوار . فكان اول من اقام حديقة حيوانات فى اوروبا . وهذه

الفكرة ماخوذة عن الشرق ، فقد كان من عادة الملوك فى الشرق ان يحتفظوا فى حدائقهم الخاصة بالحيوانات النادرة . وعندما جاء الاسكندر الاكبر الى الشرق كان يضع الى جوار خيمة القيادة اسدا اسيرا — رمزا لقوته هو ، وأنه سوف يفعل نفس الشيء مع اعدائه !

وكل هذه العناية بالحيوانات والطيور والاسماك كان من أجل متعة الأغنياء والحكام . ولذلك كان النـــاس — ولا يزالون الى حد ما — يحتقرون صناعة الجزارة . لأنها قتل للحيوان بينمـــا الاغنياء يفضلون أن يبقى الحيوان حيـــا . فهم ليسوا فى حاجة اليه . أو أن لديهم ما يكفيهم . ولذلك يجب أن يتفرجوا ويستمتعوا. فاكل اللحوم ليس مشكلة . وانما هم انتقلوا من مشكلة الطعام الى الاستمتاع به والتفرج على الذى زاد على حاجتهم !

ومن الغريب أن الرومان كانوا يشربون البـــان الحيوانات . ويصنعون منها الجبنة .. ولكنهم يحتقرون من ياكل الزبدة .. ولكن هذا المعنى تغير عندما اهتدت احدى الغانيات الى ان الزبدة اذا وضعت على الوجه أو على البشرة فانها تجعلها ناعمة لينة. فارتفع ثمن الزبدة ، وأصبحت الزبدة هى صناعة كل البيوت ، ومطلب كل النســـاء .. ووجدنا فى الأدب اللاتينى مثـــل هـــذه العبارات : انها زبدة .. انها تذيبك كمـــا لو كنت زبدة .. ان بشرتها لم تعرف الزبدة . انها هكذا خلقها الله !

وعرف الرومان أيضا « حظائر » الابقـــار . فكانوا يحبسون الثور مع سبعين بقرة . ويشترطون أن يكون الثور ابن سنة أو ابن سنتين على الأكثر . أما الثيران التى تزيد أعمارها عن ذلك

فانهم « يعقمونها » ويطعمونها لتزداد سمنة فيتكدس لحمها على موائد الاغنياء والقواد ..

* * *

يقول لوكولوس وهو يهذى على فراش الموت : يا خسارة لم تشأ الآلهة أن تجعل لى معدتين . لعلها ارادت الرفق بالفقراء وبالحيوانات وبالطيور وبالاسماك وبمعشوقاتى .. لو كانت الآلهة تجيب لى طلبا اخيرا فاعرف منها ما الذى سوف يأكله الناس فى بيتى وهم يبكون حزنا على فقد صديق ظريف كريم .. ثم ينسون هذا كله وهم يشربون النبيذ ويتفرجون على الراقصات .. أننى اعرف أن المائدة سوف ينقصها المرح وسوف ينقصها ذلك الرجل الضخم الذى كان زينة المجالس .. والذى ذاق كل شىء فى دنياه .. وحصل على كل ما يريد .. وحقق كل غاياته من الدنيا .. ولكن الآلهة بخلت عليه أن تكون له معدة اخرى .. ادفنونى .. ضعوا سكر القصب فى فمى .. بل لا اريد قصب السكر وانما أريد عسل النحل فانا لست مريضا . وانما ميت من شدة الشبع واللذه .. انتهيت » !

وكان من عادة الرومان أن يعالجوا مرضاهم بقصب السكر الذى جاءهم من الهند . اما عسل النحل فهو المصدر الوحيد للسكر عندهم .. او للحلاوة . وكان هذا طعام الشعب . وقد عرف الفراعنة فوائد العسل قبل أن تعرفه كل شعوب العالم . فالفراعنة كانوا يضعون العسل على الدمامل وعلى الجروح . وكانوا يضعونه فى العين . وكانوا يضعونه على البشرة ليجعلها ناعمة . وكانوا يحنطون به الموتى . ولم يكن الفراعنة يعرفون ما الذى سوف يكشفه العلم الحديث بعد ذلك من أن العسل قاتل لاى ميكروب . ولكن الفراعنة اهتدوا الى ذلك من التجربة .

وربما كان شمشون الجبار أول من لاحظ ان أسدا ميتا متعفنــا ومع ذلك جاء النحل واقام خلية فى هذا الجسد الكريه الرائحة . ومن هنا كانت الفزورة التى دوخ بها شمشون ابناء غزة عنــدما قال : ما هو الحى فى الميت . وما هو الحلو فى المر ؟ ولم يعرف احــد كيف يجيب على ذلك . ولكن دليسلة راحت الى شمشون واغرقته بالقبلات والأحضان . وعرفت تفسير هذا اللغز بعد ان قصت شعره ، الذى هو مصدر قوته ، قال لها : الحى فى الميت ، هو النحل فى جثمان الأسد الميت .. والحلو المر هو العسل فى جسمه المتعفن !

ومضت مئات السنين لنعرف أن عفونة جسم الأسد لا تنتقل الى طعم العسل . فالعسل قاتل لكل ميكروب !

وفى امريكا نجد أن شركات كبرى تنقل النحل بالملايين من حديقة الى حديقة . ليقوم النحل بتلقيح الزهور . ثم تجمعه وتعيده الى مكانه .. وقد عرف الفراعنة ذلك من الوف السنين . فقــد كان الفراعنة يأتون بملايين النحل فى احدى السفن . ويقفون عنــد المدن ويتركون النحل ينطلق الى الحقول والحدائق ، يجمع رحيق الزهور ويلقحها .. ثم ينقلونه فى النيل الى أماكن أخرى وهكذا !

❋ ❋ ❋

وعرف الاغريق والرومان والفراعنة ضرورة ذبــح الحيوانات تقربا للآلهة . ولكن الرومان ذهبوا الى أبعد من ذلك . فــكانوا لا يكتفون بتقديم الذبيح ، وانما يجىء الرجل العراف ويفتح بطن

الحيوان وينظر الى الامعاء . ثم ينظر الى الكبد . ومن شكل الامعاء يعرف مستقبل صاحب الذبيحة . ومن حجم الكبد ولونها وشكلها يعرف كم يكون عمر صاحب هذا القربان . وكانت قراءة الامعاء والكبد ، نوعا من قراءة الكف . ومن الغريب ان الرومان تفوقوا فى ذلك . بل ان احد العرافين قال ليوليوس قيصر : اليوم اسوأ يوم فى حياتك . اجلس فى بيتك سوف تجىء الأنباء تحت قدميك .. فلا ترفع سيفك على أحد .. ولكن غدا سوف تسمع اسعد نبأ فى حياتك ان شكل كبد الخنزير يؤكد ذلك . ولو كنت ذبحت الخنزير قبل هذا الثور لجاءت اخبارك السعيدة اولا . وفى نفس اليوم تآمر بعض الرومان على أعز صديق ليوليوس قيصر فقتلوه وهو مخمور . وفى اليوم التالى انجبت احدى عشيقاته طفلا ذكرا . وكان هو يتمنى ذلك !

ولا يزال بعض العرافين فى افريقيا يعرفون الطالع من مجرد النظر الى ريش الطيور وقد تراكم على الأرض .. او عظام الطيور وقد القيت على الارض فجاء ثعلب او ذئب وقلب فيها بأرجله ولم يأكلها .. ولا يزال العرافون فى هونج كونج يعرفون مستقبلك من قطعة اللحم النيئة الدامية اذا انت قلبتها فى طبق ثم هززت الطبق . وتركتها . من مجرد النظر الى وضعها فى الطبق وشكل الدم حولها يستطيع العراف أن يحدثك عن مستقبلك !

واهتدى الرومان الى ضرورة ان يشغلوا الشعب بشىء . وكان الشعب مشغولا بالخيول . وسباق الخيول وسباق العربات . واقام الرومان « مسارح » لسباق العربات .. واشهرها ملعب

كولسيوم فى روما الذى يتسع لتسعين الف متفرج . وكانت العربات تجرها الخيول ويتفرج عليها الناس ويتعصبون لحصان معين .. أو لأسره معينة .. أو لسائق أو لصاحب خيول . وكانت تربية الخيول هواية وتجارة الاغنياء . وقـد اقيمت للخيول اصطبلات واسعة وفخمة . واتى الاغنياء بمربين للخيول من آسيا .

وكان من المألوف أن يرتدى سائق العربة زيا احمر او اخضر او أزرق .. وينقسم الناس الى مشجعى الاحمر او الاخضر او الازرق واختفى اللون الأخضر . وأصبح الناس فريقين متآمرين ويتقاتلون . وتحول الاختلافات على الخيول الى اختلاف فى السياسة وفى الدين . وكانت هذه الخلافات حادة واستهلكتهم وابعدتهم عن السياسة . واستراح الاباطرة الرومان الى أن هذه المسابقات قد استغرقت الناس فشجعوهم على ذلك .

ولكن حـدث ان قامت مظاهرات عنيفة فى القسطنطينية بين مشجعى « الفانلة الحمراء » ـــ النطق الصحيح « فالنة » لأنها كلمة انجليزية وفرنسية وايطالية والمـانية ـــ ومشجعى « الفانلة الزرقاء » . وقرر الامبراطور جوستنيان فى يناير سنة ٥٣٢ ان يعصف بهذا العبث الرياضى السياسى . وجمع فريقا من الطرفين . وهددهم . ولكن الجماهير تظاهرت والتفت حول قصر الامبراطور . وكاد يهرب من المدينة لولا أن زوجته الماكرة ثيودورا طلبت اليه ان يقول للجماهير شيئا . فقال اننى لا اعترض على الفريقين ولكننى احب الفريق الأخضر الذى ليس له مشجعون !

وفرحت الجماهير بأنها اغلبيــة والأمبراطور اقليــة .. وبان الامبراطور أيضا يحب مسـابقة الخيول !

ولكن ثيودورا ابنة رجل مشغول ايضا بتربية الخيول ومجنون بمشاهدتها .. ولكن جوستنيان انزل قواته وقتل ثلاثين الفا من مشجعى هذه الرياضة فى يوم واحد !

* * *

ولم يكتف الانسان الذى يريد أن يمزج اللذة بالالم ، والمتعــة بالقسوة من الفرجة على الخيول . وانما اتى بالحيوانات المتوحشة من افريقيا وأطلقها بعضها على بعض . والنـــاس يصرخون من الفزع ومن اللذة . اطلق الأسود على النمور . وأطلق الذئاب على الكـــلاب . ثم اطلق كل هـــذه الحيــوانات على المجرمين وعلى المعارضين السياسيين . والناس يصرخون فى متعة ، أو يستمتعون فى صراخ . ويطلبون المزيد ..

واول مصارعة بين الانســـان والحيوان شـــهدتها روما كانت فى سنة ١٨٦ قبل الميلاد . وكان ذلك بعد غزو الرومان لسوريا . ولكن هذه الرياضة الدموية قد اتى بها الرومان من العراق . فقد كانت منتشرة قبل ذلك بمئات السنين .

والى جانب هذه اللذات العنيفة : ذبح الانسان للحيوان ، وذبح الحيوان للانسان ، عاد الرومان الى رياضات هادئة . عادوا الى

عربات الخيول ولكنهم علقوا فيها الجمال . الامبراطور نيرون أول من فعل ذلك . ثم عادوا الى الغزلان وعلقوها في العربات . والنمور والأسود .. ثم الفيلة .

والاسكندر الاكبر قد شاهد الفيلة في معاركه . وخصوصا في الهند . ولاحظ الاسكندر ان الفيلة شكلها مخيف . ولكنها تعوق الحركة . ولذلك أمر جنوده بأن يحتموا في الفيلة ويطلقوا سهامهم ونبالهم على العدو . ثم اهتدى الاسكندر الى حيلة وذلك بأن يجعل الفيلة في مواجهه العدو ثم يكويها فتنطلق هائجة تمزق خطـوط عدوه وتأخذ معها فيلة أعدائه أيضا . وعدل عن استخدام الفيلة في المعارك . واكتفى بأن جعلها تنقل الخيام . وكان له فيل مشهور اطلق عليه اسم « اجاكس » . ويقال أن هـذا الفيل كان يرفع الاسكندر من الأرض ليحيي جنوده ولم يكن يفعل ذلك لأحد سواه !

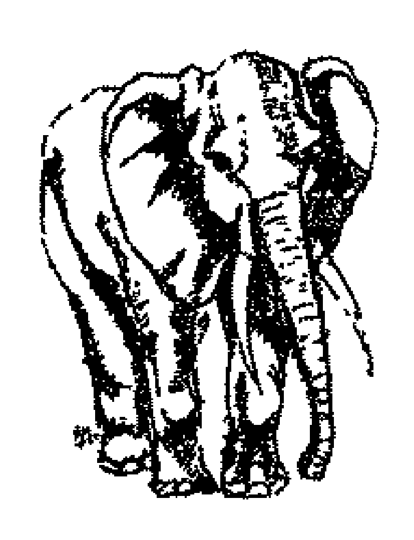
والقائد هانيبال عنـدما أرهب أوروبا بقواته كان يدفع أمامه خمسين فيلا .. ولم يصل منها الى نهر الرون في فرنسا سوى ثلاثين فيلا ولما عبر بها جبال الالب لم يبق منها سوى ثمانية .. وعندما هبط جبال الالب . لم يبق سوى فيل واحد .. ولكن الرومان كانوا قد أستعدوا له أيضا بعـدد من الفيلة .. ثم عـدل الجميع عن استخدام الفيلة ونقلوها الى السيرك للفرجة عليها ..

* * *

نعود لآخر مرة الى القائد الاكول لوكولوس . فقـد سئل في احدى ولائمه وهو يقلب عينيه ويديه بين الطعام والشراب والثمار ويقول : نحن حقيقة أولاد حيوانات .. فالحيوانات تأكل النباتات

ونحن نأكل الحيوانات .. ثم نحن نموت في الأرض وعلينـا تنمو النباتات .. وسوف يجيء يوم تأكلنا الحيوانات حتى نفنى ، فتعيش الحيوانات على النبات حتى تفنى فيأكل بعضها البعض ولا يبقى أحد في هذه الدنيا .. لماذا ؟ لأن هناك معـدة تأكل معـدة أخرى .. والأرض هذه هي أكبر معدة عرفناها !

وكان هـذا الرجل الذى اشتهر بأنه صاحب أكبر معـدة في التاريخ ، سابقا لعصره ولكل الأطباء وعلماء الحيوان والنبـات والفلك ، لأنه لم يرفع عينه ولا يده عن هذه الحيوانات ؟ !



وراء جنكيزخان
ربع مليون حصان !

لو جاء هـؤلاء الوحوش سـيرا على الاقدام لاستراحت منهم اوروبا مئات السنين ـ عبـارة قالها مؤرخ اغريقى وهو يصف هجـرة القبـائل البدائية الآسيوية فى القرن الرابع الميـلادى . فهذه القبائل قد تركت بلادها متجهة الى اوروبا غربا ، ومتجهـة الى الجنوب . وليس معروفا بوضوح لمـاذا هاجرت هـذه القبائل . ولكن المعروف انها قد ركبت الخيـول فكانت حركاتها اسرع واخطر .

وقد وصف المؤرخ الافريقى هؤلاء الآسيويين بان اشكالهم دميمة . وشـعورهم منكوشـة . وانهم لا ياكلون الا اللحـم النىء وانهم لا يغسـلون ايديهم او وجوههم . ويرون فى منظر الدم دليلا على النعمة وعلى الثراء . ويعيب عليهم انهم يحبون الذهب وانهم من اجل الذهب يبيعون الابن والزوجة والحصان ، وربمـا كان هـذا التقديس للذهب هو الشىء الوحيد الذى يربطهم ببقية الانسانية ! . .

وهى صورة كاريكاتورية . والحقيقة ان هذه القبائل الاسيويه راكبة الخيول ، عندها قدرات هائلة على القتال وعندها شجاعة . وعندها تراثها الفنى والادبى وطقوسها الدينية .. وهؤلاء « الوحوش » أكثر حضارة من « البرابرة » الاوربيين فى ذلك الوقت.

وبسبب هذه الخيول التى لديهم اقاموا امبراطوريتهم بسرعة وجعلوها واسعة اما هذه الخيول التى ركبوها واقاموا عليها قوتهم وعروشهم فهى متوسطة الحجم . صغيرة الراس طويلة الشعر ، وظهورها سريعة الانحدار . وسيقانها قصيرة . ولا تحتاج هذه الخيول الى ماء كثير اذا سارت فى الصحراء . وهؤلاء « الوحوش » الاسيويون ككل الرعاة يعيشون على اللبن والنباتات والثمار ولا ياكلون اللحم . فاللحم هو الخيول . والخيول قوتهم فى القتال والهرب .

وفى ذلك الوقت سقطت الامبراطورية الرومانية القوية . لماذا ؟ يقال ان الخيول رفست هذه الامبراطورية فسقطت . وهذه عبارة مبالغ فيها الى حد كبير . فسقوط الامبراطورية كان لاسباب كثيرة. ولكن هذه الخيول الزاحفة بمئات الالوف قد عجلت بانهيار الامبراطورية الرومانية . لان هذه « القوات المحمولة » على اربع والقادمة من قلب آسيا هى التى هدمت الامبراطورية الرومانية . ولم يكن الرومان فى ذلك الوقت قادرون على مواجهة الزحف الاسيوى كما ان الرومان كانوا يجهلون او يتجاهلون قدرة الخيول ، والفرسان والفروسية . فالجيش الرومانى به فارس واحد لكل عشرين جنديا .. أو به حصان واحد ابيض يركبه القائد العام ! ولذلك فالجيوش الرومانية أبطأ فى الحركة وفى الهجوم وفى الانسحاب .

وقد وجدنا فى التاريخ أن الفرسان الجرمان يطلقون على انفسهم كلمة « ريتر » ومعناها : راكب .. فراكب الحصان هو الفارس . وكان الرومان يسمون راكب الحصان « اكويس » — وهى كلمة

لاتينية معناها راكب . ولكن ليس كل من ركب الحصان فارسا .
ولذلك كان الاسيويون « فرسانا » وكان الاوربيون « ركابا » فقط !

وفى اوربا فى ذلك الوقت كانوا يطلقون اسم الفارس على كل من يركب الحصان او يملكه . ولم يكن يملك الخيول الا الاغنياء أو النبلاء . وكان الرجل الحر هو الذى يركب الحصان . فهو يستمد حريته من قدرة حصانه على الحركة والجرى والهرب .. ومن التعبيرات الشائعة فى ذلك الوقت : اركب حصانك .. اليس لك حصان ؟ لو كان عندى حصان ما رضيت بهذه الحياة دقيقة واحدة ! ركب فلان اسرع خيوله وهرب ..

وجاءت القوات الاسيوية الراكبة واسقطت الامبراطورية الرومانية الواقفة أو الماشية أو الجالسة !

وظل الحصان مصدر القوة العسكرية فى أوربا الف عام بعد ذلك . وكان سلاح الفرسان هو السلاح الافضل . وكان سلاح ابناء الذوات والنبلاء . فالجندى يرتدى بدلته المدرعة ويركب حصانه .. والبدلة غالية والحصان اغلى والموت بعيد عن هذا الفارس . ولا يستطيع أحد أن يحمى نفسه هكذا الا اذا كان غنيا . فالمشاة فقراء والفرسان اغنياء !

ولم تكن الخيول الاوربية الا حيوانات غليظة ضخمة . خطواتها ثقيلة . وأشكالها دميمة .. ولكن أوربا عرفت بعد ذلك أن تستورد هذه الكائنات الجميلة النبيلة من شمال افريقيا ومن شبه الجزيرة العربية . ومن منطقة نجد . وظهرت الخيول العربية بأجسامها الممدودة الانسيابية ورشاقتها وروعتها .. ولم يعرف الاوربيون هذه الكائنات الرائعة الا بعد أن اتصلوا بالعرب .. وقرأوا عن عشق العرب لهذه الخيول .. بل أن أمير

الشعراء الانجليز روبرت جريفز يؤمن بأن الادب العربى لم يعرف معنى « الفروسية » الا من العرب . فالعرب هم أول من اهتدى الى أن الفارس ليس من يركب الحصان . وانمـــا هو الذى له شجاعة الحصان ونبله وكرمه واحترامه للعواطف الانسانية . والفارس هو الرجل الشهم . أو العاشق الذى يضحى بحيـــاته من اجل محبوبته . وهو الذى يرى أن الحياة هى الحب . والحب هو الحياة . والحياة هى ان يموت الفارس من أجل المحبوبة . يكفى أن تراه يتعذب فتسقط على جثمانه دمعة واحدة . بل أن دمعة واحدة كثيرة . لانه يرضى بأقل من ذلك .

ويقول روبرت جريفز ايضا : أن أوربا لم تعرف معنى الحب العذرى أو الحب العفيف أو الحب « الأفلاطونى » الا من العرب . فمنذ العرب قبيلة اسمها قبيلة « بنى عذرة » . هذه القبيلة قد نذرت نفسها للحب الشريف . وهذه هى الفروسية .

ويقـــول روبرت جـــريفز ايضا : ان الشـــعراء المتجـــولين « الطروبادور » أى شـــــعراء الطرب ـــ لم يتعلمـــــوا فن الصعلكة النبيلة الا من الادب العربى . فالشاعر العربى لا يكتفى بأن يتعذب من أجل المحبوبة ، وانما يروح ينقل عذابه للآخرين . فيتجول من مكان الى مكان ويروى للناس كيف انه لم ير الا ثوب محبوبته .. طرف ثوبها .. وهو لا يفضحها وانما هو يتغنى بها ويقيم لها حفلات التكريم .. فهو محطة اذاعية .. هو فيلم .. هو اسطوانة تدور فى كل مكان . هؤلاء الشعراء كانوا فرسانا ، يركبون الخيول .. وفيهم اخلاق الخيول : شموخ وجمال وصمود واستعداد للتضحية !

وفى التاريخ الاسلامى نجد الرسول عليه الســـلام كان يركب الناقة وكان يركب الحصان . وكان ـــ ككل العرب ـــ يدعو الى

حب الخيل والى اقتنائها . وهو الذى قال : « الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة » . وكان يدعو ابناء المسلمين الى ركوب الخيل .. وعندما أسرى الله به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى تقول كتب السيرة انه ركب « البراق » وهو حيوان متوسط فى حجمه بين الحصان والحمار .. وفى المكان الذى وقف فيه البراق اقام عمر مسجده فى القدس . ويقول اليهود ان هذا المسجد أقيم فوق حطام معبد سليمان ..

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة وردت فيها كلمة «الخيل» .وهى ترد بمناسبة الاستعداد للقتال وضرورة محاربة العدو .والقرآن الكريم يقول : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم . » وفى القرآن الكريم سور تحمل اسماء الحيوانات والحشرات والخيول : البقرة والنحل والنمل والانعام . أما سورة « العاديات » فالمقصود بها « الخيل » والسورة تقول : «والعاديات ضبحا . فالموريات قدحا .فالمغيرات صبحا . فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا . » وهذه الآيات تصف الخيل فى حركتها واثارتها للتراب وسط القوات المعادية . والله فى هذه السورة يقسم بهذه المخلوقات الجميلة . وفى ذلك اقصى درجات التكريم ..

والعربى يستمد نبله وقوته من هذا الحيوان المتسق القوام . ويستمد ايضا كبرياءه . وقد وصف العرب حاتم الطائى بانه اكرم العرب لانه ذبح حصانه لاحد ضيوفه !

وعمر بن الخطاب عندما دخل القدس لم يشأ ان يركب حصانا وانما ركب ناقة وعلى هذه الناقة وضع طعامه من الماء والتمر والقمح . ودخل القدس حافى الراس . ولم يركب حصانا يتبختر به كما يفعل الفرسان أو كما يفعل الغزاة المنتصرون !

والتاريخ يسجل للعرب انتصاراتهم الهائلة شرقا وغربا بقوات صغيرة وخيول محدودة . وقد حاول الفرس أن يصدوا العرب مستخدمين الخيول . ولكنهم فشلوا . فقد كانت عندهم الخيول، ولم تكن لديهم الفروسية ـــ اى روح الشجاعة والاستعداد للموت فى سبيل الله ! ودخل العرب اسبانيا بجيش متواضـــع : ٣٠٠ فارس عربى وثلاثة آلاف من قوات البربر !

وبعد ذلك بخمسة قرون جـاء جيش من الشرق محمولا على الخيول ومزق اوربا كلها ، وداس مقدساتها وفتح عيون العـــرب على أن هناك حضارة أخرى .. أو شعوبا أخرى تستطيع أن تفعل ما عجزت عنه الحضارة الاوربية المريضة المتداعية . كان ذلك جيش جنكيز خان .

وقد وصف الرحالة الايطالى ماركو بولو جيش جنكيز خـــان (١١٦٢ ـــ ١٢٢٧) بانه كان يتحرك فوق ربع مليون حصان !

واصبح من المالوف فى اوروبا فى ذلك الوقت أن الرجل النبيل هو الذى يملك قطعة من الارض وحصانا . أو يملك حصانا دون أن يملك أرضا أو يملك الحصان والبدلة المدرعة دون ان يكون جنديا فى اى جيش . وانما يكفى أن يكون هذا « عاليا » فوق حصان ، و « منيعا » وراء بدلة من حديد .. وهو بكل مقـــاييس العصر يعتبر رجلا محظوظا !

وعرفت أوربا تربية الخيول . واستخراج الســـلالات الجيدة منها . لان الخيول التى هاجرت الى اوربا من الشمال فى العصور الجليدية كانت صغيرة هزيلة . او قبيحة التكوين . وقد أحس الاوربيون بذلك اثناء الحروب الصليبية . لم تكن لديهم هذهالخيول

العربية الرائعة . وحتى عندما انسحب الصليبيون من الشـــرق كانوا يحملون امتعتهم على ظهور الابقار والماعز والخنازير !

والخيول حتى ذلك الوقت كانت مظهرا من مظـــاهر الثراء والقوة . ولكن اوربا لم تعرف « الفروسية » أو رياضـــة ركوب الخيول . واذا حدث أن أراد بعض الفرسـان أن يتريض جاءت هذه الرياضة عنيفة دموية . فيلتقي الفرسان ويتحاربون .وتكون النهاية دموية مميتة . ان الملك هنرى الثانى ملك فرنسا قد سقط من فوق حصانه ميتا سنة ١٥٥٩ . ولم يكن ذلك فى الحرب وانما كان فى معركة مع احد الفرسان . ولم يكن ذلك الا على ســـبيل اللهو !

ولكن رجلا فرنسيا اسمه جيوفروا دى بروى هو أول من وضع لرياضة الخيل او للفروسية قواعد واصولا وطلب من كل الفرسان أن يحترموها وكانت هذه القواعد تؤدى الى الابقاء على حيـــاة الفارس والحصان . وان تكون استعراضـــا للخفـــة والسرعة والمناورة دون دماء !

والتاريخ الذى كتبته الخيول فى حياة الانسان والشعوب كلها طويل جدا ــ انه يشبه تاريخ الدبابة والمدرعات والطائرات . فالخيول هى دبابات وطائرات الانسان من الوف السنين !

واذا كان الانسان قد استخدم الخيول فى الرعى وفى الصيد ،فانه استعان أيضا بطائر غريب يساعده على ذلك . فالصياد كان يركب حصانه ويحمل على ذراعه طائرا هو « الصقر » ثم يطلق الصقر على الفريسة ويجرى وراءه . وبعد لحظات يكون الصقر قد أوقف له الفريسة . فالصقر ينطلق وينقض بسرعة على الطيور الاخرى أو على الأرانب او على الغزلان . ويقف على رأسها ويرفرف بجناحيه

فيجعلها عاجزة عن الرؤية . أو يضربها ف رأسها أو يفقأ عينيها .. حتى يجيء الصياد ويمسك الفريسة. ولا تزال هذه الصقور وسيلة من وسائل الصيد فى مناطق شبه الجزيرة العربية . فبدلا من ان يطلق الصياد سهامه ونباله ورصاصه على الفريسة ، فانه يطلق الصقر لكي يمسكها وهى حية دون ان يشوه مكانا واحدا من جسمها .

وفى العصور الوسطى كانوا يستخدمون الصقور لاصطياد الخنازير البرية . ففى فرنسا ، وهى كبرى الدول الزراعية فى اوربا ، قد أرهقتها حروب المائة عام حتى لم يبق لدى الناس ما ياكلونه من الخضراوات والفواكه والحيوانات . وحتى أصبح من الضرورى ان يلتزم صاحب البيت أو صاحب القصر باطعام خدمه وحاشيته والا فلن يجد أحدا يعمل لديه . ففى سنة ١٤٢٣ صدر قانون يقول: وللخادم أن ياكل اللحم مرتين فى الاسبوع وان يشرب زجاجة نبيذ . وفى أيام الصوم يجب أن يجد السمك .

أما الاغنياء فكانوا يضعون على موائدهم كل ما لا يجده الفقراء من لحوم : الخنزير والبقر والاوز والبجع والشواء والمسلوق وكانوا ياكلون الطاووس أيضا (وقد فعل ذلك شـاه ايران عندما أقام مهرجانه التاريخى بمناسبة مرور خمسة وعشرين قرنا على تاسيس الملك كوروش للدولة الفارسية ..)

ولكن طائرا واحدا نجا من الموت : الصقر .

ويقال أن المؤرخ الاغريقى كتسياس وكان طبيبا خاصـا للملك الفارسى ارتكسركس فى القرن الرابع قبل الميلاد ، هو اول من نقل الصقر الى اوربا . وأول من استخدمه فى الصيد . ولكن هذه العادة لم تنتشر فى اوربا الا بعد أن هاجر الاسيويون الى اوربا . وعـرف الغرب أن الصقور يمكن استخدامها فى صـيد الذئاب التى تهدد قطعان الاغنام والابقار ..

وفى احدى لوحات لويس السادس عشر نجده واقفا وعلى ذراعه اليسرى وقف الصقر شامخا براسه .

كما أن الملك فريدريش الثانى ، لم يكتف بتربية هذه الصقور الصيادة ، وانما اصدر كتابا فى تربية الصقور وتعليمها . كتابه اسمه « فن الصيد بالطيور » . وفى الكتاب يحدث القارىء عن اخلاقيات هذا الطائر . وكيف يأكل وكيف يشرب . وكيف يجب تجويعه قبل اطلاقه على الفريسة . ثم مكافأته بعد ذلك بان يعطى القلب والكبد وعينى الفريسة . والذى يقرأ كتاب الامبراطور يشعر بان تدريب الصقور الصيادة عمل شاق . ولكنه من انبل الاعمال فى ذلك الوقت .

والفراعنة انفسهم كانوا يرمزون بالصقر ــ حورس ــ الى السماء .. او الى الفضاء الخارجى . ويرون أن هذا الصقر له عينان هما : الشمس والقمر . وكان هذا الطائر فى اعلى مراتب القداسة عندهم ..

وحيوان آخر رافق الانسان سنوات طويلة . او كان اول من صادقة ! الكلب . وكان الانسان يستخدم الكلب فى حراسة الاغنام، ولم يكن الكلب حارسا لها تماما ، وانما كان يحميها من الذئاب والثعالب . وكان الكلب حيوانا محتقرا رغم احساس الانسان بفائدته . وكان من عادة الاغنياء أن يضعوا كلابهم فى غرف الخدم .

ولكن فى العصور الوسطى ظهرت الكلاب فى قصور النبلاء والملوك . ثم ظهرت الكلاب فى لوحاتهم الفنية . وظهرتأنواع نادرة من الكلاب . وكان الكلب يستمد « مكانته » هو ايضا من مكانة سيده . بل أن الفنان كان يعكس طبيعة السيد على طبيعة الكلب . فاذا كان السيد مثل « فيليب الطيب » دوق بورجانديا ظهر الكلب هادئا جالسا عند قدمى سيده ، واذا كان السيد شريرا مثل «شارل

السيىء » ملك مقاطعة نفارة الاسبانية ظهر الكلب شرسا يقضم الطعام عند قدمى سيده ..

وظهرت حيوانات وطيور اخرى كثيرة فى اللوحات الفنية بل وفى النقوش القديمة . ففى احدى مقابر المملكة الوسطى الفرعونية نجد نقشا به تسعة وعشرون نوعا من الطيور .. وفى مقبرة الكاتب المصرى حور محب فى عهد تحتمس الرابع نجد نقوشا لطيور كثيرة .. كما ظهرت الحيوانات المفترسة على دروع الجنود رمزا للقوة والمنعة . بل لا يزال « وحيد القرن » منقوشا مع عظيم الاحترام على الاسلحة الملكية البريطانية . وكان القدماء يتصورون أن وحيد القرن حيوان نادر او حيوان خراف . فالمؤرخ الرومانى بلينى كان يعتقد وكذلك الفيلسوف الاغريقى ارسطو أن وحيد القرن لا وجود له.

ولما نقلت التوراة من اللغة العبرية الى اللغة اليونانية ترجمت الكلمة العبرية « ريم » ومعناها : ابقار الى الكلمة اليونانية « مونوكيروس » ومعناها : وحيد القرن .

وقد استخدم القدماء اسم « وحيد القرن » للدلالة على العفة والعذرية وقوة الفضيلة .وذهب القدماء الى أبعد من ذلك فتصوروا ان قرن وحيد القرن هـذا يحقق المعجزات . وان الذى يحتفظ به تحدث له البركات .. وان الذى يسحق القرن ويشربه مع النبيذ تكون له قوة جنسية هائلة .

عجيب امر الانسان : انه يبدأ بتقديس الحيوانات ثم تكديسه ثم القضاء عليه ، ثم الحزن عليه والعمل على انقاذه وتربيته والبحث عن شىء جديد يقدسه تمهيدا للقضاء عليه .. وهـذا ما فعله بنفسه ايضا !

خنازير كولمبوس ملأت العالم الجديد !

مع اكتشاف امريكا ظهرت حيوانات وطيور جديدة ، فالخنازير الثمانية التى حملها كولمبوس معه قد اصبحت الآن مئات الملايين فى العالم الجديد ، ولم يكن اكتشاف امريكا عملا بارعا بالصدفة ، ولكنه نتيجة لمحاولات ومغامرات استغرقت مئات السنين ..

ويجب ان نذكر دائما أن الصيادين هم الذين لمسوا كل شواطىء العالم الجديد . فالصيادون من ابناء الشمال هم الذين اكتشفوا « جرينلاند » اى الأرض الخضراء ولم تكن الأرض خضراء عندما اهتدى اليها « أريك الأحمر » وانما كانت جرداء جليدية صحراوية مميتة . ولكنه اختار لها هذا الاسم ليستدرج الناس الى الحياة فيها . وكان هو وابنه أول من اقام فيها . وبعد ذلك تكاثر المهاجرون جيلا بعد جيل ..

يقول « اريك الأحمر » فى مذكراته : كنت أطلب من ابنى أن يقوم بدور الكلب وأحيانا بدور الدب ، لنشعر نحن أن هناك كائنات اخرى ترانا أو تخافنا أو تعمل لنا اى حساب ! ..

ويقال ان « أريك الاحمر » هذا استطاع أن يصل فى مغامراته البحرية الى شواطىء أمريكا . والى جزيرة « رود » بالذات . ولكنه يوم اهتدى الى هذا المكان النائى لم يكن يعرف بالضبط ، ما الذى يراه عن بعد ..

وبعد ذلك توالت مغامرات ابناء جنوه الايطالية ، والبحارة الاسبان والبرتغاليين . كلهم اتجهوا عبر المحيط الأطلسى . لماذا ؟ لأن لديهم معلومات ما ، بأن شيئا ما ، يوجد فى الناحية الأخرى .. ما هو هذا الشىء ؟ يقال : انها بلاد التوابل : بلاد الهند . أو بلاد الحرير : بلاد الصين .

واكتشفوا جزر الكنارى وجزر ماديرا وجزر الآزورس ..
ومن الملاحظ أن كل الجزر التى اكتشفت قد حملت اما أسماء القديسين أو اسماء الطيور . فقد كانت الطيور بألوانها الزاهية الصارخة وأصواتها المغردة هى اهم ما رأى وما سمع الأوربيون. فجزر الكنارى نسبة لطائر الكناريا .. وجزر أزروس أيضا . فالكلمة البرتغالية « اسورث » معناها : الصقور . والجزيرة مليئة بالصقور .

وكانت هذه الطيور تستقبل سفن المغامرين من بعيد ، وتحلق حولها فى كبرياء . وقد فتن الاوربيون بالببغاء . وانتقل هذا الطائر الى ادبهم وشعرهم واغانيهم وخرافاتهم ايضا .

وأول ما واجه الأوربيين المكتشفين أن هذه الجزيرة فقيرة . وان اهلها بدائيون متخلفون تماما.ولذلك احتاج الأوروبيون الى أن يأتوا معهم بالطعام من اللحوم . فنقلوا الحيوانات الأليفة الى هذه الجزر . ونشروها . وامتلأت بها الدنيا الجديدة . وقد أدى وجود بعض هذه الحيوانات الى ظواهر غريبة لم تكن فى حسابهم .

فمثلا عندما نقلوا الأرانب الى جزيرة اسمها « الجزيرة المقدسة » تكاثرت بمئات الالوف فى سنوات قليلة ، حتى اكلت ما فى الجزيرة من أعشاب ، بل انها كانت تتسلق الاشجار وتأكل اوراقها الخضراء ..

يقول بعض المؤرخين : ان الذى ينظر الى الجزيرة بعينه من بعيد يجد سطحها يتحرك .. يعلو ويهبط ، كأن أمواج المحيط قد استقرت فوقها . فاذا اقترب منها أكثر وجد أن الذى يتحرك هو موجات من الأرانب !

* * *

نفس التجربة حدثت عندما أكتشفت استراليا . كانت الارانب قد اكلت المزارع فأتوا لها بالقطط . فأكلت الأرانب واصبحت القطط متوحشة . فأتوا لها بالكلاب . فتحولت الكلاب الى ذئاب متوحشة ويقال انهم فى استراليا قضوا على الكلاب التى قضت على القطط التى قضت على الأرانب ، فانتشرت الفئران بصورة شرسة .. وفى الهند عندهم مشكلة مماثلة . ففى الهند يحتاجون الى جلود الثعابين فيصيدونها . وكانت الثعابين تأكل الفئران التى تأكل محصول القمح والذرة . ولذلك أصبح ممنوعا صيد الأفاعى لأنها تقضى على الفئران ، وبذلك ينجو القمح والذرة ؟ .

والمستعمرون الأوروبيون الجدد لهذه الجزر او لهذه الأراضى المكتشفة يحتاجون الى ضمان طعامهم . والى ضرورة معرفة الحيوانات والطيور الجديدة.وان كان فى الامكان ذبحها او تصديرها الى أوربا .. وبعد ذلك معرفة حدود الأرض الجديدة والبحث عما فيها من ثروات طبيعية .

واذا كانت الأرانب هى أول المهاجرين الاوربيين الى العـــالم الجديد ، فقد جاءت بعد الارانب الابقار والأغنام والماعز والخنازير والدواجن وكذلك البذور .

وكولمبوس عندما اكتشف امريكا سنة ١٤٩٢ كان يحمل فى سفنه بعض اللحوم والاســـماك الجافة .. ولكن رحلة كولمبوس الأولى كانت استطلاعية فقط وبعد ذلك جاءت رحلته الثانية الباهرة ويقول كولمبوس فى مذكراته بتاريخ ٩ اكتوبر سنة ١٤٩٢ أى بعد ٣١ يوما من السفر من جزر الكنارى : ظللنا طول الليـــل نسمع أجنحـــة الطيور . ولا نعرف أين نحن بالضبط . ولكنى مؤمن بأن الأرض قريبة جدا »

وبعد ثلاثة ايام توقف كولمبوس عند جزيرة هى جنة الطيور . كل شىء فيها غريب عجيب . اشجارها وارضها وثمارها . واهم من ذلك كله عدد لا نهائى من الببغاوات . وقد حمل منها عددا كبيرا الى اوربا . ووجد بالصدفة بعض الاحجار اللامعة على الشاطىء فظن انها ذهب . ولم تكن كذلك . وايقن انه قد اهتدى الى الهند. وكولمبوس هو الذى أطلق خنازيره فى الدنيـــا الجديدة .. وهربت الخنازير الى الغابات واختفت منه .. وبعد مئات السنين أصبحت الوف الملايين .. طعاما سائغا للرجل الاوروبى والأمريكى ..

* * *

ومما حمله الاوربيون الى العالم الجديد : الخيول .

وكانوا يركبون الخيول ويمسكون السهام والنبال ويطلقون النار على الهنود الحمر . فخافوا أول الأمر . وبعد ذلك لم تعـــد هذه الخيول تخيفهم وكانوا يظنون ان الحصان وراكبه كائن واحـــد .

ولما تشجع الهنود الحمر واطلقوا سهامهم على الأوربيين سقط منهم الكثيرون على الأرض . واندهش الهنود الحمر كيف أن هذا الحيوان ـــ اى الحصان وراكبه ـــ يمكن أن ينشطر نصفين بهذه السهولة !

(وعندما اكتشف كوك أيضا جزر هاواى كان يضع يديه فى جيب البنطلون فكان أهل هاواى يعجبون لذلك اذ كيف يخفى يديه فى بطنه ويخرجها . ولما راح يدخن السجائر ، أدهشهم كيف أن النار فى احشائه ولا يموت .. ولما قتلوا رجاله البيض فزعوا لذلك . ولكنهم تشجعوا حتى قتلوا كوك نفسه) .

والشاعرة المكسيكية الراهبة خوانا كروث تقول سنة ١٦٨٨ عن الأوربيين الذين غزوا بلادها بالحديد والنار : من هؤلاءالوحوش الذين جاءوا عبر المحيط يدوسون أرضى المقدسة ؟ ويذبحون اجدادى وينهشون لحمهم ، وينهبون ثرواتهم بلا سبب ؟ .. ان اجدادى متحضرون اما هؤلاء القادمون من وراء البحر فوحوش بربرية .. !

واهتدى الانسان الى حيلة أخرى غير استخدام الخيول ، استعملوا الكلاب المدربة . وأخذوا يطلقونها على قبائل الانكاس. وكانت الكلاب تمسك بهم وتعوقهم لتصيبهم نيران الاسبان .وعرف الانكاس حيلا أخرى جديدة . كان الواحد منهم يتغطى بمواد مسمومة فاذا هجم عليه الكلب مات لتوه . أما لماذا لم يمت الانكاس من السموم التى تنفذ الى ما تحت الجلد ، فذلك ما لم يعرفه أحد بعد .

ويصف لنا المؤرخون الاسبان كيف رأوا قصر الملك مونتزوما الثانى « ملك المكسيك » قال احد المؤرخين : وكان قصره قطعة

من الجحيم . تعيش الاسود والنمور فيه.وترى الطيور الصارخة. والطيور المغردة والطيور الجارحة .. وفيه اخطر من هذا كله : أنواع عجيبة من الافاعى التى لها ريش . وكانوا يضعون الافاعى فى الصناديق ثم يلقون اليها بلحوم الكلاب وكان من عادة الملك اذا زاره الضيوف أو الأوربيون الجدد ، ان يقدم لهم الطعام وسط هذه الوحوش . وكان حريصا على أن يجعلها جائعة فتعوى وتنبح وتصرخ — اما الثعابين فيكون لها فحيح غريب رهيب .

وفى الرسائل التى وجهها كولمبوس الى الملوك الكاثوليك فى اوربا سنة ١٥٠٣ ، وكان فى ذلك الوقت فى جامايكا يقول : ان فى هـذه البلاد اسودا وقططا ضخمة فى حجم الانسان نفسه .

وفى هذا العالم الجديد لا احد يشرب اللبن او يذوق لحم الحيوانات — الاغنياء والنبلاء ورجال الدين فقط — اما بقية الناس فلا قدرة لهم على هذا الترف العظيم .

* * *

وعندما استولى البرتغاليون على البرازيل اطلقوا عليها اسم أرض الببغاوات . وان كانت كلمة « البرازيل » فى اللغة البرتغالية تعنى نوعا من الخشب الثقيل الذى يخرجون منه الصبغة الحمراء. ولكنهم كانوا يسمون هذه البلاد بجنة الطيور . وكان من عادة البرتغاليـين أن يدرسوا ويسجلوا ملاحظـاتهم على كل الطيور والحيوانات والنباتات التى تلفت عيونهم . بينمـا كان الاسـبان مشغولين فقط بالبحث عن الذهب .

وعلى الرغم من أن الثمار فى العالم الجديد كبيرة الحجم ، فان الحيوانات كانت صغيرة الحجم . وهذا العالم الجديد لم يعـرف الفيل الهندى الحبشى ولم يعرف التمساح النيلى الكبير . وانمـا فى العالم الجديد تماسيح صغيرة . ولم يكن يضـايق المستعمرين الجدد سوى الحشرات التى تلسع . وسوى الأفاعى التى تمص دمهم فى الليل .

أما الهنود الحمر فهم يأكلون كل الحيوانات فيما عدا حيوان آكل النمــل .

وبعض القبائل تأكل الانسان نفسه وعندها أسباب كثيرة لذلك. اما ان يكون ذلك بدافع الانتقام .. أو بدافع المحبة .. فنجد القبيلة تأكل شخصــا من قبيلة أخـرى ، ومعنى ذلك ان دمها واحد . وجسمها واحد . والروح واحدة . وتقام لذلك طقوس هائلةبالطبول والرقص والبخور .

من عادة هذه القبائل اذا أسرت عدوا أن تكرمه فتعطيه الطعام الذى يجعله أسمن . بل ان بعض القبـائل عنـدما كانت تأسر الاوربيين كانت تحبسهم وتقدم لهم أفضل الطعام وتقدم لهم بنـات القبيلة ليكون زواج وأطفال . أما الذكور — فلأنهم اولاد الرجل — فيأكلونهم . أما الأناث — فلأنهن بنات المرأة — فلا يأكلهن أحد . ثم لابد من أكل الذكر حتى لا ينتقم لوالده .

وقد روى للعالم كله مثل هذه القصص رجل أوربى وقع فى الأسر . ورفضوا أن يأكلوه رغم ما قـدموا له من طعام ، لأنه كان جلدا على عظم !

وقاوم الأوروبيون هذه الوحشـية ، فأصدروا القوانـين التى لا تحرم قتل الانسـان ، وانما تحرم أكله . .وبينما صدرت هـذه القوانين كان بعض الأوروبيين يبيع للهنود الحمر سكاكين أكبر لكى يتمكنوا من ذبح الانسان بسهولة !

ولم تتوقف هذه الاعمــال الوحشية الا عندما انتقلت الأبقـار والجواميس والأغنـام من اوروبا لكى تكون فـداء للانسان من الانسان .. فماتت هذه الحيوانات من أجل ان يعيش الانســان يربيها ويطعمها ويذبحها بعد ذلك !

لكل عصر خرافات خاصة!

كانت الملكة كاترين دمدتيشي شديدة القلق . وهذا طبيعي جدا ، فهذه ليلة زفافها . وكانت اذا نظرت الى احدى الوصيفات تسال عن شيء ، ترد عليها الوصيفة وهي تضحك او وهي تغمز بعينها ، وفي كثير من الاحيان كانت الملكة تسال قائلة : هل جاء الخاتم الـ ... وقبل ان تكمل سؤالها يجيء الرد : نعم جاء الخاتم ذو الاربعين فصـــا ..

وتسال الملكة : والصندوق الـ ..

فترد وصـيفة اخرى : جاء الصـندوق البيضاوى وبـه كل المجوهرات حتى الخنجر الذهبى المرصع بالماس .

وتقول الملكة : وهذا الذى يسمونه « عطر الحياة الابدية » هل هو أيضـــا .. ؟

ـــ نعم يا مولاتى جاء وبكميات كبيرة تكفى لاسعاد الف عروس فى الف ليلة .. !

ـــ و ـــ

— نعم جاء وهو الآن تحت المخدة ..

— و ..

— نعم يا مولاتى .. وأنا التى وضعته بنفسى فى كاس الشمبانيا التى سوف يشربها الملك قبل أن يدخل الى غرفتك .. اطمئنى فقد أعددنا لسعادتكما الليلة كل شىء ..

— وهل نسيت ذلك الذى أهدته لى الامبراطورة لأتناوله قبل النوم بلحظات .

— موجود يا مولاتى ..

ولم تكن الملكة كاترين دمديتشى تريد أن تعرف كل هذه الاحتياطات من أجل ليلة العمر مع أحد ملوك فرنسا . وانما كانت قلقة على شىء آخر هام جدا .. ولكنها تخشى أن تبوح باسمه أمام الوصيفات الايطاليات والفرنسيات .. وأخيرا تشجعت وقالت : هل جاء الكاردينال .. ؟

وصرخت الوصيفات فى نفس واحد : طبعا يا مولاتى ..

وظهرت السعادة على وجه الملكة وأحس الجميع أن هذا الذى جاء أهم من كل شىء سمعته حتى الآن . أما هذا الكاردينال فقد حمل رسالة خاصة من عمها كليمنت السابع بابا الفاتيكان .

وقد وعدها بهذه الهدية قبل زواجها . ولما حضر الكاردينال أدخلوه فورا للغرفة الصغيرة المجاورة لسرير الملكة . ورفع الكاردينال عباءته القرمزية ووضع علبة ذهبية كبيرة ، وفى داخل العلبة الذهبية مسحوق نادر .

ان هذا المسحوق هو معالجة طبيسة لجزء من قرن خلعوه من رأس « وحيد القرن » الذى يبلغ من العمر سنتين ويومين !

هذا المسحوق مهم جدا . فالملكة اذا احست بالسم قد وضعوه لها فى طعامها ، فانهــا بسرعة تضع المسحوق على شرابهـــا أو طعامها . وهذا المسحوق قادر على أن يمتص السم وتعيش الملكة .

* * *

وكان ذلك فى القرن السادس عشر فاوربا كلها تؤمن بأن قسرن وحيد القرن قادر على شفاء الناس من أكثر الأمراض خطورة . ولذلك فهو هدية من بابا روما ـــ وهى هدية أغلى من كل الهدايا وأهم .. !

وحيوانات أخرى سيطرت على الحياة الطبية فى أوروبا بعسد اكتشاف أمريكا . أكثر هذه الحيوانات خرافية .

ومن الملاحظ أن الانسان الأوروبى اتجه الى أمركا ، بينمـــا الحيوانات الأمريكية قد اتجهت الى أوربا . واذا كان كولمبوس قد اهدى أمريكا ثمـــانية من الخنازير ، فان أمريكا قـــد أعادت الى الخنازير الأوروبية طعامها ، بل ان أمريكا هى التى انقذت خنازير أوربا .. فعندما كانت هناك أزمة اللحوم أو الطعام عموما فى أوربا، انتقلت الذرة الى أوربا ، ولم تكن تعرفها قط . وانتقل سكر القصب ايضا . صحيح ان أوربا هى التى نقلت قصب السكر الى أمريكا ، ولكن أمريكا هى التى صنعت سكر القصب بكميات هائلة،مستخدمة العبيد من افريقيا فى هذه الصناعة الجديدة . وقد أدى ظهور السكر فى أوربا الى كساد عسل النحل والنحل نفسه . وهذه هى أول مرة

فى التاريخ نجد السكر الذى هو ناتج نباتى يطرد العسل الذى هو ناتج حيوانى .

ثم ان الذرة والبطاطس وغيرهما من الاطعمة قد ادت الى انقاذ حياة الملايين من الطيور والحيوانات التى اعتاد النـاس فى أوربا ان يأكلوها . ولم تكن البطاطس هذه معـروفة تماما فى أوربا .. وقد رأينا فى القرن السابع عشر الأمراء يتهادون بالبطاطس على انها شىء غريب عجيب . بل ان بعض الاطباء فى ذلك الوقت قـد افتى بتحريم اكل البطاطس لانها تؤدى الى الأمراض الخبيثة !

وظهر الديك الرومى فى أوربا ، قادما من أمريكا بكميات كثيرة . وربما قيل ان الديك الرومى ليس جـديدا على أوربا ، فالانجليز يسمونه الديك التركى . والانجليز عرفوه عن طريق الشرق الأوسط . ولكن النـوع الذى جاء من امريكا كان أضخم وأكثر تنوعا ، وكان لظهور الديك الرومى اثره الكبير فى الحياة الأوربية .. فى حفلات الأمراء والنبلاء والملوك . ومن يرجع الى ادب البـلاط فى أوربا يجد الديك الرومى صاحب الصفحات الأولى والعبارات الأولى على السنة الرجال والنساء . كان يقال مثلا : جميـل الديك الرومى واجمل منه ان ينظر اليه الانسان فى عينيك !

يقال هذا الكلام عادة لفتاة جميلة . ويكون رد الفعل التقليدى ان تحنى الجميلة رأسها ، وان يتقدم صاحب الكلام ويحنى رأسـه على يديها ويقبلها .. ويمضى الكلام عن الديك وبقية الأطعمـة . وينتهى مثل هذا الكلام عادة بأن تـكون هذه الجميلة قد وقعت فى غرام هذا الذئب الذواقة للطعام والجمال !

* * *

ومع هذه الحيوانات الواردة من امريكا ظهرت امراض كثيرة . فى مقدمتها أمراض الزهرى والسيلان التى نقلها كولمبوس ورجاله الى أوربا ـــ هذه حقيقة مؤكدة !

واطلق الانجليز عليهـــا : الأمراض الفرنسية . والفرنســـيون وصفوها بأنها : أمراض انجليزية !

وفى مذكرات كولمبوس نجده يقول مثلا : وفجأة شعرنا بظهور دمامل .. وفجأة شعرنا بنوع غريب من النزيف . ولا نذكر طعاما معينا ادى الى ظهور هذه الأمراض الغريبة !

ولم يكن كولمبوس يعرف هذه الأمراض السرية ، فهى لا تجىء بعد الأكل وانما بعد المعاشرة لنساء الهنود الحمر !

وحاول احـــد بحارة كولمبوس ان « يتفلسف » فوصف هـــذه الأمراض ، ولكنه عندما أراد أن يجد لها سببا معقولا قال : بسبب النبيذ الفاسد على الريق !

ولكن اهم ما ظهر فى الفـــكر الاوربى الأدبى والحيوانى أن هذه الرحلات الى العالم الجديد قد ادت الى ظهور حيوانات غريبة الأحجام عجيبـــة الألوان . هذه الحيوانات يؤكد كل النـــاس انهم راوها بأنفسهم . وانهم لم يسمعوا عنها من أحد . وكل كتب القرون الـ ١٥ و الـ ١٦ و الـ ١٧ قد فاضـــت بهذه الكائنـــات الغريبة . فعشرات المغامرين الكبار يقولون انهم راوا الذئب الذى له رأس انســـان ، او الانسان الذى له رأس ذئب .. وانهم حاولوا صـــيده . وانهم قتلوه ، ولكن جاءت ذئاب أخرى وحملت جثته ودفنتها فى ضوء القمر !

واكثر الناس رواية لهذه القصص هم البحارة . وهم يتفننون فى وصف هذه الحيوانات المائية او البرمائية (واذكر اننا عندما ذهبنا الى البصرة بالعراق مهد « الف ليلة وليلة » اعلن كثيرون من الأدباء انهم شاهدوا عروس البحر .. شاهدوها واقفة وجالسة ، وانهم يقسمون على ذلك ؟ !) وكل بحارة القرن السادس عشر قد اقسموا على ذلك ايضا . وتؤكد بعض الكتب أن هناك نوعا من الأفاعى طولها ٥٠٠ قدم . وان هذه الأفاعى تلتف حول السفن لتسحقها وتبتلع ركابها واحدا بعد واحد . فاذا امتلأت هذه الأفاعى بالطعام يستطيع الطفل الصغير ان يقتلها بقطعة حجر ! ولكن اين يكون هذا الطفل وكيف يمكن أن يقتلها ؟

ان الكاتب اولاس ماجنوس قد أصدر كتابا فى سنة ١٥٥٥ يصف فيه الكائنات البحرية المخيفة . وقد خصص صفحات طويلة لهــذه الأفعى الكبيرة

وفى القرن ١٦ ظهرت كتب تتحدث عن عريس البحر ــ سمك على شكل رجل . وهذا السمك لا يأكل الا الزنوج والهنود الحمر ..

اما عروس البحر فلا تأكل الا البيض .. ويقال لا تحب من لحوم الاوربيين سوى لحم الأسبان ! واذا كان عريس البحر يأكل عيون الفريسة فان عروس البحر تأكل قلوبهم .. تماما كما انسمك القرش يأكل الذراعين والساقين .. وهناك نوع خاص من السمك يقفز من البحر وبقدرة غريبة يستقر على جسم الانسان . ويلتصق به ولايأكل الا نهود النساء ــ الفتيات الصغيرات بصفة خاصة !

وربما كان هيرودوت المؤرخ الاغريقى هو أول من وصف لنا طائر

« العنقاء » وقال أن هذا الطائر ينطلق كل خمسة قرون من شبه الجزيرة العربية الى مصر الجديدة حيث ماتت اجداده . ويظل يبكى على أجداده فى مصر الجديدة خمسة قرون ، ثم يعود بعدها الى شبه الجزيرة العربية ، فى مكان ما منها :

وتقول الكتب الاوربية فى القرن ١٦ أو مؤلفيها راو العنقاء هذه . وان العنقاء قد لفت حول عنقها ثعبانا ضخما . هذا الثعبان اذا نظر الى انسان تحول الانسان الى حجر . . أو ما يشبه الحجر . وبسرعة ينقض الثعبان على الانسان يمتص دمه . أما العنقاء فتكون قد سلبته عينيه ! وقد صور الفنان الايطالى تشلليني هذه المعانى وروى هو نفسه قصصا من هذا النوع ، ويقسم أنه رأى ذلك بعينيه — كلهم يقسمون على ذلك ويطلبون منا أن نصدقهم !

حتى الفنان العظيم دافنشى يؤكد فى مذكراته انه رأى بعض هذه الحيوانات ، التى لم نعثر لها على اثر بعد ذلك . . ودافنشى ليس عبقريا مخرفا ، وانما هى حالة نشاط مجنون لخيال فنان عبقرى تجعله يرى ما يرى . . انها « حالة سيريالية » أى حالة يطير فيها الفنان الى ما فوق الواقع — كما يقول عنه العالم النفسى الكبير فرويد . .

وشىء من هذا قد أصاب الفنانين والمفكرين بعد اكتشاف أمريكا . .

وقد نظهر عند الاطباء جنون جديد لعلاج كل الأمراض . أو نوع من الطموح الطبى . فتوهموا أن هناك مواد نادرة لعلاج الأمراض .من ذلك مادة فى مخ الغزال . اذا عثرنا عليها ، كان الشفاء فى أيدينا . . وأحيانا يستخرجونها من الحصوات فى كلية الغزال . هذه المادة أطلق

عليها الفيلسوف العربى ابن سيناء مادة : البادزهر . وهى شفاء من كل سم ومن كل مرض .

ومن العجيب أن الفيلسوف العربى ابن سينا ، قد شخص الكثير من الأمراض . وجعل مادة البادزهر شفاء لكل داء . . وهذه المادة نادرة جدا ، ولذلك فكانت تساوى وزنها ذهبا . . أو أضعاف وزنها ذهبا . ولا أحد يعرف ان كنت تشفى حقيقة من كل داء . فالذين كانوا يتناولونها لم يقولوا لنا شيئا !

وظل هذا « الوهم » سائدا مئات السنين . . ولكن استطاع أحد الأطباء فى بلاط الملكة كاترين دمديتشى أن يثبت لها أن مسحوق قرن « وحيد القرن » ليس ترياقا يشفى من كل مرض . فقد وضع السم لديك ، ثم أعطى الديك هذا المسحوق السحرى فمات الديك رغم ذلك . . ولكن أحدا فى بلاط الملكة لم يصدق هذا الطبيب «المخرف» .

ويقال أن البابا كليمنت السابع عندما قارب الوفاة تلفت حوله يسأل الكرادلة ان كان أحد قد وضع له السم — فانحنوا وبكوا وقالوا : أعوذ بالله ومن يجرؤ على هذه الخطيئة !

ولكن البابا كان يعلم طبيعة الانسان ، ان واحدا من الحواريين حول المسيح قد سلمه لاعدائه . . فليس غريبا أن يقتله واحد من الذين حوله . . وكان أحد الكرادلة أسرع الجميع الى فهم ما يدور فى رأس البابا فأسرع وأتى بمسحوق القرن . . ووضعه فى كوب من الماء . . ثم وضع كمية أخرى . . وظهرت السعادة على وجه البابا . . وشرب الكوب ومات . . وقد اهتدى الأطباء بعد ذلك عندما أرادوا

لن يعرفوا سبب وفاة البابا ، الى أن السبب الحقيقى هو مســحوق القرن السحرى !

ومات البابا وسره معه .. ولكن الخرافات تعيش بعد ذلك اطول عمرا من البابا ، لانها تنبع من جهل الانسان بما لا يعرف ورغبته فى ان يعرف بسرعة . وكل عصر من العصـــور له حقائقه الجديدة ، وأوهامه الجديدة .. فلا عصر بلا خرافات !



ذهب كل أرض
تدوسها الأغنام!

يقال ان احدى اميرات الصين قررت ان تسعد شعبها . فظلت تفكر فى احسن الطرق . ولم تهد الى شىء . يقال نامت وقامت وهى سعيدة جدا . ماذا رات فى نومها ؟ رات دودة صغيرة تمشى بين أوراق الشـــجر . ثم تاوى الى بعض الأوراق عندما يخرج من فمها خيط ناعم .. وتظل الدودة تفعل ذلك حتى يتكون من الحرير كفن تموت فيه هى التى دفنت نفسها . ثم بعد ان تموت تصحو مرة اخرى .. لتموت بعد ذلك .. وذهبت الأميرة الى احد رجال الدين تروى قصتها . طمانها رجل الدين قائلا : ستكون لك حماة قاســية القلب . تحاول ان تدفنك حية . ولكنها هى التى ستموت فى النهاية !

ولم تقتنع الأميرة بتفسير رجل الدين . فذهبت الى كبير الكهنة . وقال لها : ان الذى رأيته فى نومك حقيقـــة . اذهبى الى الغابات وابحثى عن هذه الدودة ففيها سر الصين كلها !

وعثرت الاميرة على دودة القز ..

واصبح دود القز سرا ملكيا منذ أكثر من اربعة آلاف سسنة .. وكانت للصين اعياد للحرير . يتهادى فيها الناس دود القز وبعض شرانق هذه الدودة العجيبة ..

وانتقل السر من قصور الملوك الى بيوت الشعب . وظلت الصين تضن بهذه الدودة على كل الشعوب الاخرى وكان يكفى ان يقال أن مواطنا اخذ معه بعض الدود خارج الحدود ليصـــدر قرار باعدامه فـــورا .

وتسللت الدودة الى كوريا .. ومنها الى اليابان . ومن اليابان أصبحت صناعة الحرير ونسيج خيوطه من أهم مخصصات الاسرة المالكة .. ويقال ان الامبراطورة اذا غضــبت لسبب ما ، وكثيرا ما كانت تفعل ذلك مما ادى الى قصف عمر زوجها ، فانها تاخذ ديدان القز معها وتظل تتامل قدرة الله ..

ويقال ان احدى الامبراطورات كانت تنظم الشعر . ومما قالته : « حياتى كهذه الدودة .. هادئة ناعمة راضية . وفى النهاية ماذا ؟ أنا الذى اعمل وانا الذى اتغطى بأكفان من الحرير وأموت فى صــمت فالصمت حياتى والصمت مماتى .. ولااحد يدرى بذلك » مفهوم‌طبعا أنها تريد أن تقول انها تتعذب وتعمل وتموت دون أن يشـــعر احد بوجودها ـــ زوجها واولادها طبعا . والشكوى من الرجل والأولاد قديمة وتتجدد فى كل بيت ومن كل زوجة وأم !

ولم تعرف أوربا الحرير هذا الا بعد ذلك بالوف السنين . فملابس الاغريق والرومان بسيطة جدا . وعندما عرفوا الحرير كان ذلك شيئا نادرا . ولم يقدر على شرائه الا الملوك والاباطرة . وفى نفس الوقت

كانوا يرون أن هذه الملابس الناعمة لا يصح أن يرتديها الرجال . لانها ناعمة لينة . ولا يصح أن ترتديها النساء لانها تكشف الجسم.

وفى القرون السابقة على المسيحية لم يكن الرومان والاغريق قد عرفوا الملابس الداخلية وانما ظهرت هذه الملابس الداخلية عندما اقبل الرجال على النساء . وفى بلاد الاغريق أيام الفلاسفة سقراط وافلاطون وأرسطو ، كان المثل الأعلى للجمال هو جسم الرجل والرجل نفسه . وفى هذا العصر انشغلت المرأة عن أرضاء الرجل . ولكن بعد أن اتجه اليها الرجل ، بدأت المرأة تختفى وراء ملابس داخلية وخارجية .. وكلما التفت الرجل الى المرأة اكثر عرفت الملابس الضيقة التى تكشفها وفى نفس الوقت تغطيها أيضا . فمع الميول الجنسية الشديدة عرفت المرأة الأقمشة الحريرية .. ولكن نساء الطبقة الغنية فقط . فقد كان الحرير غالى الثمن ..

ان الامبراطور يوليوس قيصر قد اشترى قماشا حريريا ليزين به احد المسارح . ولكنه لم يجرؤ على ارتداء ملابس حريرية . لا يسمح بها لنفسه ولا لغيره . بل اننا نقرأ فى احدى المحاكمات من يقول : ولكن كيف أصدق رجلا يرتدى ملابس حريرية .. انه ليس رجلا !

أما الامبراطور الشاذ جنسيا واسمه هليوجبالوس السورى ، فقد ارتدى ثوبا من الحرير الأحمر فى احدى الحفلات . والتفت اليه الناس بدهشة . ويبدو أن الامبراطور لم يلفت النظر بدرجة كافية فانسحب من الحفلة وارتدى الثوب على اللحم وراح يتمرغ على الأرض أمام النبلاء .

ولم يكن هذا الحرير الذى عرفته اوروبا فى أوائل العصور المسيحية

قد جاء من الصين . انه نوع رديء من الحرير . ولكنه غالى الثمن . .
اما الحرير الصينى فلم يظهر الا بعد ذلك بالف سنة . ووصل الى اوروبا من طرق مختلفة . .

فالامبراطور جستنيان فى القرن السادس الميلادى قد اتفق مع اثنين من الرهبان على أن يخفيا الحرير فى ملابسهما . وجاء الراهبان وقد حمل كل منهما عصا مفرغة . أخفى فيها بيضات الحرير . ودخل الحرير الى بلاد الامبراطور وتولت زوجته الغانية الفاتنة الفاجرة تيودورا صناعة الحرير . فقد كان لها فى قصرها عشرات الحجرات اعدتها لدودة القز . وكانت الامبراطورة تغزل الحرير . أو تأتى بمن يستطيع ذلك . ويقال ان الامبراطورة تيودورا قد تعاونت مع أحد أمراء الحبشة على زراعة أشجار التوت فى تركيا القديمة . ونجحت الأشجار وانتشرت صناعة الحرير فى ذلك الوقت . واحتكرت الامبراطورة غزل الحرير وحرمته على كل الناس . وكانت الامبراطورة تستعين بالفتيات فقط فى تربية وغزل الحرير .

وكان من عادة الامبراطورة تيودورا كلما فرغت من عمل ثوب حريرى أقامت حفلة خاصة للملك . واتت بالراقصات والمغنيات ورقصت هى امام الامبراطور فى ثوب من الحرير ثم أتت بثوبها والقت به فى برميل النبيذ . . وراحت تمشى عارية تعصر النبيذ فى أفواه الضيوف !

وكانت تسمى تلك الليلة « الحرير من النبيذ » . . أو « النبيذ من الحرير » . . وكانت لهذه الامبراطورة أيام اخرى كثيرة . ولكن أروعها هى ليلة : عصير الحرير !

وكانت هناك امبراطورة أخرى اسمها نيودويسيا . هى أول من ابتكر مسابقات الجمال فى العالم .. أو اختيار ملكة الجمال . فقد كان لها ابن جميل وكانت تريد أن تختار له أجمل الفتيات . فكانت تدعو كل اسبوع اجمل عشر فتيات ليختار واحدة منهن . الفتيات جميلات طبعا وقد ارتدت كل منهن فستانا من الحرير . ويرحن ويجئن على ايقاع موسيقى . ومع الليل والموسيقى والشراب ترتفع اطراف الفساتين لتكشف كل منهم على اماكن الجمال . ويختار الفتى بنت الحلال ، ومن الغريب أنه لم يكن يفعل ذلك . ولم تكن الفتيات يضقن بما لايفعل الأمير . فقد اسعدهن جدا ان يقع عليهن الاختيار وان يتعرين أمام امراء وشبان آخرين ..

كل ذلك بعد ان تكون كل واحدة قد خلعت اكثر ملابسها الحريرية التى تدل على انها من اسرة قادرة على شراء فساتين من الحرير الصينى !

واصبح العالم كله يتحدث عن طريق الحرير ، أو طريق تجارة الحرير الذى يبدأ من بكين مارا بالهند وايران وتركيا .. وسوريا . وقد انتقل الحرير من شمال افريقيا الى أوروبا فى القرن الثامن عن طريق العرب . فالعرب ادخلوا صناعة الحرير الى ايطاليا وجزيرة صقلية والى اسبانيا . صحيح ان دودة القز لم تكن قادرة على الحياة فى الاجواء الباردة . فماتت بالملايين . وكذلك أشجار التوت لم تتحمل البرودة والجليد فذبلت . ولكن استطاع الانسان أن يتغلب على هذه الصعوبات .

وقد شهدت اوروبا الملكة اليزابث وهى ترتدى جوربا من الحرير،

صنعته احدى وصيفاتها . اسم الوصيفة أصبح ماركة للقمصان الانجليزية : مونتاجي . وكانت ملكة انجلترا تستورد خيوط الحرير من أسبانيا . وظلت انجلترا تستورد الحرير من أسبانيا في أشد الظروف قسوة ، وفي نفس الوقت كانت انجلترا تحرم تصدير الصوف الى الخارج .. وبينما كانت أسبانيا تحتكر دودة القز كانت انجلترا تحتكر أغنام الصوف .

وفي سنة ١٥٩٨ اعلنت الملكة اليزابث في احدى الحفلات الرسمية ان لديها ستة ازواج من الجوارب الحريرية . ويبدو ان هذا خبر شخصي جدا . ولكن الملكة ارادت أن تقول ان هذه هي البداية .. وسوف تظهر جوارب أخرى كثيرة ، ولم تظهر الا بعد ذلك بوقت طويل !

في ذلك الوقت كان أحد المهندسين الانجليز واسمه « لي » يعاني من أزمة حب شديدة . انه يحب فتاة جميلة . ولكن اذا ذهب اليها تنشغل منه تماما . فيظل هو وحده يتكلم . وهي لا ترد . واذا ردت فانها لا ترفع رأسها لكي يرى عينيها . ان عينيها تركزتا على شيء في يديها . انها تغزل خيوط الصوف لعلها تصنع جوربا أو شالا .. ولكنها لا ترد . هو يحبها . وهي أيضا . ولكن الحب كلام ، ولا كلام بينهما . أو هو الذي يتكلم وهي التي تسمع دون أن تقول شيئا . وانكسر قلب هذا المهندس . واختفى عن العيون سنة . ثم عاد يطلب مقابلة الملكة اليزابث واذنت له . وقدم لها جهازا من اختراعه يعفي المرأة من غزل الصوف بيديها . لانه لا يريد حبيبته أن تفعل ذلك . وان تتحدث معه بعض الوقت . وقالت الملكة : كنت اظنك قد اخترعت شيئا لغزل الحرير .

وقال المهندس : افعل ذلك حالا !

واختفى المهندس سنة ليعود الى الملكة بجهاز جديد لغزل الحرير حتى لا تنشغل عنه حبيبته . ولكن الملكة لم تفرح بذلك . لان هـــذا الجهاز سوف يجعل الحرير فى متناول كل الناس . وهى تريد الحرير خاصا بها وبالاسرة المالكة . ثم أن مغازل الحرير أو الصوف سوف تؤدى الى تعطيل ألوف الأيدى العاملة . فذهب الرجل الى فرنســا يعرض اختراعه الجديد . ولكن فرنسا كانت مشغولة فى الأحداث التى أعقبت اغتيال الملك هنرى الرابع .. وزاد حزن الرجل وعاد الى حبيبته فوجدها تتكلم وتنتظره .. انهــا الآن لم تعد تغــزل لا الصوف ولا الحرير ـــ لقد فقدت بصرها !

وفى عصر لويس الثالث عشر عرفت فرنسا التقشف والبهدلة فى اللبس . وكان هذا الملك متشددا ، فخربت مغازل كثيرة فى معظم المدن الفرنسية .. وتشرد الدود على الشـــجر . وماتت الشرانق وطرد الحرير من بلاد الاناقة !

ولكن اعيدت كل هذه الصـــناعات بعد ذلك . واعلن الكاردينال ريشليو : انه من الحماقة أن نحرم على أنفسنا ما اراده الله لنا من جمال ـــ اعيدوا الدود الى الشجر ، والحرير الى الأزياء !

❋ ❋ ❋

واذا كانت « دودة القز » هذه قد زحفت من آسيا ، فان «الاغنام» ايضا قد جاءت من آسيا ، ولكن فى عصور قديمة جدا . وربما كانت

الأغنام اكثر الحيوانات هجرة من مكان الى مكان .. ففى كل عصور التاريخ كان هناك رعاة ، لان الاغنام قد سبقت الانسان .. ولكن الاغنام التى ظهرت فى أوروبا كانت ضئيلة الحجم وكان شعرها خشنا جافا . أما الأغنام الجيدة فهى التى جاءت من آسيا ، ومن شبه الجزيرة العربية بصفة خاصة ..

وظلت هذه الاغنام يختلط بعضها ببعض حتى كان هذا النوع الاسبانى الشهير باسم مرينو . وهذه الأغنام وصلت الى اسبانيا تماما كما وصلت دودة القز عن طريق شمال افريقيا .. وبوصول الاغنام الى اسبانيا بدأت حرب الخيوط بينها وبين بريطانيا .. خيوط الحرير وخيوط الصوف .. احتكرت أسبانيا الحرير ، واحتكرت بريطانيا الصوف . وبدأت معركة السيادة على الاسواق .. ومعركة السيادة على البحار . واهتدت بريطانيا الى انه من الأفضل أن تنقل الاغنام من بلادها الى المستعمرات . فانتقلت الاغنام الى المراعى الاكثر غنى فى مستعمراتها . وفى عصر حرب الخيوط ، أكلت الأغنام الارض المزروعة .. بل ان الناس فى بريطانيا كانوا يقتلعون الأشجار ويتركون الحشائش غذاء للاغنام التى تعيش عليها بريطانيا . بل ان رجال الدين الانجليز كانوا يخطبون فى الكنائس يطلبون من الله أن يرفع عنهم لعنة الأغنام التى أكلت الأشجار وحولت المدن الى مرعى تأكل عليه .. وكانوا يقولون : ان الله خلق الأرض للانسان فتركها الانسان للاغنام . فاستحق الانسان لعنة الله !

وكان الناس يقولون : ذهب كل أرض تدوسها الأغنام !

ولما اهتدت بريطانيا الى أماكن اغنى وأدفأ خارج جزيرتها ،انتقلت اليها الأغنام . وعادت الزراعة الى الأرض . وعادت الارض الى الانسان !

واخترع الانسان الآلة لتعاون دودة القز وتعاون الاغنام ..

ثم عاد الانسان يخترع اجهزة اخرى لتاخذ مكان الديدان والاغنام عندما اخترع الخيوط الصناعية ..

ولكن لا تزال هذه المنتجات الطبيعيــة ـــ خيوط الحرير وخيوط الصوف وخيوط القطن ـــ اروع واجمل ..

ان دودة صغيرة ضعيفة قد طردت امامها ملايين الاغنام . فما اكثر ما تفعله دودة فى حياة الانسان .



اكاديمية لتعليم الانسان
كيف يكون حصانا بنيلا !

لم يفهم القـــاضى طبيعـــة الخــلاف بين رجل وزوجته . وعاد يسأل الرجل :

ولكن لماذا اصبح هذا الخلاف حادا الى هـــذه الدرجة . اليست هي زوجتك !

يقول الرجل : بلى واحبها !

تقول الزوجة : كذاب يا حضرة القاضى ! كان يحبنى فيما مضى . اما الآن فلا .. ضحك على حتى جعلنى اترك اهلى ودينى . وبعد ان تمكن منى ، وصلنا الى ما نحن عليه .

يقول الرجل : ولكن ما الذى نحن عليه .. انه خلاف اخترعته . وهى التى طلبت ان اجىء اليك وان تكون مشـــاكلنا فضائح . فاذا اصبحت لفضائح ضحفت انا أمام الرأى العام . ولكن لن اغير موقفى.

يقول القاضى : كنت تحبها !

ـــ نعم . ولا ازال .
هى تقول : كان يحبنى !

القاضى : فى وقت من الأوقات كان هناك حب .. وفجاة تغير كل شىء .

الاثنان يقولان فى نفس واحد : نعم ! .

القاضى : منذ متى ؟

الاثنان : منذ أسبوع .

القاضى : وانتما متزوجان منذ متى ؟

الاثنان : منذ أسبوع !

والقضية ليست عاطفية . وانما جلس هذان الزوجان من أبناء البرتغال يحلمان بعدد الأطفال الذى سوف يكون . قالت الزوجة : اريدهم جميعا من البنات . وقال الرجل : بل من الأولاد ..

واتفق الاثنان على ان يكون ثلاثة من الأولاد واثنتان من البنات . وجلس الزوجان يحلمان ويفكران فى أحسن الأسماء . وقالت الزوجة: انت الذى تحسن الكلام والتعبير . وهذا هو الذى جعلنى أموت فيك هياما .. أنت تختار الأسماء . أنا آتى لك بالأولاد والبنات وانت الذى تسمى هذه الذرية الصالحة ان شاء الله ..

وفجاة صرخ الزوج : وجدت الأسماء ..

وسمعت الزوجة الأسماء وصرخت . ولطمت خديها . وشقت ثوبها .

وقالت : الطلاق .. لا حياة معك . انت رجل مجنون !

اما لماذا هو مجنون فقد اختار هذه الأسماء لاولاده : النمر .. الفيل .. الخرتيت ــ للذكور . أما الاناث : الغزالة .. النسناسة!

ولم يكن الرجل يداعب زوجته . ولا يريد ان يطلقها . وانما هو « ابن عصره » . وفي ذلك العصر انشـــغل أبناء أوربا بالحيوانات القادمة من الشرق . ورأوا فيها أجمل وأروع ما خلق الله .

صحيح أن كولمبوس اكتشف أمريكا ولكنه فتح أبواب الشرق :الى افريقيا وآسيا .. والى الهند .. وأصبح كل الذين يرتادون الطرق الى الشرق السحرى ، أهم من الذين يزحفون على أمريكا ، بل ان الرحلة فاسكو داجاما اهم من كولمبوس .. وأفريقيا أهم من أمريكا .. وهزيمة الاسطول التركى فى المياه اليونانية ، أروع عند الاسبان من كل معاركهم وفتوحاتهم .. وأصبحت هدايا قبائل افريقيا أعظم واغلى عند أهل البرتغال من كل ما يجيء من مستعمراتهم الكبرى : البرازيل ..

وفى القرن السابع عشر أعلن أديب أسبانيا العظيم سرفانتس :ان مدينة لشبونة هى مركز الدنيا . اليها يجيء الذهب . ومنها يخرج الرجال الى مجاهل الشرق الساحر الباهر ..

وأصبح من مظاهر الثراء عند الناس فى أوربا أن يستعرض كل منهم ما لديه من حيوانات غريبة .. فكان الذى يمشى فى شـــوارع مدريد يرى الحيوانات من نوافذ البيوت .. ويرى الطيور الملونة .. وبسرعة تحولت القصور الى حظائر للحيوانات الافريقية ..

ومن الغريب أن هذه الحيوانات لم تظهر فى لوحات الفنانين . ولكن فى حالات نادرة ظهرت بعض الطيور بألوانها الزاهية .

وكانت اشهر الحيوانات التى لفتت الاوربيين وشغلت الصيادين: الاسد والفيل والنمر والضبع والنعامة والخرتيت .

وكان الامبراطور الألمانى فريدريش الثانى (١١٩٤ — ١٢٥٠) من اكثر الناس حبا للحيوانات . وكان يقيم لها حديقة ملحقة بقصره . وحدائق الحيوانات عادة استعارتها أوروبا من ملوك الشرق .

وبعد ذلك تعود الناس فى أوروبا أيضا أن يجدوا حدائق للحيوانات ملحقة بقصور الملوك والنبلاء . وربما كانت اشهر حدائق الحيوان فى أوروبا يملكها البابا بيوس العاشر (١٨٣٥ — ١٩١٤) وهو واحد من أسرة مديتشى الشهيرة العريقة . وكان هذا البابا يحب الحيوانات ويرعاها ويدعو الى الرحمة بها والعطف عليها . وكان يعطف على الفنانين . « فالفنان حيوان يحب الحيوان . لانه يحب الحياة وجمال الحياة وحكمة الله » .

❋ ❋ ❋

وحدث قبل ذلك عندما زار البابا بيوس الثانى (١٥٠٤ — ١٥٦٤) أحد النبلاء من اسرة مديتشى أن اقاموا له موكبا فخما . وجعل الحيوانات تتقدم هذا الموكب . ووقف الناس يتفرجون على هذه المخلوقات العجيبة . وكان عدد هذه الحيوانات كبيرا . ولكن لم تكد الاسود ترى بعضها البعض حتى أفلتت من قيودها . وتحولت الى اشلاء ودماء .. الا زرافة . هذه الزرافة كانت هدية من أحد سلاطين مماليك مصر الى أسرة مديتشى . ويقال ان أحد الشعراء قد ارتجل قصيدة عندما جاءت هذه الزرافة الى مدينة فلورنه .

يقـــول فى قصـــيدته : طـــال كل شىء فيـــك . منقســك وسيقانك الأربع وأذنك وأنفـــك .. أمـــا عينـــاك فهما مسروقتـــان من وجه حبيبتى .. أما لونك فمســـتعار من براكين صـــقلية .. أما مقامك العالى فلا يعيبه الا أن رأسك صغير وعقلك أيضا .. ولكن ليس من الضرورى أن يكون الجميل عاقلا .. يكفى أن يكون الجمال والجميل أكبر لصين لكل العقول » .

وهناك يوم فى تاريخ الانسان أو فى تاريخ المغامرات أو فى تاريخ الحيوان لا ينساه احد عندما أرسل ملك البرتغال مانويل هدية الى بابا الفاتيكان بيوس العاشر . الهدية : فيل واثنان من النمور وضبع قد ركب حصانا عربيا . أما الخرتيت الذى أرسله الملك مانويل فقد غرقت به السفينة فى البحر الابيض .. ويقال أن الخرتيت ظل يضرب السفينة حتى خرقها واندفعت المياه . وألقى الخرتيت بنفســـه فى البحـــر ..

ومشى الموكب فى شوارع روما .. والناس يتفرجون على أعاجيب الهدية الامريقية . ودقت أجراس الكنائس .. ووقف البابا يشير الى أن تضرب المدافع .. وانطلقت المدافع ووقف الفيل على رجليه الخلفيتين ورفع زلومته الى أعلى يحيى البابا والكرادلة أمراء الكنيسة .. وبسرعة تقدم احد الحرس الملكى البـــرتغالى بثلاثة جرادل من الماء المعطر .. ووضعها أمام الفيل .. ومد الفيل خرطومه وملأه بالماء وراح يرش البابا والكرادلة والناس يصرخون من الفرحة .. وكان يوما مشهودا فى تاريخ الحيوان ، والعلاقة بين عرش البرتغال وكنيسة روما !

وأرهق رجال الدين أنفسهم فى شرح ما حدث . قالوا : ان الفكرة

هى أن يدرك الانسان بوضوح انه مهما كانت الحيوانات قوية ، فان الانسان هو الأقوى بذكائه . ان هذه الحيوانات قادرة على سحق أقوى الرجال ، ولكن الحيلة تغلب القوة . والذكاء يقهر الوحوش . . فهذه الحيوانات كلها قد احتال عليها الانسان وأتى بها من غابات لتكون ذليلة ذلولا أمام أصغر الأطفال . ثم انها مخلوقات الله . ومن الواجب العطف عليها ومحبتها !

* * *

وأول مظهر من مظاهر الحب والعطف والاعجاب كان بالحصان . ان تاريخ الحصان والانسان طويل . فالحصان فى العصور الوسطى كان « أداة » عسكرية يركبه الجندى المغطى بالحديد ، ويتغطى الحصان بالحديد ، ويدخل الاثنان المعارك حتى الموت ـــ الحصان هو الذى يموت غالبا . وكان من الصعب على الانسان أن يرى ملامح الحصان فهو مثل دبابة ذات أربع أرجل . ولكن أحدا لم يلتفت الى جمال ورشاقة هذا الحيوان النبيل . فهو وسيلة لشىء ، ولم يكن غاية . فلا أحد قد فكر فيه ، أو التفت اليه . . أو نظر الى تركيبه الجسمى الجميل أو الى خطوته . . وانما كان الحصان مصفحة أو قذيفة يركبها المقاتل .

ولكن بعض النبلاء الايطاليين فى القرن السادس عشر تنبه فجأة الى ان هذا الحيوان الجميل . يقول النبيل الايطالى فدريكو جريسونة فى مذكراته : « كل شىء حدث فجأة . وكأننى لم أر الحصان فى حياتى قط . . لقد نظرت اليه . . وتأملته . . وأحسست كأننى نبى مكلف بانقاذ هذا الحيوان من الانسان . . فهذا الحيوان شكله جميل ،

وخطوته قوية ناعمة . وحركته رشيقة .. وهامته مرفوعة .. انه واحد من النبلاء هجر حياة الانسان واحتبس فى هذه القلعة الفخمة من اللحم والشحم . ان هذا الحيوان أسير، وأنا الذى سوف أحرره»

وبدأ النبيل جريسونة يعلم الحصان كيف يخطو . وكيف يقفز من فوق الحواجز .. وافتتح مدرسة لتعليم الخيول . أو على الأصح ليعلم الناس كيف يعاملون الخيول، بما تستحقه من التقدير والاحترام والحب ..

وانتشرت أخبار هذه المدرسة . وجاء النبلاء . وجاءت الخيول وتعانق الانسان والحيوان فى اطارات من الحركة الجميلة . ويمكن أن تسمى هذه الحركة الفروسية : أى أن يكون الانسان فى سمو الحصان وفى جماله .. وأن يكون شهما نبيلا . محبا للحياة والحيوان والانسان ..

ومن بعده جاء رجل ايطالى آخر اسمه بنياتللى . هذا الرجل هو الذى وجه الدعوة الى بلاط الملوك والامراء وهو الذى وجد الشجاعة ليقول : « مولاى » صاحب الجلالة يجب الا يكون القصر الملكى زريبة للخيول . وانما يجب أن يكون مقرا شتويا وصيفيا لعدد من الاصدقاء الأوفياء لهم أربع أرجل وذيل وعنق وبشرة حريرية لامعة .. يجب أن يكون النبلاء والامراء أصدقاء للخيول ، أى أصدقاء لطراز من الكائنات تعلمت منها معنى الشرف والشهامة والشجاعة والجمال والاناقة .. مولاى صاحب الجلالة .. ان كل قصر يضم خيولا تأكل وتشرب من أجل أن تموت فى القتال ، ليست الا مجزرة الا زريبة ملكية .. مولاى أنت حر فى اختيار أصدقائك وأصفيائك .. ولكن

يجب ، يا مولاى ، الا تنسى هذه العبارة التى تعلمتها من الخيول :قل لى كيف تعامل حصانك اقل لك من انت » .

وجاءت الخيول بالمئات والنبــلاء بالالوف الى « اكاديمية تعليم الانسان كيف يمشى كالحصان » فى مدينـــة نابلى الايطالية . وكان بنياطلى يعلم الخيــول كيف تمشى على الايقاع الموســيقى . وكيف ترقص وحدها .. أو قد امتطاها احد النبلاء .. ان عصراً من احترام الانسان للانسان أو للحيوان قد بدأ .. وكانت البداية هذه المعاملة النبيلة لحيوانات اكثر نبلا هى : الخيول !

* * *

ولاسباب متعلقة بمزاج الشعب الاسبانى ، لقيت الثيران نوعا آخر من المعاملة . فمصارعة الثيران قديمة . ويقال قديمة جدا لدرجة ان علماء الآثار يجدون نقوشا على الكهوف القديمة لثيران قداصابتها السهام . وهى تنزف وتجرى .. والانسان لم يظهر فى هذه النقوش. اما لانه من المفهوم انه هو الذى اصابها ، أو لان رسام النقوش أراد ان يقول ان الثيران كانت اسرع منه فى الهرب لدرجة انه لم يستطع ان يلحق بها فيظهر فى هذه النقوش !

ويقال أن هذه الثيران متعددة الاصـــول . بعضها ثيران اوربية وحشية .. وبعض هذه الثيران جاء من أفريقيا ..ومن مصر . وبعض الثيران تشبه الأبقار الفرعونية القديمة .

وقصص ،الثيران ونوادرها فى تاريخ أسبانيا والبرتغال كثيرة جدا،

ولاتزال .. يقال ان الملك الفونسو السابع ، أحد ملوك البرتغال اقام مصارعة للثيران بمناسبة تتويجه . ولم يكتف بالدماء التى سالت فى هذه الحفلة ، فقرر ان يتولى هو اطلاق السهام على عشرين ثورا حتى قتلها والجماهير سعيدة بمهارة مليكها !

وعندئذ ولد للملك الاسبانى كارلوس الخامس ابنه فيليب الثانى سنة ١٥٢٧ قرر الملك بهذه المناسبة السعيدة أن تقام مصارعة للثيران . وان يكون هو فارسها الأوحد . وظل يقتل من الثيران حتى همسوا فى اذنه بانه لم تبق فى المملكة ثيران . قال : اذن تؤجل الحفلة يا سادة الى أن تجىء ثيران اخرى من بلاد أخرى !

ويقال أن السياسى الايطالى الكبير الاسبانى الاصل شيزاره بورجيا (١٤٧٦ — ١٥٠٧) قرر أن يتسلى فى احدى الليالى . وكان له عشرون ثورا فى احدى القلاع .. فظل يطلق عليها السهام حتى قتلها فى ليلة بدات بغروب الشمس حتى مطلعها . فنقلوه الى فراشه مرهقا وهو يقول : لقد كان عملى شاقا هذه الليلة !

وكان من عادة النبلاء فى اسبانيا أن يصارعوا الثيران وهم على ظهر الخيل . حتى اذا هاجمتهم الثيران أفلحوا فى الهرب منها . وفى عصر الملكة ايزابيلا غطيت قرون الثيران . ولكن الجماهير لم تسعد بذلك .. فاهتدى الأسبان الى طريقة جديدة تجعل قرون الثيران حادة محببة لكى تكون مفزعة لمصارعى الثيران وللمتفرجين ..

وفى البرتغال كانوا يضعون طبقة من الجلد على قرون الثيران ..

وعلى الرغم من أن مصارعة الثيران نوع من الرياضة العنيفة ،

فان شكلها اقرب الى الصيد منه الى الرياضة . فالمصارع لايداعب الثور بعنف ، وانما هو يصيده ، ويقتله في النهاية .. فهم يضعون الثور في حظيرة مظلمة لبضعة أيام ثم يفتحون الحظيرة فجأة ويخرج الثور الى النور . ثم يجيء من يمسك له غطاء أحمر داميا .. ثم من يضربه بالرماح .. ثم يصيب كتفيه ويسيل دماؤه .. كل ذلك لكى يثور الثور . فاذا ثار وهاج ، تقدم الفــارس أو « المتادور » — ومعناها الجزار — وراح يعاكس الثور ويدور به حتى يدوخ . فاذا داخ انقض عليه .. ومن العجيب أن الثور يخرج من الحظيرة مرهقا . وكأنه يعرف ما سوف يحدث له ، فانه لا يريد أن يشترك في صراع مع أحد .. بل انه يريد أن يهرب من النور الى الظلام ، غير أن باب الحظيرة قد اغلق .. وليس له الا أن يقاوم ، وهو مرهق تماما .. فكأن المصارع قد خرج يصارع حيوانات مكدودة . ولكن الجماهير تصرخ .. وأحيانا الأميرة النارية .. ولابد أن يقتله ، سواء صارعه او لم يصرعه .. لان الجماهير لا ترضى بما دون الدم وموت الثور . والرقص والغناء للبطل الذى قتل الثور أمام ملايين العيون في كل مكان .

وأصبحت مصارعة الثيران مهنة . حرفة .. غالية الثمن .. ومربحة . وأصبح للثيران تاريخ . وهم يحرصــون على اختيارها وتربيتها . وهم لا يطلقون سراح الثور بعد المعركة ، ولا يحيلونه الى التقاعد ثم ياكلون لحمه بعد ذلك .. لابد أن يموت !

وحاولت أسبانيا كثيرا أن تشغل الناس بمصارعة الديوك .. ولكن هذه المصارعة موجودة في المستعمرات الاسبانية القديمة .. نجدها في الفيلبين ، وبعض الجزر الآسيوية .. وهذه المصارعة تلقى نفس الاهتمام ، ولكن أحدا لا يستطيع أن يقيم مصارعة للثيران لانها غالية الثمن .. ولكن هناك مقامرات على الديوك التى تشترك في

المصارعة او فى القتال .. ويضعون الأمواس والسكاكين القاطعة فى ارجل الديوك . فلا يكاد يبدأ الشجار بين الديوك عندما ترتفع فى الهواء وتضرب الخصوم بأرجلها ، حتى تسيل الدماء ..

وبقيت مصارعة الثيران هى « الرياضة » العنيفة التى يقبل عليها الأسبان .. ويعرفون تاريخ ثيرانها وابطالها .. هؤلاء الأبطال الذين اثاروا الفزع بين المتفرجين : وفازوا بالمال والمجد فى النهاية ، من مئات السنين ، وحتى اليوم !



من يعرف الانسان كثيراً
يحترم الحيوان أكثر !

• على باب احـــدى خلايا النحل وقف رجل انجليزى فى دهشة . وانتهت دهشته بأن صرخ، فقد لسعته نحلة . وعاد الى البيت ليقول : شىء فظيع . كذب كل ما قاله الشعراء . الحقيقة شىء آخر .. ان هؤلاء الشعراء قد أخروا الحضارة الانسانية الوف السنين . لو استطيع ان اجمعهم فى مكان واحد واطلق عليهم النحل .. لو استطيع ذلك لأرحت الانسانية كلها ! ..

ولم يستطع هذا الكاتب مندفيل أن يحشر الشعراء فى خلية واحدة ويستريح منهم . ما الذى حدث لهذا الكاتب الانجليزى سنة ١٧٢٠؟ لقد رأى احدى خلايا النحل . ووجد بها حركة ونشـــاطا عظيما . وفجأة وجد النحل يتزاحم على دبور ، طردوه . ثم عاد الى الخلية. طردوه وعاد مرة ثانية وأخيرا تكاثر النحل عليه .. وســـقط الدبور ميتـــا !

واندهش الرجل كيف يحدث هذا فى مملكة النحل . كان رأيه مثل

الشعراء انها مملكة تصنع العسل بالدموع . مملكة تكرم المرأة وتقبلها حاكمة عليها .. وان خلية النحل تطعم الملكة لتكبر الملكة ويتحول الجميع الى خدام لهـا .. كل ذلك يتم فى هدوء وسلام .. والنتيجة عسل . ولكن هـذا الحادث الاليم جعله يعاود التفكير فى احوال هذه الخلية .. واصدر الكاتب الانجليزى كتابا عنوانه « خلية النحل او كيف تتحول الرذائل الشخصية الى فضيلة عامة » يقول:

هذه الخلية قائمة على الظلم . فالنحل الشغال يعمل . وهناك انواع اخرى من النحل لا تعمل . وانما تدور حول الملكة وتحميها وتتابعها . النحل الشغال يجمع الرحيق من كل مكان ويفرزه ولا يذوقه . والملكة لا تقوم بأى دور سوى أن تأكل وتشرب وتبيض ويقول فى كتابه أيضا ان النحل طلب من آلهة الاغريق أن تعاونه ولكن الآلهة تعبت من انقاذ النحل من نفسه وخربت الخلايا وماتت الملكة واحترق النحل الشغال . أما الدبابير فقد أوت الى جذع نخلة وعاشت أياما لتموت بعدها بقليل .

وهاجت الحكومة الانجليزية ولعنت هذا الكتاب واتهمت المؤلف بانه يريد افساد الاخلاقيات العامة .. وانه يهاجم النظام الملكى .. وانه يريد أن يشوه كل شىء جميل فى هذه الدنيا .. وانه هو الذى يقوم بدور الدبور وانه سوف يلقى نفس المصير .. ولم يلق الرجل نفس المصير ، وانما عاش الكتاب بعد ذلك مئات السنين كصورة جميلة لمحاولة اصلاح الانسان !

وبعد ذلك بسنوات ظهر قسيس ايرلندى اسمه سويفت ، وقد وضع فى جيبه نسخة من كتاب مطبوع تحت اسم مستعار ، اسم

ابن أخيه . الكتاب اسمه : « رحلات فى بلاد بعيدة لجيلفر ، كان طبيبا اول الأمر ثم بحارا لعدة سفن بعد ذلك .. » ومن مغامرات جيلفر هذا أن سفينته قد رست عند أرض سكانها من الخيول ان الخيول اذكى واشجع واعقل واكثر نبلا . ولكنها تجد صعوبة فى الكلام . وفى هـذه الأرض سـمع من حيوان منحط غبى . وأن هـذه الخيول تحاول أن تروضه وان تعلمه ولكن يبدو أنه لا امل فى ذلك .. هذا الحيوان الذى تسميه الخيول « ياهوه » ليس الا الانسان نفسه !

كان جيلفر يريد أن يقول : أن الانسان ليس أسمى الحيوانات . وانما هو حيوان من نوع ردىء ولكنه لن يتأكد من ذلك الا اذا سافر الى بلاد اخرى .

وعلى الرغم من أن رحلات جيلفر من اروع الاعمـال الأدبيـة والفلسفية ، فان هذه الرحلات قد أصبحت قصصا للاطفال ذات دلالة اخلاقية . او ذات مغزى فلسفى .. ولكنهارغم ذلك من الاعمال الأبقى والأمتع .

وقبل هذه المقارنات السـاخرة بين الانسان والحيوان ، أو بين الانسان والحشرات ، وجدنا فى عصر النهضة تساؤلا أستغرق مئات السنين : لماذا نجد الانسان يقتل الانسان ، ان الحيوانات لا تفعل ذلك ؟ أيهما الحيوان : الانسان أم الحيوان ؟

وكانت الاجابات كثيرة .

فمن بين الاجابات فى عصر النهضة ان الانسان حيوان لانه قليل

الدين . ولو عرف الدين ، لارتفع بالايمان عن مستوى الحيوان . ولكن الانسان حريص على كفره ، فأصبح هـذا الحيوان الكريه . وان الانسان قد حلت به لعنة الخطيئة الاولى . خطيئة آدم فى الجنة عندما اكل من الشجرة التى حرمها الله عليه وعلى زوجته .

ثم ظلت المقارنة بين الانسان وبين الحيوان فترة طويلة . فاذا أراد الانسان أن يفهم نفسه نظر الى هذه الحيوانات . لان هـذه الحيوانات ليست الا نوعا من الانسـان عاجزة عن التعبير ولانهـا عاجزة عن التعبير فهى عاجزة عن الكذب واخفاء مشاعرها . فهى أصدق من الانسان . اى أن الحيوان هو الانسان قبل أن يتعـلم الكذب . فالحيوان افضل من الانسان .

ولكن المعنى فى كل عصر النهضـة الاوربية هو هذه العبـارة البليغة التى قالها الفنان بأوبوتس من الوف السنين : الانسـان ذئب لأخيه الانسان Homo homini Lupus .

وحتى عندما قال الفيلسوف العظيم ارسطو : ان الانسان حيوان سياسى Zooir Politikon

لم يكن بذلك يرفع من قدر الانسان وانما اراد أن يقول أنه حيوان لايستطيع أن يعيش بمفرده . ولكن لابد ان يعيش مع الآخرين وبهم والحيوانات تفعل ذلك ايضا !

فقط عندما ظهر الساخر الفرنسى الكبير مونتنى بدأ الفكر الانسانى كله يتجه ناحية اخرى . فهذا الفيلسوف الفرنسى يقول : لا اظن ان الانسان افضل من الحيوان . انه احط من الحيوان . واعتقـد

انني تجنيت على الحيوان عندما وصفته بانه منحط . فالانسان هو الذى قال انه اسمى من الحيوان . وهو قال ذلك لانه مغرور فقط .

فلا توجد صفة واحدة عند الانسان لا نجد صفة افضل منها عند الحيوان فالحيوان اقوى واشجع . واكثر تضحية من اجل الزوجة والابن . ان ذكور الذئاب تفدى اناثها وصغارها بالموت فى مقدمة القطيع ودفاعا عن الجميع .. وان الحيوانات اكثر نبلا من الانسان .. ان الطيور تفرغ بطونها فى بطون صغارها وتكاد تمـوت من الجوع .. ان الاسد يصيد الفريسة ثم يتركها لبقية الحيوانات فى الغابة ويجد المتعة الكبرى فى ان يرى الجميع تفعل ذلك .. أرونى حاكما يفعل ذلك من اجل شعبه !

ثم ان الحيوانات محبة للسلام . انها لا تشن الحروب . ولاتعتدى على احد . كل ما تريده هو أن تظل فى مكانها تأكل وتشرب فى هدوء .. الا اذا هاجمها احد . ويكون هذا الاحد هو الانسان عادة . فهو الغاشم المعتدى والحيوانات هى الضحية !

واذا اشتبكت الحيوانات مع الانسان فى عراك فلبعض الوقت ، وبعد ذلك تهدأ او تسكن كأن شيئا لم يحدث ، وكأن دماء لم تسل ، وكأن صغارا لم تمت .

وتوجد حيوانات يساعد بعضها البعض .. يقول مونتنى : انه رأى عددا من الطيور المهاجرة قد تقاربت وتلاحقت لانها تحمل طائرا مهيض الجناح . ورأى هذه الطيور تقوم بعملية تدليك لعضـلات الطائر .. فهى تشد ريشه بمنقارها .. ثم ترخى هذا الريش مرة

بعد مرة .. ثم تبلل جراحه بريقها .. يوما بعد يوم .. حتى تمكن الطائر من الارتفاع فى الجو .. ولما لم يستطع أن يطير ، عادت فحملته على اجنحتها وركبت الهواء !

ويروى الفيلسوف مونتنى ان هناك حيوانات لها ذكاء الانسان . ولها خبثه ايضا . ولكن الانسان قد تفوق على الحيوان بخياله وقدرته على الابداع ..

والفضل الوحيد للفيلسوف الفرنسي مونتنى هو أنه لفت العيون والافكار الى الحيوان والى الانسان .. والى تقريب المسافة بين الاثنين .

واهم من ذلك يقول مونتنى : كل ما عملته هو اننى سحبت الانسان من انفه ووضعته فى اقفاص الحيوان وتركته هناك . ثم نظرت الى الناس جميعا لاقول لهم : تعالوا نختبر ذكاءنا جميعا : أين هو الانسان واين هو الحيوان !

ومونتنى هو اول من وضع اسس « علم النفس الحيوانى » او علم نفس الحيوان .

وكثير من افكار الفيلسوف الفرنسى مونتنى ليست جديدة ولكنه استطاع بسخريته الشديدة وذكائه الحاد أن يضعها فى عبارة جميلة .

ولكن هل للحيوان « نفس » كالتى للانسان ؟ هل الانسان فقط

هو الذى له نفس وله روح .. اى ان الحيوان بلا نفس ولا روح وانما مجرد حياة : ان يولد ويكبر ثم يموت دون أن يدرى من هـذه الدنيا شيئا !

مفكرون كثيرون قالوا : الحيوان ليس له نفس .. الانسان فقط هو الذى له نفس عاقلة . انه يتكلم . يكتب . يتخيل . أما الحيوان فليس « له نفس . واذا ضربته على راسه فلن يقول : آه .. وما دام لم يتوجع هكذا فليس له احساس !

وهناك فرق كبير جدا بين كلب يقف امامك يلعب بذيله يريد منك قطعة لحم ، وبين طفل ينظر اليك يريد نفس الشىء .. الطفل فقط هو الذى يعرف معنى اللحم والفرق بين اللحم والعظم !

وجاء فيلسوف المانى كبير اسمه ليبنتس يقول : لا فرق بين الشاعر والحمار .. كل واحد منهما جسمه مكون من ذرات . هذه الذرات هى بذور الحياة نفسها . فالانسان هو هذه الاشـياء الصغيرة . والحيوان كذلك . ولكن ذرات الانسان أو « بذور حياة » الانسان أحسن أو أعقل من (بذور حياة) الحيوان .. ولكن كل انسـان وحيوان مكون من بذور الحياة أو زرات الحياة . أو من الحيـاة البذرية أو الحياة الذرية .

ولما ظهر الميكروسكوب ونظرنا الى الخليـة الحية الميتة .. أو الحيوان المنوى للانسان والحيوان كانت النتيجة واحدة .. فتحت الميكروسكوب توجد حياة تروح وتجىء هذه الأشياء الصغيرة الحية

هى « ميتافيت الحياة » وكل شىء فى الدنيا يبدأ من هنا .. ولا فرق بين الخلية لانسان أو حيوان أو نبات .. فالكل واحد . والله اراد أن يكون كل شىء واحدا . هذا الكل الواحد دليل على قدرة الله .. فالكل أمام الله صغير جدا .. فالانسان ليس أكبر من الحيوان ، والحيوان ليس ارفع من النبات .. الكل ليس الا كلمات أو مفردات فى قاموس الكون الأعظم من تأليف الله جل جلاله !

ومن ستة قرون فى اوروبا وصفوا الحيوان بأنه آلة .. مجرد تكوينات فوق بعضها البعض تروح وتجىء .. انظر الى الكلب .. انه ظلك .. يمشى وراءك ولا يفكر فى هذا الذى يفعله .. والقطة .. والحيوانات المفترسة تراك فتهرب .. أو تراك فتهجم عليك دون أن تقدر أن كان الذى فى يدك عصا أو مدفع .. انها آلات مندفعة ـ فلا عقل لها !

واصبحت كلمة « الآلة » صفة للحيوان ، واهانة للانسان طبعا . حتى تقدمت صناعة الآلات فى القرن الثامن عشر .. واصبحت الآلات دقيقة ومعقدة . وقائمة على كثير من النظريات الهندسية . هنا فقط أصبحت كلمة الآلة شرفا للانسان اذا وصفناه بها . بل الانسان يتمنى لو كان آلة دقيقة مضبوطة . تعمل باتقان ولا تحابى أحدا . واصبح المجتمع كله جهازا ضخما ، أو يجب ان يكون كذلك .. ولذلك لم يعد الحيوان آلة . ولم يصبح الانسان آلة ، وانما هو يحلم بان يكون فى استمرارها ونزاهتها !

وكانت فلسفة القرن الثامن عشر ردا عميقا عمليا على فلسفة رجل فرنسى اسمه « لا مترى » . هذا الرجل يقول ان الانسان

والحيوان كليهما آلة . وانه لا فرق بين انسان وحيوان . وانما الحيوان كان من الممكن أن يكون انسانا لو أعطى الفرصة .. تماما كما أن الخادم كان من الممكن أن يكون السيد ، وأن يكون السيد خادما لو تغيرت الظروف . اذن : أعطوا الحيوان الفرصة لكي يكون انسانا ايها الناس !

ويقول لامترى أيضا : القرود : مثلا ما الذى ينقصها ؟ الكلام ! لو روضناها لو دربناها لقالت كثيرا كالانسان !

ويقول أيضا : ان هناك أنواعا مختلفة من الحشرات اذا حطمتها دبت الحياة فى كل جزء من اجزائها .. الدودة تقسمها نصفين .. كل نصف يتحرك وكأنك لم تفعل شيئا .. ولكن الانسان اذا قطعت يده أو ساقه .. ماتت اليد والساق .. واذا انكسر رأسه أو نزعت قلبه مات .. ومعنى ذلك أن حياة الانسان أضيق نطاقا .. وانه أسهل كسرا وموتا من أحقر الحشرات .

والذى قاله هذا المفكر الفرنسى ليس دقيقا . ولكنه أثار الكنيسة واغضب المجتمع السياسى فى فرنسا واستدعاه الامبراطور الالمانى فريدريش الاول وطلب اليه أن يبقى بعيدا عن الغضب الفرنسى على كل المستويات . والمفكر لامترى لا يعرف أن عددا كبيرا من العلماء حاول يائسا أن يعلم القرود كيف تنطق ، فلم يفلحوا . فالقرود عاجزة تماما عن الكلام .

ثم ان ما تحتاجه الدودة من مراكز عصبية بسيطة يجعلها تتحرك

يمينا وشمالا بنصفها أو ربعها .. ولكن الانسان جهاز شديد التطور وشديد التعقيد .

وكانت وفاة هذا الفيلسوف نكتة ضحكت لها أوروبا وشمتت فيها الكنيســـة وقتا طــويلا . ان وفاته تذكرنا بوفاة الخديو المصرى اسماعيل فقد جلس هذا الكاتب مع بعض اصدقائه . وكانت أمامه فطيرة محشوة بالتفاح وزجاجة من الشمبانيا . وكان يملأ فمه من الشمبانيا وتراهن مع اصدقائه انه يستطيع ان يدخل الفطيرة فى فمه دون أن تسيل قطرة شمبانيا من بين شفتيه .. وفعلها مرة وفى المرة الثانية ، مات مختنقا اما الخديو اسماعيل فكان يضع زجاجتين من الشمبانيا فى فمه وقد استلقى على ظهره وجعل يفرغ الزجاجتين فى وقت واحد ـــ ومات هو ايضا !

ولكن الشعور العام فى اوروبا فى العصور الحديثة : ان الحيوان اكثر نبلا من الانسان ـــ منتهى اليأس من الانسان !

ولم يكن الفيلسوف الالمانى المتشائم شوبنهور مبالغا عندما فكر قبل ان يموت بقليل ان يلقى بأمواله فى البحر ولما سئل عن ذلك قال : ان احدا لا يستحقها من بعدى !

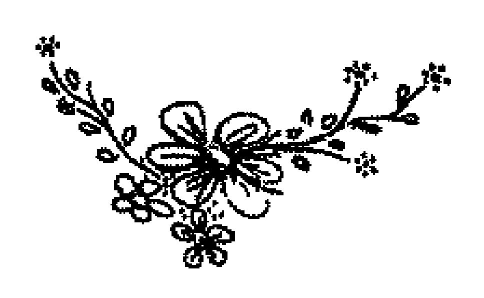
ولما سئل مرة اخرى : ولا حتى كلبك !

فنهض واقفا : انا الكلب حقيقة . فقد نسيت هذا الذى اخلص لى فى كل الظروف !

ثم اوصى بأمواله كلها الى كلبه !

والفيلسوف الالمانى نيتشه كان يحب الفتاة اليهودية سالومى وكان ينافسه فى حبها العالم اليهودى فرويد والشاعر الالمانى ريلكه .. ولم يتفق الثلاثة على شىء لانهم جميعا مختلفون تماما .. واخيرا قرروا ان يقيموا لها حفلة تكريم .. فاتوا بعربة واركبوها العربة واعطوها كرباجا .. ثم سحبوا العربة .. كأنهم خيول أو حمير لها !

وعندما ذهب الفيلسوف نيتشه الى مدينة ميلانو الايطالية راى فى ميدانها امام حصانا جميلا .. فراح يجرى وراءه ويصرخ ويعانقه : يا انبل كائن يمشى على اربع او على اثنين !



هو يسقط
والريش يطير !

« لو كان يقول اى شىء » — ولم يقل حيوان الكانجرو اى شىء . وانما ظـل الكابتن كوك الذى اكتشف اسـتراليا وعشرات الجزر يتأمل هذا الحيوان العجيب الذى ليس له نظير فى القارات الاربع . وكتب فى مذكراته يقـول : له راس غزال وله ذيل طويل واذا مشى فانه يقفز كالضفدعة .

ثم مضى الكابتن كوك فى وصف هذا الحيوان . كيف يأكل وكيف يشرب . ورغم قدرته الهائلة على المـلاحظة فانه لم يتنبه الى ان هذا الحيوان يحمل صغاره فى جيب فى بطنه . ولم يعـرف أن هذا الحيوان الذى يصل طوله الى عشرة اقدام عندما يضع صغاره فان الواحد منها يكون طوله بوصة فقط !

ولم يكن هذا هو الحيوان الوحيد فى استراليا أو القارة الجديدة ، وانما هناك حيوانات أخرى انقرضت مثل هذا الحيوان الذى كان يصـيده البدائيون ليأكلوا لحمه ويصيده الأوروبيون ليسـلخوا

جلده .. والبدائيون هم الذين أطلقوا عليه هذا الاسم . ويقال أن سبب هذه التسمية أن هذا الحيوان عندما يولد فانه ينطق كلمة : كانج .. وعندما يموت فآخر كلماته كلمة : رو ..

ومعنى ذلك أن البدائيين يريدون ان يقولوا أن الحيوان يولد ليموت! — هذه العبارة قالها الفلاسفة الوجوديون فى خمسينات هذا القرن وصفقنا لهم طويلا لاكتشافهم هذه الحقيقة المؤلمة !

وعندما زرت حديقة الحيوانات فى مدينة سيدنى باستراليا لم أجد الا ثلاثة من الكانجرو . وسألت ان كان هذا الحيوان قد أصبح نادرا . فكان الرد نعم . حتى أن جزيرة فى مدخل خليج ســالت فنسنت اسمها « جزيرة الكانجرو » أصبح الآن اسمها : جزيرة الكانجرو سابقا .. او جزيرة الــ .. حيوان الذى كان هنا !

* * *

وأهم ما جاء فى مذكرات الكابتن جيمس كوك فى سنة ١٧٧١ هذه العبــارة : انشــغلنا جدا بهذه الحيوانات الغريبــة والطيــور العجيبة ومن أين جاءت وكيف جاءت .. ولكن لم يتسع وقتى لفهم اشياء كثيرة من الاشياء التى لاحظتها أن حيوان الكانجرو هذا اذا مرض امتنع عن الطعام ، وانزوى وحده وأبعد صغاره عنه .. وأحيانا تجىء اناث أخريات وتتولى كل واحدة اطعام هذه الصغار .. واذا أحس هذا الحيوان بأنه سوف يموت ، فانه يحفر الارض بقدميه الاماميتين .. وكلما كانت الحفرة عميقة كان اقترابه من الموت .. فاذا مات فانه يتمرغ فى حفرته .. ولا يسكن تماما الا وقد

انهال عليه التراب كله .. كأنه حفر قبرا ثم دفن نفسه فيه تماما .»

والكابتن كوك يكرر ما شغل العلماء والاطباء من الوف السنين. فهم جميعا كانوا ينظرون الى الحيوان بهيام ويقسارنون بينه وبين الانسان . وعندما يريدون أن يعرفوا الانسان يفتحون بطن الحيوان. يريدون ان يعرفوا جلد الانسان فيسلخوا جلد الحيوان . يريدون أن يعرفوا ما الذى يضخه قلب الانسان فيفتحوا قلب الحيوان .. ان العالم الفرنسى هارف عندما اهتدى الى الدورة الدموية كان ذلك عن طريق تأملاته وتشريحاته للحيوانات.. والعالم الكبير مالبيجى عرف التنفس عند الحيوان عندما اخذ يكتم انفاس الحيوان . بل انه قد اهتدى الى الكريات الحمراء عندما رأى ذلك فى حيوان القنفذ .وكان يظن أن هذه الكريات هى أنواع من الدهن .. ثم انه نقل دم الكلاب بعضها الى بعض ، قبل أن ينقل دم الاغنام الى الانسان .

وعندما اهتدى الانسان فى أوائل القرن الثامن عشر الى الجهاز العصبى كان ذلك عن طريق تعذيب الحيوانات بالابر والنـــار ، ليلا ونهار .. هنا ادرك الأطباء والعلماء ، أن الاجهزة التى تحرك الانسان هى نفسها التى تحرك الحيوان .. وان للجميع اعصابا وان هذه الاعصاب تمسك كل أعضائه وعضـــلاته .. وتؤثر على وظائفه ـــ يكفى أن ننظر الى هذه الحيوانات !

***

ولا شىء يدل على طموح الانسان ورغبته المستمرة فى العـــلو والتخلص من متاعب المسافات بين الناس وبين البـــلاد ، مثـــل اعجابه بالطيور وخفتها ورشاقتها فى الحركة وركوب الهواء .. كل

النقوش القديمة تدل على هذا الاعجاب بالصقور والنسور . ولكن الانســـان نفســـه لم يعجب بالذباب مع انه اعجوبة الحشرات . ! لان الذباب مرتبط فى ذهنه بالقذارة وبأنه يضايقه عند النوم والاكل . واذا نظرنا الى تكوين الذبابة لوجدنا أنه يفوق فى اعجازه تكوين النسر .. ان جناح الذبابة تحفة هندسية حيوية . ان سرعة الذبابة فى الطيران والانقضاض تذهل أعظم المهندسين . فسرعتها لا تتناسب مع طول الاجنحة ومع جسمها . ولكن أحدا لم يلتفت الى ذبابة . وانما كان الانسان مشـــغولا بالطـــيران .. وعند الاغريق ، وفى اساطيرهم الرائعة حكاية ديادلوس .. كان فنانا قادرا على صناعة الكثير من الادوات التي استخدمها الفلاح والطبيب والمهندس .وهو الذى اخترع شراع الســـفن . هـــو أيضـــا الذى أخترع الدفة والسنارة والمصيدة . وكان عبقرية عظيمة . يكره أن ينافســه أحد . ويبدو أن له ابن اخت سوف يكون أعظم ، فالقى به من النافذة ومات الشاب قتيلا . وهرب العبقرى الشرير الى احدى الجزر . وصنع لاحدى الملكات سجنا لا يمكن أن يهرب منه احد ، لكثرة سراديبه . ولكنها لم تأمن اليه . وخشيت أن يهرب ويصنع سجنا مماثلا فى جزيرة أخرى ولملكة أخرى . فحبسته فى هذا السجن . واستطاع أن يصنع لنفسه ولابنه الصغير ايكاروس جناحين من الريش الطويل والصق الريش بالشمع . وهرب الاب وابنه .. ويقال ان ابنـــه ارتفع فى السماء فأذابت الشمس الشمع من جناحيه وسقط الابن ميتا .. أما الاب فنزل فى أحدى الجزر . ويقال أنهم وجدوه ميتا ووجدوا حبالا طويلة فى عنقه .. ووجدوا فى هذه الحبال عشرات من النسور .. يبدو انه كان يريد هذه النسور أن تحمله .. أن تطير به الى مكان بعيد . ولكن النسور حملته بعض الوقت وشدته جاذبية الارض ، فمات وماتت النسور !

وقد حاول أحد علماء الاندلس واسمه عباس بن فرناس أن يطير

هو أيضا . وكانت محاولته فى القرن التاســع الميلادى . وغطى جسمه بالريش والقى بنفسه من جبل .. وحمله الريش قليلا .. ثم سقط ميتا وارتفع الريش فى الهواء ..

ولم تمت فكرة الطيران عند الانسان وانما تجددت فى كل العصور .. ففى القرن الثامن عشر فى فرنسا ، حاول كثيرون ان يستخدموا بالونات الورق فى الطـــيران . ولم يفضــلوا على الورق بالون الحرير . وارتفع الورق وهبط على مدى قريب . وفى سنة ١٧٨٣ ارتفع من باريس بالون ورق . وهبط البالون بعد مسافة عشرين كيلو مترا . ولم يكد الفلاحون يرون البالون الطائر ، حتى ظنوا ان القمر نفسه قد سقط من السماء . واقتربوا منه . ومزقوه . وربطوا البالون المحطم فى ذيل احد الخيول ، وراحوا ينقلونه بين القرى ، احتفالا بالنصر . فاصدرت الحكومة الفرنسية بيانا تصف فيه هذه التجربة وتؤكد اهميتها للانسانية . وانه لا خوف على أحد ولا ضرر له فى ماله ومزاله .

وفى ١٩ سبتمبر ١٧٨٣ ارتفع بالون اكبر ومن الورق ايضا . وكان صاحب البالون اكثر خيالا وأعلف طموحا . فعلق فى البالون صندوقا من الخشب . وفى الصندوق خروف ودجاجة وبطة . وارتفع البالون . ومضى تحمله الريح بعيدا . ثم هبط . ونزلت الحيوانات منه سالمة .. وبعد ذلك بسنوات ركب البالون بعض المغامرين وعبروا به المانش . واتجه الانسان الى اساليب وحيل جـديدة فى صـناعة الاجنحة الهندسية لكى تطير به من مكان الى مكان ابعد واسرع من الطيور نفسها . ويكفى ان ننظر الى ماركات شركات الطيران العالمية لنجد ان هذه الماركات ليست الا مباراة رائعة فى تصوير معنى الطيران والطيور . فكل هذه الماركات تشير الى خفة الحركة ورشاقتها

وسلامتها هبوطا من الجو وصعودا اليه .. كأنها طيور آمنة مطمئنة لا خوف عليها ، ولا خوف منها على أحد !

فالاعجاب بالطيور وتقليدها ومحاولة فهمها ليمكن فهم الانسان هو هدف العلماء من ألوف السنين . وليست الطيور وحدها التى يريد الانسان أن يتخذها وسيلة لفهم الانسان . وانما كل الحيوانات . ومن أقدم العصور كان الملوك يهدون أطباءهم أناسا مجرمين ليجربوا فيهم المشارط والسكاكين . فالملك كان يفتح السجون للطبيب الخاص ليختار واحدا من هؤلاء النزلاء ليشرح جثته ويعرف ما هى هذه الحياة .. ما القلب ما الكبد ما الامعاء .. ما المعدة .. وكان يحدث ذلك فى مصر الفرعونية وفى فارس القديمة ..

وكان رجال الدين فى كل العصور يحرمون قتل الحيوان بقصد البحث العلمى . وانما يرون القتل للصيد أو للأكل ممكنا .. أما اسالة دم الحيوان وتقطيع أطرافه ، مهما كان الهدف نبيلا فشىء حرام . ولعل الفنان العظيم ليوناردو دافنشى قد هرب الى روما لهذا السبب . فقد كان يريد أن يشرح جثة خنزير أو بقرة ليعرف تكوين السيقان والرأس . وكان يعلم أن رجال الدين يرفضون هذه النظرة العلمية الواقعية للأشياء . ولا يرون فيها الا خروجا على الدين ..

وعندما انتشر القتل بالسم كان الملوك ، وخصوصا لويس الرابع عشر ، يطلبون الى الأطباء أن يذوقوا الطعام قبلهم .. وأحيانا يموت الأطباء ، ثم لجأ الملوك الى استخدام المجرمين واللصوص الذين يعتقلونهم فى مكان خاص بالقرب من القصور .. وأخيرا اهتدى

الاطباء الى وسيلة لانقاذ أرواحهم هم ، فاتوا بالحيوانات يطعمونها ما يقدمونه للملك .. وكان السم احيانا شديداً فيتلوى الحيوان تحت قدمى الملك .. فيرفض الملك الطعام أياما من شدة الخوف ..

* * *

ومن حوالى مائة سنة فقط ، ظهر شعور انسانى يغمر أوروبا كلها ويدعو الى الرفق بالحيوان والرحمة به . فهو أيضا يتألم ويتعذب مثلنا . والذى يرحم الانسان ، هو نفسه الذى يرحم الحيوان . والذى يقسو على الحيوان هو نفسه الذى يعذب الانسان . ولذلك يجب أن نتواصى بالرحمة بهذه المخلوقات لنكون رحماء بأنفسنا .. والاطفال يجب أن نعلمهم حب الحيوانات ليحبوا بعضهم بعضا .

بل اننا رأينا الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو يدعو الى أن نعلم الاطفال الرحمة بالحيوان حتى اذا كبروا كرهوا القسوة على احد من الناس ..

وقبل روسو بعشرين قرنا اقام الملك الهندى اشوكا أول مستشفى للحيوانات المريضة ، وجعل علاجها اجباريا . وكان يقول : لا أصدق ان ابا يحب اطفاله ، اذا رأى كلبا مريضا ولم يساعده بلقمة او قليل من اللبن .. لا أصدق ان الام لا تأكل بنيها ، اذا رأت هرة تلد ثم القت عليها بالتراب ، لانها تتشاءم من منظر الحيوان وهو يلد !

وفى أيام الحروب كانت تقام المطاهر للخيول . ولكن اذا مرض حصان قتلوه . حتى لا تنتقل عدواه الى بقية الخيول !

حتى كانت سنة ١٧٦١ . فى هذا العام أقام رجل فرنسى اسمه كلود بوجيلا مدرسة يعلم الناس فيها كيف يعالجون الحيوانات . مدرسة للطب البيطرى . صحيح كانت هناك محاولات مماثلة وضيقة النطاق فى هولندا او سويسرا أو بروسيا . ولكن هذه المدرسة الفرنسية اكتسبت شهرة عالمية . وجاءها طلاب الطب والعلاج من كل مكان . وكانت هذه المدرسة تنصح الطالب : بأن يكون انسانا فى معاملة الحيوان .. وان يؤمن ايمانا مطلقا بأن هذا الحيوان ، لأسباب لا نعرفها ، عاجز عن الكلام .. اى عاجز عن الشكوى من العطش والجوع أو الالم .. وان هذه الحيوانات تحب من يحبها — والكلب اكبر دليل على ذلك . وأن فى هذه الحيوانات شهامة ونبلا — الحصان اقوى دليل على ذلك ..

وظهر من هذه المدرسة عدد كبير من الاطباء لعلاج الحيوانات التى تنفع الانسان : الحيوانات التى نأكل لحمها او نبيع جلدها او تجر العربات أو تحرس له العربة والحصان والبيت ..

ولا تزال فى العالم عشرات الالوف من مستشفيات الحيوان .. والوف المجلات للحيوان .. ومئات الشركات تعد الطعام الخاص للحيوان والطيور . وعشرات من أصحاب الملايين يتركون ثرواتهم للحيوان — حبا فى الحيوان ، او كرها فى الانسان !

ويوم ارتفعت الكلبة لايكا فى احدى سفن الفضاء تدور حول العالم ثارت جمعيات الرفق بالحيوان . تقول : وحشية .. جريمة ! ..

مع ان فى المعامل فى كل مكان الوف الحيوانات تموت فداء للانسان . ولكن هذه القلوب الرحيمة بالكلبة لايكا نسيت الاتجار العلمى

العظيم الذى رفع الكلب تمهيدا لارتفاع عشرات من رواد الفضاء ..
فماتت الكلبة لايكا ودفنت فى قبر من نوع غريب ، قبر يدور حول الناس وعلى ارتفاع مئات الكيلو مترات من الارض وبسرعة عشرات الالوف من الاميال فى الساعة ..

وكانت هذه الجنازة العجيبة التى اشترك فيها كل سكان الارض : جنازة حارة والميت كلب !



لو نام الأرنب قليلاً تدركه السلحفاة!

*** فى القرن الثامن عشر تأكد لدى الناس ذلك المعنى الذى جاء فى الكتاب المقدس : ان الناس ولدوا ليندموا على انهم ولدوا .. فقد كانت الحياة قاسية : ارهاق ومرض وموت بعد ذلك. ولا يتسع وقت الانسان ليسأل نفسه : صحيح ما معنى هذا كله ؟ ماذا اخذت ؟ ماذا اعطيت ؟ ما الذى يتبقى منى لاحد من الناس . والجواب عادة : لا شىء ! كأن الناس ولدوا ليكونوا بعد ذلك : لا شىء ، كما كانوا قبل ان يولدوا — انها نظرة مثل الحياة ومثل مداخن المصانع الجديدة: ســوداء ! ..**

وفى سنة ١٣٨٤ اعلن البابا كلمنس السادس أن عدد الاوروبيين الذين ابادهم « الموت الاسود » ذلك المرض اللعين قد بلغ ٤٢ مليوناً!

ولم يكن المرض هو الحاصد الوحيد للأرواح . لانه اذا لم يكن مرض اخترع الانسان الحروب . واذا لم تكن حروب اخترع الانسان

الكراهية التى تؤدى الى القتل — اثنان من أولاد آدم قد فعلا ذلك وكان عدد سكان الأرض أيامها ستة أشخاص !

كما أن حرب المائة عام هدت حيل فرنسا .. وحرب الثلاثين عاما مزقت قلب المانيا ..

وفى انجلترا جاءت حرب الخمسين عاما فأطاحت بالكثير من الرجال والشباب ..

ولم تفت هذه الظاهرة عددا من المؤرخين ، الذين وضعوا ساقا على ساق وقالوا : ان هذا يحدث كل عشرسنوات ، ويجب أن نتوقع ذلك ، فالنساء يلدن والرجال يحصدون ماوضعته النساء .. وبذلك يظل عدد سكان العالم رقما ثابتا . انها حكمة السماء منذ نزل ثمانية من البشر من سفينة نوح فوق جبل ارارات !

ولكن ما هذا الذى يجرى بين الناس .. انهم يتزايدون رغم ذلك، والطعام لا يكفيهم ، ولابد أن يجد الانسان وسيلة ليكون هناك طعام من النباتات ومن الحيوانات .. ليكون هناك كساء وغطاء ومشروبات ومساكن ليوالى الانسان زيادة عدده ورفاهيته ، ويموت من أبنائه أقل عدد ممكن .

وفى احدى القصص التى ظهرت فى أواخر القرن الثامن عشر يقول الكاتب : لم نعرف بالضبط كيف يجىء هؤلاء الأطفال ، أن الرجال عادة يخطئون فى عدد أولادهم الشرعيين وغير الشرعيين .. ولكن

الامهات لا يخطئن ، ويستحيل عليهن ذلك . فالام تحمل طفلها تسعة شهور ، ولكن الرجل يحمل ذلك الطفل ساعة او اقل من ذلك كثيرا ، فالرجل لايدرى به ولكن الام تعرف ذلك جيدا ولن يتحمس الرجال لان يكون عندهم اولاد اقل .. ولكنهـا المـرأة هى التى يجب ان تفعل شيئا ـ ن نساء الاغريق ضربن ازواجهن لان الرجال يدخلون الفراش دون ان يضعوا فى شعورهم شيئا من العطر ، او على اجسـادهم شيئا من الزيت الذى يكسب الرجل حيوية وقدرة على امتاع المرأة .. فلتفعل المرأة شيئا .

والمعنى هو أن الكاتب يطلب الى المـرأة ان ترفس الرجل حتى لايقربها وحتى لايزيد عدد الناس فى كل مكان .. ومن حقها أن تفعل ذلك فهى التى تتعب وهى التى تتعذب . أما الرجال فلا يشعرون بشىء .. وهذه القصة الانجليزية تذكرنا بموقف قديم قبل ذلك بالف سنة . عندما اختلف أبو الاسـود الدؤلى مع زوجته على الطلاق وحضانة الأطفال قالت الزوجة أمام القاضى : انا تعبت انا حملت أطفالى . انا اولى بهم .. قال الزوج : أنا حملت الطفل قبل أن تحمليه انت . قالت الزوجة : انت حملته فى ظهرك خفيفا ، وانا حملته فى بطنى ثقيلا .

وحكم القاضى للزوجة بحضانة الأطفال !

واستطاع قسيس انجليزى أن يحدد بالضبط مشكلة تزايد السكان فى العالم انه القسيس مالتوس . وكان ذلك سنة ١٧٩٨ عندما أصدر كتابا بلا امضاء .. انه يقول : ان الطعام فى العالم يتزايد بصورة حسـابية : ١ ــ ٢ ــ ٣ ــ ٤ بينما يتزايد عدد سـكان العالم بصورة هندسية ٢ ــ ٤ ــ ٨ ــ ١٦ وهكذا .

ومعنى ذلك ان الطعام لن يكفى الانسان ، وأن الانسان يعيش ويكبر ليموت جوعا ، الا اذا توقف الانسان عن النمو ، او الا اذا ضاعف طعامه وشرابه بنفس السرعة ، ويبدو أن هذا غير ممكن فالمطلوب من الانسان أن يتوقف عن التكاثر .

وهذا القسيس يقول : وليس من مصلحة الانسان أن يوفر الطعام الكثير لانه كلما زاد الطعام تزايد عدد الناس فكأن الطعام يؤدى الى النتيجة غير المطلوبة .. فالافضل هو الا نزيد الطعام حتى يموت الناس من الجوع . ويكون الجوع هو أول منظم للنسل ومحدد له، أو يبحث الناس عن طريقة لانقاص عددهم .

يقول القسيس مالثوس : صحيح ان الارنب والسلحفاة لو دخلا فى سباق فمن المؤكد أن الأرنب هو الذى سوف يصل الى الهدف أسرع . لا شك فى ذلك ولكن لو طلبنا من الأرنب أن ينام قليلا فى الطريق فان السلحفاة سوف تصل قبل الارنب ، او تصل معه فى وقت واحد !

وسارعت الهيئات الدينية بتفسيرات جديدة لتحديد النسل ، فالانسان حيوان تحكمه الغريزة ، ولذلك لا يستطيع ان يحدد عدد صغاره . ولكن الانسان يتصرف بالعقل ولذلك يجب أن يستخدم عقله ، وقال القساوسةفى أوروبا فىذلك الوقت : الطهارة يارجال .. الطهارة . فالذى يعف عن الجنس هو الذى يجد الرغيف فجزاء العفة ان تجد الطعام والشراب .. والنزوات عقابها الجوع !

اما رجال الصناعات وأصحاب رءوس الأموال فقد انزعجوا ،لان

تحديد النسل معناه أن يصـــبح عدد العمال أقل . فاذا قل عددهم ارتفعت أجورهم ، واذا ارتفعت أجورهم نقص ما يكسبه أصحاب المصانع والمتاجر .. ولذلك وقفوا ضـــد القسيس مالتوس الذى يدعو الى تخريب بيوت المال فى أوروبا كلها !

وقال السياسيون المحافظون : بل يجب أن يحدد الناس نسلهم، والا زاد عدد الجياع ، فاذا زاد عددهم قاموا بثورة كثورة فرنسا، وأطاحوا بالملكية فى انجلترا . وقلبوا الأوضاع واختلت الموازين والقيم الاجتماعية .. ولذلك فنظرية القسيس مالتوس هى أعظم ما اكتشف الانسان فى كل العصور !

واخذت الجامعات تلقى عليه نياشينها العلمية ، وتطلب اليه أن يحاضر فيها ، فهو الذى وضع أصابعه على داء البشرية ، وأقوى قوى التاريخ الانسانى !

ولو نظرنا الى عالم الحيوان لوجدنا شـيئا مخيفا ، ففى عالم الأسماك مثلا : نجد أن انثى سمك الرنجة تضع أربعين الف بيضة بينما تضع ســـمك موسى تسعة ملايين بيضة والسلامون تضـــع ثمانية وعشرين مليون بيضة .. وسرطان البحر الأمريكى يضع مائة مليون بيضة ، وهذا يتكرر خمس مرات فى السنة .

وفى عالم الحشرات : نجد ان ملكة النحل تضع فى السنوات الثلاثة الاولى خمسة ملايين بيضـة .

أما الضفدعة فانها تفقس ٥٤ الف مليون بيضة فى السنوات الثلاث

الاولى من حياتها ، وربما كان هذا هو السر فى أن عدد الضفادع فى العالم يتوازن دائما — هناك الكثير فى كل مكان فى اى وقت !

***

وهناك مسافة كبيرة جدا بين عدد البيض وعدد البيض الذى تم اخصابه .. وهذه المسافة تصبح أوضح وأكبر فى الانسان ، فعدد الحيوانات المنوية عند الرجل طول حياته تقدر بألوف الملايين وعدد البويضات عند المراة مئات الالوف .. ولكن لابد من حيوان واحد من الرجل لبويضة واحدة من المراة ليكون هناك طفل .

ولان المراة لاتقوى على حمل أكثر من طفل فان هذه الحيوانات المنوية والبويضات لا ضرورة لها .. وفى عالم الحيوان والحشرات تجد أن الذكر ليست له اهميته . فاذا قتل او أكلته الانثى فان الطبيعة لاتخسر شيئا بالمرة ، بل ان الملايين من البويضات المخصبة تحل محله بسرعة ، فالذكر ليس شيئا هاما لكى تستمر الحياة .

ولو كانت كل الحيوانات المنوية عند الرجل تلتحم بكل بويضات المراة لكان عدد سكان الأرض ضعف هذا العدد بألوف الملايين من المرات . ولكن انثى الرجل هى التى تحدد النسل . ومن المعروف ان المراة لاتستطيع أن تحمل اكثر من عشرين مرة فى العمر كله .. وهذه هى الحالة النادرة ، ولكنها عادة لا تتجاوز الثلاثة أوالأربعة الا قليلا .. وهذا ينطبق أيضا على كل الحيوانات الاخرى التى يأكلها الانسان !

والأغنياء وحدهم هم الذين انشغلوا كثيرا بعدد أطفالهم وبالجوع . فهم لا يريدون لاطفالهم ان يجوعوا . أما الفقراء فان الجوع لا يشغلهم . لانهم الجوع نفسه ، والفقراء كلما اشتد بهم الجوع ، احسوا باقتراب الموت ، وأصيبوا بحالة نهم جنسى ، فيزداد عددهم .. لهذا زاد عدد الفقراء الذين أزدادوا فقرا !

ولابد أن ينشغل الناس عموما بالبحث عن موارد للطعام ،لتوسيع رقعة الأرض المزروعة عشبا ، أو بالهجرة الى بلاد أخرى ، الايرلنديون هربوا من ارضهم القاحلة الى أمريكا ، الانجليز رفضوا ان يتركوا ارضهم ، ولذلك زاد عددهم وزادت مصانعهم ، ولكن حدث شيء غريب : زادت الأقمشة أمام الناس ، فكانوا يجدون الكساء ولا يجدون الغذاء وقالوا عن أنفسهم : اننا وجدنا الشيء الذى يدفيء الجلد ، ولا يدفيء المعدة !

ولكن الانجليز وجدوا الأيدى الكافية لادارة مصانعهم ، وكانت هذه المصانع للنسيج ، ولم يتوافر لديهم نفس هذا العدد من مصانع الطعام .

بدأ الانجليز ــ مثلا ــ يستوردون طعامهم من الخارج ، أما ملابسهم ، فمن الداخل .

وبعض أصحاب الأغنام أرسلوها الى الارجنتين حيث الجو أفضل والطعام أوفر ، وبعضهم أرسل مئات الأغنام التى أصبحت مئات الالوف ، الى استراليا ..

وكانت المشكلة هي نقل هذه الحيوانات بعد أن تعبت وسمنت الى أوروبا ، ولكن أكثر هذه الأغنام كان يموت فى الطريق وكانت أمراض الحيوانات تتفشى بسرعة ــ وتهلك سفنا بكملها .

وفى ذلك الوقت اخترع رجل استرالى سفينة تنقل لحوم الأغنام والأبقار الى أوروبا ، وكانت السفينة تقوم بتبريد اللحوم ، وكان ذلك انقلابا فى صناعة التغذية ولكن النساس فى أوروبا لم يستسيغوا اللحوم الباردة .. وكانت هذه اللحوم طعام الفقراء . اما الأغنياء فيفضلون اللحوم الحية .. يرونها ويذبحونها ..

ولكن رجلا فرنسيا اسمه طييسه سنة ١٨٧٧ اخترع « ثلاجة » وكانت الثلاجة على شكل سفينة ، فهذه السفينة تنقل اللحوم مجمدة من الارجنتين الى فرنسا وانجلترا . وكانت رحلة السفينة تستغرق مائة يوم ، وتظل اللحوم متجمدة سليمة . وكان ذلك هو اعظم اختراع انقذ أوروبا كلها من الجوع. وانتشرت الثلاجات العائمة فى الموانى الاوروبية والموانى الأمريكية ، وانحلت مشكلة الاحوم الى حين وبقيت اللحوم المجمدة طعام الفقراء !

واذا كانت الثلاجات قد انقذت الفقراء فان الآلات الحديثة التى ظهرت فى ذلك الوقت قد خربت بيوت الفقراء فالآلات البخارية التى استخدمت فى المواصلات وفى المصانع قد استغنت عن الأيدى العاملة ، وكان أصحاب المصانع حريصين على الآلات لأنها تختصر الأيدى العاملة وتوفر لهم المال ، وظل العداء قائما بين الآلات وبين الأيدى العاملة .. ولا يزال ..

***

وفى ذلك الوقت من اوائل القرن التاسع عشر ظهر سباق الخيل . وكان الانسان لايريد أن يصدق أن القطار أسرع من الحصان ، ولذلك بدأ الانسان ينظم مسابقات الخيول ، وقبل تنظيم المسابقات كان يحرص على اقتناء أحسن سلالات الخيول . وأحسنها بالفعل تلك

التى جاءت من اصل عربى ، وهناك خيول أخرى مولدة : اضخم واثقل واطول سيقانا واضخم عنقا ورأسا ، ولكن افضل الخيول جميعا هى العربية الرشيقة .

وفى الوقت الذى اخذت انجلترا بلعبة سباق الخيول ، اتجهت اسبانيا الى مصارعة الثيران ، حتى ثيران أسبانيا هى الاخرى قد جاءت من الشرق . بعض هذه الثيران مصرى فرعونى .

والقرن التاسع عشر يعرف اسماء عدد من الخيول قد غيرت الحياة الاجتماعية ، فهناك الحصان الشهير « دارلى » الذى كسب ثلاثين سباقا وفاز بعشرين كاسا فضية ، ولم يسبقه حصان واحد . . بل أن ابناءه من الخيول وهى معروفة الاسم ، قد بلغ عددها ٣٤٤ حصانا ، قد عادت الى أصحابها بمليون جنيه ! .

واصبح من المألوف جدا فى أوروبا كتابة تاريخ حياة الحصان ، أصله ومن أين جاء ، وأولاده بالاسم ، وأماكنهم وأحجامهم ، والسباقات التى اشتركت فيها .

وفى انجلترا تأسس نادى الجوكى سنة ١٧٥٠ ، وبعد ذلك بثلاثين عاما بدأ اللورد دربى السباق المشهور المعروف باسمه حتى الآن . . وكان هذا السباق متعة كبرى وفرصة دولية لتشترك أجمل وأقوى الخيول فى السباق والمراهنة .

وربما كان نابليون بونابرت هو أول من اخترع فكرة ارض السباق، وأن تكون الأرض ناعمة وأن يكون الطريق أمام الحصان ممهدا . فقد أرسل له أخوه لوسيان خطابا يستأذنه فى اقامة سباق العربات . ولكن نابليون اعترض على سباق العربات التى تجرها الخيول لانها لعبة اغريقية قديمة ، وأن العربة تعوق الحركة وأن الاغريق كانوا

يتسابقون بالعربات لانهم كانوا يحاربون من فوق العربات وبها .. أمام على أيام نابليون فكانوا يحاربون من فوق ظهــور الخيول ، فالسباق بالخيول هو مناسبة للتدريب على القتــال ولذلك . أمر نابليون بعمل أرض للسباق وتسويتها وتغطيتها بالخشـــب فيتمكن الحصان من الانطلاق ، واذا سقط من فوقه الفارس فلا تكون اصابته خطــرة !

وانتشرت لعبة السباق فى أوروبا كلها ، واصبح الأغنياء يتباهون بأن لديهم احسن الخيول واكثرها عددا وبأن لديهم اصطبلات فخمة . . واذا كان الأغنياء قد انشغلوا بتربية الخيول فان الفقراء قد وجدوا لهم لعبة أخرى : السيرك . . ففى السيرك تلعب الخيول والحيوانات الاخرى . . . فالسيرك متعة ارخص ، وفى نفس الوقت فرصة لان يتفوق الفقراء على الاغنياء بالبراعة والصبر فى مواجهة الاســـود والنمور وركوب الخيول . . والتصفيق للاعبين المهرة : اى للفقراء من أمثالهم . .

وعندما يتعب الفقراء من الفرجة على الســـيرك ، فانهم يذهبون الى حديقة الحيوانات ، ففيها الحيوانات من كل نوع جاءت من آخر الدنيا لتكون جاهزة لتسليتهم فى أى وقت !

« ويعد ذلك يذهب الناس الى بيوتهم سعداء بما رأوا ، وبأنهم قد عوضوا ما فاتهم من امتلاك الخيول ، بالنظر اليهم والاعجاب بأصحابها . . وينامون فى الليل ، ويولد الأطفال فى الصباح » — كما يقول الكاتب الايطالى البرتو مورافيا .

ففى احـــدى قصص مورافيا يجىء الرجـــل الذى يعد السكان ويسأل : كم عدد الأطفال عندكم ، فتقول الأم : عشرة .

ويقول موظف التعداد : تقولين عشرة ؟ .. ياه ! عشرة ؟

ويرد الزوج : نعـم يا سـيدى عشرة .. ليس عنـدنا راديو ولا تليفزيون ، ولذلك نحن ننام فى ساعة مبكرة !

— معقول .. ويمضى الرجل يدق ابواب البيوت الاخرى عينه على الباب والعين الاخـرى على السـطح ، ليرى ان كان عندهم تليفزيون !

وفى نفس الوقت تتزايد الحشرات بالوف الملايين ويصرخ الانسان من الجوع فى آسيا وافريقيا !



نظرية التطور !
رد للاعتبار الحيوان !

كانت محاكمة العصر كله . فقد اجتمع العلماء ورجال الدين وكانت الراهبات يمسكن المناديل ويشرن بها الى ذلك القس الوسيم الرشيق الذى جلس متحفزا ليدافع عن الدين عن كل سطر جاء فى الكتاب المقدس . عن ان الانســـان الأول كان اسمه آدم . وان البشرية كلهـــا قد جاءت من سلالته .. وامام هـــذا القس واحد من العلماء اسمه هكسلى جاء يدافع عن نظـــرية تقول ان الحيوانات تتطور .. وربما كان الانسان اصله قرد . وليس ذلك بعيدا فالتشابه شـــديد جدا بينهما .

دخل العالم الكبير وجلس فى مواجهة القس . فقال له القس متسائلا مستنكرا : اريد ان اعرف منك ان كان جدك لامك او لابيك قردا ؟ ..

وضحك الحاضرون وهنأوا بعضهم البعض . ولكن العالم الكبير

قال له : يشرفنى أن يكون جدى من الناحيتين قردا .. ولا يشرفنى ان يكون واحدا مثلك يستخدم ذكاءه وعقله فى مناقشة قضايا علمية لا يفهم فيها شيئا !

وانتهت المناقشة فجاة بانتصار العالم الكبير هكسلى . اى انتصار فلسفة داروين التى كانت قد هزت الفكر والحياة فى أوروبا كلها فى منتصف القرن التاسع عشر !

وعندما سمع داروين هذه المناظرة قال : كان من السهل جدا ان اموت لمجرد أن اتصور أن احدا سوف يحاكمنى هكذا ..

فلم يكن داروين ذلك الرجل القوى القادر على المناقشة والمناورة. وانما كان رجلا هزيلا مريضا .. فعندما سافر فى رحلته الشهيرة لمدة خمس سنوات الى امريكا واستراليا كان عمره ٢٢ عاما . وكان اضعف المسافرين . وكان يعمل فى هذه الباخرة العلمية باحثا فى الحيوانات والنباتات . ولميكن أحد يتصور أن تشارلز داروين هذا من الممكن ان يكون شيئا هاما فىالتاريخ . ولم يخطر على بال احد ان داروين هو كولمبوس الجديد .. فاذا كان كولمبوس قد اكتشف قارتى أمريكا ، فان داروين قد اكتشف قارات من المعلومات العجيبة فى تاريخ النباتات والحيوان والانسان . بل ان كل العلماء راحوا يدرسون من بعده تاريخ الحجارة والتراب .. لان كل شىء له تاريخ وكل شىء على الأرض قد تغير وتطور .. فالتطور هو قانون الاشياء كلها ، كما أنه قانون الحيوانات كلها كما قال داروين .

وفى هذه الرحلة التى غاب فيها داروين عن بلاده قد درس عينات

كثيرة جدا من النباتات والحيوانات .. واهتدى الى مجموعة من الافكار .. ولكنه لم يجرؤ على أن يعلنها . فهو أولا ما يزال صغيرا، ثم أن هذه الأفكار مختلفة تماما عن الافكار السائدة أو «المتسيدة» للهيئات العلمية كلها . ولذلك عندما ارسل لبعض أصدقائه عن اكتشافاته جاءت عباراته خائفة مرتجفة ، كأنه يعترف بجريمة ارتكبها ، ولم يكن ذلك قصده . وانما وجد نفسه أمام شيء جديد مختلف . وكان لابد أن يقول .. وقال .

وفى سنة ١٨٥٩ أصدر داروين كتابه عن « أصل الانواع » ..

وكان هذا الكتاب نقطة تحول فى التاريخ الانسانى والحيوانى .

ولم يكن داروين أول من تحدث عن التطور تماما كما أن خريستوف كولمبس ليس أول من اكتشف أمريكا .وانما تحدث عن تطور الكائنات كلها أناس كثيرون . بل أن عددا من الفلاسفة والعلماء تحدثوا عن التطور قبل داروين . وقبل أن يعرفوا أنه أصـــدر كتابا يشرح فيه خطوات تطور الحيوانات بعضها الى بعض حتى اقتربت من الانسان .

وربما كان الفيلسوف الألمانى هيجل هو اول من رســـم خطوط التطور لكل شيء فى الكون واول من قال ان الأشياء تتطور بعضها . الى بعض . وان الله قد وضع خريطة وسلالم تصعد عليها الكائنات وفقا لهذه الخريطة . وان التطـــور من حالة الى حالة هى ســـنة الكون كله ..

وربما كان الفيلسوف الألمانى شوبنهور هو أول من قدم للانسانية

نظرية التطور التى تحدث عنهـا داروين . وكان شوبنهور أمتع واوضح من داروين . ولم يشك شوبنهور لحظة واحدة فى أن الانسان أصله قرد . قال أن أبناء آسيا أصلهم أورنج تان .. وأبناء أفريقيا أصلهم من الشمبانزى .. ومات شوبنهاور بعد صدور كتاب داروين بعام واحد دون ان يقرأ منه أو عنه سطرا واحدا . !

وكانت هنـاك نظريات كثيرة تفسر هـذه التغيرات فى تـكوين الحيوانات نفسها .. لمـاذا رقبة الزرافة طويلة مثلا ؟ يقول عالم فرنسى اسمه لامارك : ان الزرافة تنحدر من سلالة كانت تعيش فى غابات . وكانت الغابات أشجارا طويلة . فاضطرت الزرافة الى أن تمد عنقها الوف السنين لكى تأكل الاوراق من قمم الأشجار .. وطال عنق الزرافة لهذا السـبب .. ومعنى ذلك أن الحيوانات « تتكيف » مع البيئة . أو يجب أن تتكيف مع البيئة والا ماتت من الجوع . فالبيئـة هى التى تؤدى الى تغير تكوين الحيوانات . او حرص الحيوانات على ان تعيش هو الذى يرغمها على أن تتغير وان تتغاير والا ماتت !

ونحن الآن لسنا بعيدين عن داروين وفلسفته . فهو يرى أن الحياة صعبة على الجميع . وأن الحيوان يجب أن يقاوم العقبات . ومن هذه المقاومة تتولد صلابته . ومن الصلابة يكتسب القوة . ومن القوة يكتسب التغلب على البيئة .. فاذا تغلب عليها عاش .. واذا لم يفلح فى ذلك مات . وكل الحيوانات التى ماتت هى حيوانات قهرتها البيئة وغلبتها الظروف . وأول معالم الحياة هو الكفاح . والكفاح من

صفات الاقوى . والاقوى هو الذى يبقى . فالبقاء للاقوى . والاقوى هو الاصلح للحياة . . فالبقاء للاصلح . والحيوانات التى تعيش هى أصلح الحيوانات لان تستمر . فاذا استمرت دخلت فى صراعات جديدة . وهذه الصراعات الجديدة تحتاج الى اسلحة جديدة والذى يجدد سلاحه هو الذى يبقى . والذى يبلى سلاحه هوالذى يفنى . واذا كان الحيوان ينتقل من مكان فى الصيف الى مكان آخر فى الشتاء ، أو العكس فهو يختار الجو المناسب لحياته . . فالانسان يختار ظروفه المواتية له . . ولكن الطبيعة كلها تختار الحيوان الانسب . والانسان الاقوى . فالاختيار الطبيعى هو اختيار الأحسن . والاحسن هو الاقوى والاقدر على أن يتكيف ويتوام وأن يتلاءم ويتطابق مع ظروف حياته المادية والاجتماعية .

انتهى تفكير داروين بعد أن حشد له الوف الأمثلة من ملاحظاته الدقيقة جدا التى استغرقت أكثر من عشرين عاما !

وقد ارسل داروين خطابا لصديق له يقول : فى يوم وانا انظر الى القمر يتوارى وراء السحب جاءتنى هذه الفكرة وكأنها صاعقة لمعت فى راسى وهزتنى . واندهشت كيف أننى لم اعرفها من قبل . لقد ادركت بوضوح ان الحيوانات لا يمكن أن تكون من أصل واحد ثابت . لا يمكن أن تكون قد قطعت ملايين السنين من الغابات والجبال تحت المطر فوق الجليد ، وفى الكهوف على السفوح فى حرب مستمرة ، دون أن يتغير فيها مخالبها أو انيابها أو اظافرها أو فراءها . . مستحيل . هذا ما اهتديت اليه !

ولم يتصور داروين لحظة واحدة انه بهذه العبارات المتواضعة

قد زلزل العلم والدين .. فالعلم لم يكن يرى شيئا من ذلك . وانما يرى العلماء أن القرد أصله قرد .. أما الدين فيرى أن القرد أصله قرد ، وأن الانسان أصله آدم وحواء .. ولا علاقة بين القرود والآدميين !

وفى يوم كان داروين يتناول طعام افطاره عندما دخل الخادم بخطاب .. فتح الخطاب . انتفض واقفا واجما . ثم ألقى بنفسه على المقعد حزينا .. ولكن لم يستمر كذلك كثيرا . فقد أدرك أن حياته كلها فى خطر . وأن سنوات بحثه وملاحظته كلها توشك أن تأكلها نيران المدفأة أمامه .. فالخطاب يقول له : أن رجلا اسمه والاس يعيش هنا فى جزيرة الملايو . الرجل عالم جليل فقير . مريض .. لقد حبسته الملاريا من أن يواصل رحلته الى أوروبا . هذا الرجل يتاجر فى الفراشات النادرة . ويبيع الحيوانات الجميلة لعدد كبير من الهواة والباحثين فى أوروبا كلها .. فهو قد أرسل أكثر من عشرين ألف نوع من الفراش والطيور الى الهيئات العلمية . وهو يعيش من الصيد والتجارة . ولكن من المؤكد أن لديه كل مزايا العالم الكبير .. وقد هداه البحث الى شىء جديد .. والرجل يقول أن أساس كل شىء فى الحياة الانسانية والحيوانية هو التطور . وأن الحيوانات تكافح من أجل أن تبقى . والحيوانات التى تبقى هى الأقوى ..

وكلام آخر كثير هو بالحرف الواحد ما قاله داروين !

ومن الغريب أن الرجلين قد خرجا بهذه الأفكار بعد أن قرأ كل منهما ما كتبه القس الانجليزى مالثوس عن تزايد السكان الذى سوف يؤدى الى جوع الانسان وفنائه . وكل واحد من الرجلين قد ذهب فى طريق ليصل الى نفس النتيجة !

وليس هـــذا هو الحادث الأول من نوعه فى التـــاريخ . فكثيرا ما اهتدى العلماء الى نظريات واحدة فى وقت واحد ، دون أن تكون بينهما صلة ما .. فقبلهما بمائتى سنه اهتدى العـــالم الانجليزى نيوتن والفيلسوف الالمانى ليبنتس الى منهج فى الرياضيات واحد .. والى نظريات فى «التفاضل والتكامل» متطابقة تماما . وسارع كل منهما باعلان نظريته الجديدة .. فكانت النظرية هى هى عند كل من الاثنين .

واهتدى داروين الى حل سعيد حتى لا يتهم الرجل الآخر بانه سرق افكاره . وحتى لا يتهمه والاس بانه هو الذى سرقه . فقرر داروين ان ينشر كتابه الذى الفه فى ٢٣١ صفحة على نفس البحث الذى كتبه والاس هذا . ونشر الكتابان معا . ولكن قـــدر لداروين ان يكون هو صاحب الاسم وصاحب النظرية وصاحب الثورة ايضا .. ولم تساعد الظروف والاس هذا ، فقد كان فقيرا وكان بعيدا، عن لندن . ولم يكن لديه هذا الصبر على المتابعة .. ولذلك اصـــبح داروين هو صاحب نظرية التطور أو التطور نفسه اما والاس فهو « الصـــدفة » .. أو هو من عجائب الصـــدف . ودخـــل تاريخ التطور الانســــانى على أنه نكتة : اذ كيف ان رجـــلا مريضـــا فى احدى جزر الملايو يهلوس طـــول الليل ويمســـك القلم ويدفعه أمامه على الورق طالعا نازلا كأنه ثعبان يهتدى الى افكار رجل آخر فى لندن مريض ايضا يظل يهرش طول الليل حتى يسيل دمه ، تماما كما كان يفعل نابليون .. ربما وجد علماء الدراسات الروحية فرصة عظيمة ليقولوا : انالرجل المريض كان فىحالة شفافية جعلتهيقرا افكار داروين وينقلها حرفا حرفا .. بل سطرا سطرا .. مع أن المسافة بينهما عشرات الالوف من الاميال .. ثم أن الرجلين لايعرف احدهما الآخر !

شيء عريب هذا الذى حدث .. فعندما كان الانسان فى أوائل القرن التاسع عشر يفخر بانه اخترع الآلة . وانهذه الالةقداغنته عن الحصان والحمار ، جاء علم الحياة وعلم السلالات يؤكد ان الحيوان هو أصل الانسان . فاذا كانت العلوم الميكانيكية تريد ان تفخر بانها نقلت الانسان من عصر الاعتماد على سيقان الخيول وأعناق الأبقار وظهور البغال ، فان علوم الحياة قد أعادت الحيوانات الى مجدها .. بل انها هبطت بالانسان الى ما دون الحيوان .. بل انه ليس الا حلقة فى سلسلة تطورات الحيوان .. وانه ليس بعيدا أن تنظر الأجيال القادمة الى الانسان على انه حمار او حصان .. وذلك عندما يتطور الانسان الى كائن آخر افضل .. المهم فى نظرية داروين انها حركت كل شيء ودفعته الى الامـــام .. او جعلت من الواجب أن يندفع الى الأمام .. لأن الذى لا يتحول يتجمد . والذى لا يتطور يتدهور والذى لا يتقدم يموت .. وان هذه ليست ميزة خاصة بالانسان ، وانما الحيوان قد سبقه الى ذلك . فلا فضل كبيرا للانسان على الحيوان .. أما الآلة فهى من اختراع الانسان .. والالة ابســط واتفه من اى حيوان .. فالحيــوان تحفة فى الخلق . وهـــذا ما ذهب اليــه رجال الدين ، الذين حاولوا ان يجدوا لهم مكانا جـــديدا تحت شمس هـــذه النظرية . فاذا كان داروين قد هدم مفهوم الكتب المقدسة لأصل الانسان ، فان رجال الدين بسرعة قد استفادوا من النظرية الجـــديدة وتكيفوا معهـــا حتى لا يتصلب الدين ورجال الدين ويفوتهم قطار التطور .. ولذلك كان رجال الدين أول من قفز الى القطار الجديد وركبوه حتى لاتضيع من تحتهم ومن أيديهم أهم أسرار الكون .

ولما توفى داروين يوم ١٩ ابريل سنة ١٨٨٢ اعلن رجال الدين أن

هذا الشيطان يجب الا يدفن فى مقابر العظماء . ومن الخير له وللشعب الانجليزى ان ينفذ ما اوصى به وهو ان يدفن فى حديقة قصره الريفى . .
ولكن سرعان ما عدل رجال الدين عن هذا الموقف الجامد ورحبوا بان يدفن الى جوار عظيم آخر هو نيوتن . . فكلاهما عظيم فى الحياة وفى الممات وكلاهما خطوتان فى تطور علوم الطبيعة والحياة ! .



خلقها الله بعناية لتقضي علينا بإتقان!

* المواصلات الحديثة قربت المسافات بين المدن والدول والقارات . وأصبح من السهل ان يتحرك الانسان وان ينقل امراضه من مكان الى مكان بنفس السرعة .. فالانسان يركب السيارة والباخرة وينقل معه ميكروبات او حشرات تحمل الميكروبات والموت الى اى مكان . مثلا فى القرن السابع عشر انتقل مرض اسمه (الجمرة المخية) وهو مرض يصيب كل الحيوانات ، وينتقل الى الانسان . اسمه باليونانية انثراكس . والتسمية دقيقة . ولذلك ترجمه الالمان بانه (الفحم) والفرنسيون وصفوه بانه الكاربون .

لأن المرض عبارة عن احتراق داخلى للحيوان . ولم يعرف أحد كيف ينتقل من حيوان الى انسان أو العكس . قالوا : انه عفريت يركب الانسان والحيوان ويشعل فيه النار من داخله. قالوا : لعنة من السماء حلت بالانسان فنقلها الى الحيوان . وقالوا : غضب الهى على الاثنين ..

ولكن الاطباء عندما نظروا تحت الميكروسكوب وجدوا ميكروبات على شكل عصى .. ووجدوها فى الطحال . ولم يذهب احدا الى ابعد من ذلك .. حتى ظهر عـــالم المانى مجهول كان يعمـــل فى غرفة ضيقة جدا فى برلين .. هذا الرجل اسمه روبرت كوخ عبقرية فذة فى الفهم والصبر وبعد النظر . وفى سنة ١٨٧٦ عرف كوخ اشـــياء كثيرة واكدها بهدوء . وظل كوخ هذا يطارد الميكروبات فى أمعاء المصريين ومعدة الهنود وبراغيث اليابانيين وبعوض الأمريكيين .. وعرف الدوسنتريا ، وعـــرف الحمى الصـــفراء وعرف التيفوس والملاريا .. وكان كوخ هذا رجلا حكيما وكان يقول : ان هذه الكائنات الصغيرة تحدثنى بعبارات دقيقة جدا .. وانا احاول ان اسمعها بوضوح . وانا اؤمن بانها لا تكذب . بل اننى اعتمد على ذلك كل الاعتماد . ولهذا سوف أصل الى شىء ..

ومن الاكتشافات التى أذهلت كوخ هذا انه عندما وصـــل الى اواسط افريقيا اكتشف ان ذبابة « تسى‌تسى » التى تصيب بالنـــوم حتى الموت كل من تلسعه ، بها دم تمساح . وبعد ذلك اكتشف أن التمســاح هو اكبر خزان لميكروبات النوم ، وان لديه مناعة تامة ضد الاصابة بهذا المرض . واعجب من ذلك انه عثر على تماسيح لاتنام الا نادرا !

***

واهتدى كوخ ايضـا الى ان فئران السفن هى التى تنقل الأوبئة من بلد الى بلد ..

فالفئران السوداء جاءت من الشرق فى ســـفن الصليبيين ..

فكأن أوروبا قد لقيت ما تستحقه من عقاب .. جاءت تنشر الموت والتعصب ، وعادت سفنها مليئة بالفئران تنشر فيها الطاعون والاوبئة التى اكلت عشرات الملايين من الناس ـــ الكوليرا مثلا !

ثم جاء الفأر البنى اللون ..

ففى سنة ١٧٣٢ وقع زلزال عنيف .. وفزعت ملايين الفئران واتجهت الى احد ضفاف نهر الفولجا عند مدينة أستراخان .. ولأسباب لا نعرفها الآن بوضوح قررت الهجرة .. وعبرت النهر وغرق منها مليون فأر على الأقل .. ولكن بقية الفئران وصلت الى الشاطىء . وواصلت زحفها الى الجنوب الى أوكرانيا .. ثم الى الغرب الى بولندا . ثم الى بوهميا .. ثم الى الشمال قليلا الى بروسيا .. حتى وصلتها فى سنة ١٧٤٠ .

وفى سنة ١٧٥٣ وقفت عند أبواب باريس ودخلت .. وتكاثرت بسرعة ..

ووصل الفأر البنى الى أمريكا فى سنة ١٨٥١ .. واحتل بجدارة المكان المتواضع الذى شغله الفأر الأسود وراح ينقل بهمة ونشاط أمراض التيفوس وكثيرا جدا من أمراض الفم والقدمين ..

* * *

الى جانب شخصية العالم الألمانى روبرت كوخ ظهرت شخصية استولت على القارة الأوروبية كلها : باستور .. ذلك العالم

الفرنسي النحيف المشلول احدى الساقين .. هذا الرجل لم يكن الناس ينظرون اليه على انه طبيب او باحث وانما على انه رجل دين يعالج الناس بالمعجزة . فهو انسان طيب . أو رجل مبارك . وهو نفسه كان يعتمد على احساس داخلى بأنه سوف ينجح .. وأنه سوف يشفى المرضى باذن الله . لماذا ؟ لا يعرف ! كيف ؟ لا يعرف . ولكن هذا يحدث له ومعه وبسببه كثيرا جدا .

هذا الرجل هو من ذلك الطراز من الناس الذى لا يخاف الناس .. أى لايخاف أن تكون له افكار خاصة مختلفة عن افكار الناس .. وان له احلاما اخرى يكذبها الواقع . ولكنه وحده الذى يصدقها .. انها حياة قاسية جدا : أن يكون الانسان وحده مع افكاره . أو أن يكون الانسان مثل خرستوف كولمبوس وكل الناس يسخرون منه ولكنه مؤمن بأنه على حق .. او مثل نوح عليه السلام يبنى سفينة على الأرض .والناس يمرون به ضاحكين.ولكن نوح كان يؤمن بأن السماء سوف تمطر وأن الطوفان سيجتاح كل الناس وسوف ينجو هو باهله من الغرق .. وعلى الرغم من أن نوحا هذا قد أنقذ الناس والحيوانات ، فانه لم يفلح فى أن يقنع ابنه بأن يركب معه .. فنجا الناس وغرق ابنه .. وكذلك العالم الكبير باستور ألذى عالج الكثيرين من الناس وشفاهم ، لم يفلح فى علاج اقرب الاقربين اليه .. وماتوا .. ولكن الملايين شفاهم او انقذهم قبل أن يصيبهم مرض .

واستطاع باستور ومعهده أن يحتفظا بهذه السمعة العالمية المحترمة .. من أواخر القرن التاسع عشر حتى اليوم .. بل انه حدث اخيرا جدا أن أصيب بالتسمم بعض زبائن مطعم فى مدينة

لابلاتا بالأرجنتين . مات منهم عشرون . فارسلوا عينات من الطعام ومن المصابين الى معهد باستور فى باريس . وبسرعة جاء عدد من العلماء . وانقذ مئات آخرين . . وحدث ايضا ان انتشرت الحمى البابونية فى احدى مزارع قصب السكر فى جزيرة مدغشقر (جمهورية مالاجشى) . وبسرعة طار عدد من أطباء المعهد واوقفوا سريان الطاعون بين المواطنين . اهم من ذلك ان العالم كله يتوقع من هذا المعهد ان يأتى بالمعجزات . .

ويمكن ان يقال أن ملايين الناس فى العالم اليوم احياء بسبب هذا المعهد الفرنسى الذى انشىء سنة ١٨٨٨ . ويوم انشائه وقف باستور نفسه يتساند على واحد من أولاده ويبكى من شدة التأثر . . وقد حرص باستور على أن يكون هذا المعهد اهليا مستقلا . . وقد شارك فى بناء هذا المعهد بأمواله : أطفال من الهند وتلامذة من الصين ومرضى فى أمريكا . . وملوك واباطرة . . وظل هــذا المعهد هيئة علمية مستقلة تماما . .

* * *

أما الاحداث التى يذكرها العالم لهذا الرجل العظيم باستور فلا عدد لها . . ولكن الرجل كان يؤمن بأن هناك كائنات صغيرة جدا . . هــذه الكائنات ـــ البكتريا ـــ هى مصــــدر الشر والخير للانسان . بعض هذه الكائنات تضره وتنقل اليه المرض . وبعضـها تنفعه وتقوم بعمليات التخمر فى الطعام والمشروبات . . وهو يؤمن بأن بعض هذه الكائنات اذا ارتفعت درجة حرارتها ماتت . وبعضها اذا جعلناه ضعيفا ، وحقنا به انسانا مريضا فانها تلهب حماس القوى الداخلية فى الجسم الانسانى ليقاوم المرض الثقيل . .

ونحن عندما نقول ان اللبن « مبستر » أى أننا قد بردناه ثم سخناه ، كما كان يفعل باستور . وبذلك ماتت الميكروبات وأنقذنا حياة مئات الملايين من الأطفال فى العالم من الاصابة بالسل !

ومن المواقف الحاسمة فى تاريخ باستور وفى تاريخ العالم كله أيضا :

انتشار مرض الكلب — بفتح الكاف وكسر اللام . فالتاريخ لا يذكر لنا الا حالة واحدة فقط أصيب فيها انسان بهذا المرض ثم قدر له ان يعيش لأن كل المصابين ماتوا ، وكان لابد أن يموتوا ..

حتى كان ذلك اليوم الحاسم فى التاريخ .. انه يوم « ٦ يوليو الرائع » سنة ١٨٨٥ . جاء طفل فى السادسة من عمره .. الطفل اسمه يوسف ميستر . مهم جدا هذا الطفل . وهذا الاسم . الطفل قد عضه كلب مريض أربع عشرة مرة فى أماكن مختلفة من جسمه .. وكانت محنة . فباستور لا يعرف ما الذى يعمله . ان هو عالج الطفل ومات شمتت فيه أعداؤه وقالوا : قاتل .. ألم نقل لكم من وقت طويل ؟ ..

واذا لم يعالجه كان فشله أوسع انتشارا من نجاحه .

ولكنها العبقرية هى التى ألهمته أن يحقنه اربع عشرة مرة .. لماذا هذا الرقم ؟ لا يدرى . ولكنه الرقم الذى يتم عنده الشفاء .. وشفى الطفل . وانتشر هذا الخبر فى أوروبا كلها على أنه معجزة المعجزات .. وشاء باستور أن يجعل هذا الطفل اعلانا حيا لنجاحه

.. فجعله بوابا للمعهد .. بل انه بعد وفاة هذا البواب ، اقاموا له تمثالا — وما يزال — فى مدخل المعهد كاكبر نجاح حققه باستور لنفسه وللعالم كله ..

وبعد ذلك جاءه من روسيا ثلاثون فلاحا عضتهم ذئاب مسعورة .. جاءوا الى باريس ولا يعرفون من اللغة الفرنسية الا كلمة واحدة : باستور .. وعالجهم وانقذ من الموت عشرين واحدا منهم .. أما سبب وفاة الآخرين فلأن الذئاب قد عضتهم قبل ثلاثة اسابيع . وقد جاءوا اليه متأخرين .

والوف آخرون من كل أوروبا جاءوا الى باستور يطلبون علاجا لأمراض أخرى لا يعرفها.ولكنه تمنى ذلك وتمنى لهذا المعهد الذى انشىء حديثا أن يكون أملا لكل المرضى . والا يرد مريضا .. ولا يخيب املا فى الشفاء .. وهذا المعهد يعيش على الامصال التىيبتكرها ويصنعها ويبيعها للعالم كله لحقن المرضى . .وسلامتهم بعد ذلك ..

يقال ان مريضا سأل باستور : كيف عرفت طريقك الى هذه الكائنات الصغيرة ؟

فأجاب : انا لم أعرف طريقها ، هى التى عرفت طريقى ... واعترضتنى وعطلتنى .

— كيف ؟

ـــ انها اصابتني بالشلل في احدى ساقي .. ولا أعرف أن كنت سوف أعيش لاجد علاجا للذين اصيبوا .. أو لاجد وقاية للملايين حتى لا يصابوا ..

ـــ ولكنك انقذت الملايين ..

ـــ هذا رقم كبير ..

ـــ فعلا أنقذت الملايين ..

ولكن هناك ملايين آخرين يجب انقاذهم .. ملايين لم يولدوا بعد .. هذا هو الذي يشغلني !

وقبل باستور سئل العالم الالماني العظيم روبرت كوخ عندما جاء الى مصر في أواخر القرن التاسع عشر :

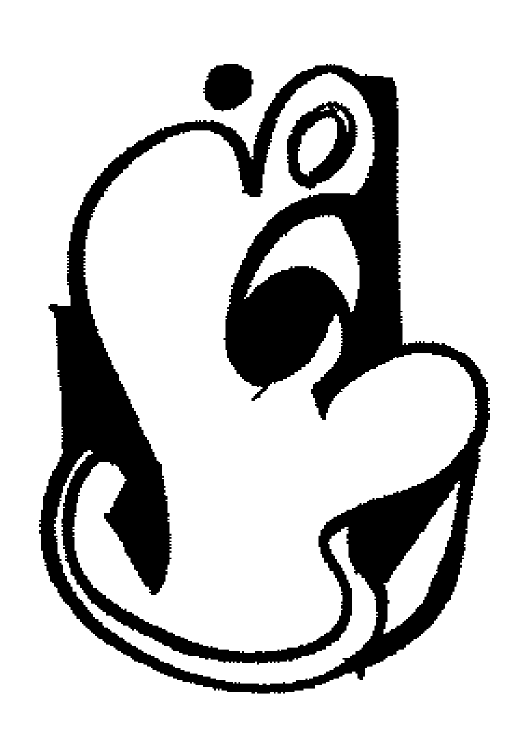
ـــ يا دكتور كوخ أنت مكتشف عظيم فضحك ليقول : مكتشف عظيم لكائنات حقيرة .

ـــ هل ترى انها حقيرة فعلا ؟

ـــ لاشيء حقيرا في هذا الكون فكل شيء خلقه الله بعناية ليؤدي دوره بمنتهى الاتقان .. آه لو رأيت هذه الميكروبات كيف تعمل على اداء مهمتها .. كيف تدافع عن نفسها .. كيف تتسلل الى الجسم الانساني وتتحصن .. ان نشاطها وتماسكها ونظامها يحسدها عليه كل المهندسين والعسكريين .. ولكنها كائنات ضارة .. وهي

فى نفس الوقت كائنات لها نظام عجيب يبعث على الدهشة والايمان بعظمة الله .. صحيح انها ضارة جدا ولكنها اجهزة دقيقة جدا .. وهذا هو الذى يبهرنى .. ولذلك احاول دائما ان اهرب من الوقوع فى اسرها .. واتوقف بسرعة عن الاعجاب بها الى العمل على الوقاية منها ..

.. وكانت بداية رائعة الحرب ضد الكائنات الصغيرة جدا من اجل القضاء على بقية الكائنات !



هذه الكائنات الناخرة
في عظمة الجيوش

جمع الملك لويس الخامس عشر رجاله وتلفت اليهم يقول : ماذا يجب ان نكتب في هذه الرسالة ليعرف عدونا روح الشعب الفرنسي . واختلف الرجال حول الملك .. كل واحد يقول عبارة تليق بعظمة فرنسا ولكن الملك راى شيئا آخر .. واشار بيــده . وجاء رجل وقال له : هذه العبارة انقشها على مدفعي .

وضحك الرجال حول الملك . وكأنما أراد الملك ان يحرجهم جميعا . متسائل : ماذا تقولون ؟ ولم يقل أحد . وقال الملك : انقش هذه العبارة على مدفعي : اقفلت باب المناقشة وفتحت النار !

ثم جاءت الجمعية الوطنية الفرنسية يوم ١٩ اغسطس سنة ١٧٩٠ ومسحت هذه العبارة !

ولكن مثل هذا النقاش بقى دائرا دائما فى كل مكان : هل هى الحرب ؟ هل هو السلام ؟ ايهما الوسيلة لاقناع الآخرين ..

او ارغامهم على الاقتناع والنتيجة : موت عشرات الالوف . مئات الملايين من الناس فى كل العصور !

ولكن لماذا الحرب ؟

قبل ان تجيب على هذا السؤال بالنيابة عن شعبك ، أسأل : لماذا الحرب بينك وبين الناس . فماذا وصلت الى نتيجة فاضربها فى عدد سكان شعبك والشعوب الاخرى . والنتيجة مقنعة لانها هى الجواب الصحيح !

* * *

ولكن هل هذا هو نوع الحرب الوحيد الذى عرفه الانسان ! الجواب طبعا : لا ... فهناك حروب من نوع آخر .. حروب بلا جيوش ولا اسلحة ولا نار ولا شرار ولا خطب ولا زعماء ، ولا نياشين ولا انواط .. حروب أقوى من كل الحروب ، بل هى الحروب التى اوقفت الحروب واعادت الجيوش من منتصف الطريق .. ولم يجد الانسان وسيلة واحدة لايقافها .. هـذه الحروب هى حروب الانسان ضد قوى طاغية باغية جبارة .. ضد الميكروبات والحشرات والحيوانـات التى تنقل الميكروبـات الى طعام الانسـان وشرابه وملابسـه وتقهره فى معركة غير متكافئة الميكروبات هى الأقوى دائما ..

ومن اقدم العصور يحدثنا مؤرخ الاغريق هيرودوت أن الملك الفارسى اكزركيس دخل منطقة تساليا بجيش من ۸۰۰ الف رجل .. ونفدت الذخيرة ثم جاء الجوع فأسقط رجاله ضـحية لمرض لا يعرفونه .. فمات من رجاله نصف مليون جندى .. وعاد الملك كسير الرأس الى بلاده !

اما قوات اثينا ، فقد هاجمها المرض ، واطاح بجيشها وارقده على الارض . وداست الجيوش بعضها البعض .. ومات الف فارس واربعون الفا من الجنود .

وفى عام ٤١٤ قبل الميلاد حاصرت قوات قرطاجنة مدينة سرقوسة واكتسحتها الاوبئة وانحسرت المعارك قبل ان تبدأ .

ولا أحد يعرف مصير روما والحروف البونية لو وجد القائد هانيبال قواته فى صقلية كما تركها قوية ولم يستبد بها المرض .

ثم الحروب الاهلية فى روما سنة ٨٨ ق.م وانتصار ماريوس المؤكد قد اضاعه انتشار مرض لا يعرفون اسمه فى ذلك الوقت وقضى على عشرين الفا من رجاله .

وفى عام ٤٢٥ ميلادية تقدمت جيوش الهون الى القسطنطينية .. ولكن وباء استشرى بينها فعادت الى قواعدها فى وسط أوربا .

اما الحروب الصليبية فهى نموذج صارخ لما يفعله مرض الاسقربوط الذى يجىء عن نقص فى التغذية وحاجة الجسم الى الفيتامينات ، وضعف الجسم وعجزه من مقاومة اى مرض دخيل ففى ١٠٩٨ زحفت الجيوش الصليبية فى اتجاه الاراضى المقدسة ، وزحف الجوع وسوء التغذية فى الاتجاه الآخر . وكانت هذه الجيوش تضم سبعة آلاف من الفرسان ، مات منهم خمسة آلاف .

وبعد أيام من الزحف على القدس سنة ١٠٩٩ لم يبق من

الجيش الذى يتكون من نصف مليون سوى ستين الفا .. وفى سنة ١١٠١ أصبح عدد القوات الصليبية عشرين الفا .. عادوا حفاة عراة يركبون الأبقار والحمير الى أوربا !

وفى الحملة الصليبية الثانيـــة التى قادها ملك فرنسا لويس السابع كان من نصيبها أن تلقى نفس النهاية . ولم يبق من جيش يضم نصف مليون سوى ثلاثين الفا !

وحدث شىء آخر فى سنة ١١٩٠ أن جاء مرشد تركى وســـارت القوات الصـــليبية وراءه ، واذا بالرجل يستدرجهم جميعا الى الصحراء حيث الجوع والعطش ومرض الاسقربوط ، مات مائتا الف ، أما الباقون فعاشوا نصف أحيـــاء .. ومات الكثير منهم فى الطريق حتى عبروا الدردنيل بقايا بشر !

وحدث أيضا ان الامبراطور الألمانى فريدريش الثانى قد غادر باسطوله ميناء برنديزى الايطالى ، فى طريقه الى بيت المقدس .. ولكن فى احدى ليالى ١٢٢٧ احس الامبراطور بآلام شديدة واسهال دموى . لقـــد أصـــيب الامبراطور بالدوسنتاريا وجـــاء طبيب الامبراطور .. ما الذى يصنعه ؟ ولكن بعد ساعات أصيب أحـــد الضباط .. ومئات الضباط والوف الجنود وعاد الملك وجيوشـــه من عرض البحر !

والاسقربوط ليس مرضا معديا ، ولكن من أمراض الحروب ! وخصوصا القوات المحاصرة والقوات الزاحفة وقتا طويلا .. وقد أهلك ملايين الجنود فى التاريخ .. وهذا المرض ليس خطيرا فى ذاته فقط ، ولكنه صديق لجميع الأمراض الاخرى . فهو يساعدها

على التسلل الى الاجسام ويضعف مقاومتها .. ويجعل اقامتها أيسر .. حتى الموت !

وفى الجمعة الأولى من سنة ١٢٥٠ اعلن القديس لويس ملك فرنسا ، ان قواته تصاب باشياء غريبة . وفسر ذلك بان رائحة الجثث هي السبب . وان الديدان التى تاكل جثث القتلى فى الانهار ، هى التى تؤدى الى انتشار الأمراض بينها . أما المرض فهو الاسقربوط طبعا . وكان يجفف جلد البشرة والساق .. ويجفف الحلق والشفتين واللثة .. وكان الحلاقون يزيلون هذا الجلد الميت بالسكين حتى يتمكن الجنود من تناول الطعام والشراب . وكان الجنود يصرخون كالاطفال . ولكن لا تفسير علميا لذلك وانسحبت جيوش القديس لويس . ولم يكد يصل الى تونس حتى مات يوم ٣ اغسطس سنة ١٢٧٠ ومات ابنه يوم ٢٧ اغسطس .. وكانت آخر كلمات القديس لويس : هؤلاء الكفرة الوثنيون قد استخدموا ضدنا أسلحة لا نعرفها — أما الكفرة الوثنيون — الذين يقصدهم فهم المسلمون !

أما القوات الرومانية فقد أحرقت معسكراتها كلها يوم ٦ اغسطس سنة ١١٦٧ لماذا .. يقول طبيب الحملة نفسه . أصيب الجنود بارتفاع فى درجة الحرارة ورعشة وهذيان وآلام شديدة فى الظهر والساقين والبطن . وهذا التشخيص دقيق .. أما المرض فهو التيفوس !

وهو من أخطر الامراض واشدها فتكا بالجيوش فى العصور القديمة !

***

ويمكن أن نسجل الصراع بين فرنسا واسبانيا فى كل العصور القديمة بأنه صراع بين المرض والصحة . وأنه فى كل مرة تزحف القوات يعود بهسا المرض . وكان المرض أو الميكروب هو الذى يحدد اتجاه الجيوش ويلوى مسارها وانكسارها والملك الفرنسى فيليب الثالث عاد من حملته على أسبانيا سنة ١٢٨٥ . فقد هزم الوباء جيش الملك وقضى على الملك نفسه !

وربما انفردت الحروب بين أسبانيا وفرنسسا بانتشار مرض واحد هـــو التيفوس ، وهو يجيء من القمل الموجــود فى ملابس المتحاربين !

وفى أول اكتوبر سنة ١٤٣٩ وصل الامبراطور الالمانى البرشت الى مشارف بغداد . وفى يوم ١٣ من نفس الشـــهر انســـحب الامبراطور والجنود . فقـــد أقعدتهم الدوسنتاريا عن مواصــــلة السير أو استئناف القتال !

اما الملك شارل الثامن ملك فرنسا وهو يحاصر نابولى الايطالية فقد اصـــدر قراره بالعودة . ولم يكن فى حاجة الى أن يشرح السبب ، فقد أصيب هو وألوف من جنوده بمرض الزهرى !

وعندما حاصر الملك شـــارل الخامس ملك فرنسا مدينة متس الالمانية تراخى الحصار فقد أصيب هو وثلاثون ألفا من جنوده بالدوسنتاريا .

اما الامبراطور الالمانى ماكسيميليان الثانى فقد فقد جيشا من مائة ألف جندى كان موجها ضد السلطان سليمان . وكان فى نية الامبراطور ان يزحف على المجر ولكن حدث شيء سنة ١٥٦٦ جعل الامبراطور يعدل عن قراره .. فقد دبت المعارك بين القوات ..

وسحب كل واحد سلاحه على الآخر : سخونة وهذيان . فالجنود قد أصابهم التيفوس وعدل الامبراطور عن الحرب !

أما حروب الثلاثين عاما فى أوربا ، فقد تميزت بسيادة التيفوس على كل المتحاربين . بل أن القوات الالمانية قد زحفت من اتجاهين على مدينة نورمبرج فى سنة ١٦٣٢ ، ودون اتفاق بين الطرفين انسحبت الجيوش من هنا وهنـــاك . والسبب : الاسقربوط ، والتيفوس والدوسنتاريا .

والملك الانجليزى تشــــارلز الاول كان فى نيته أن يزحف على لندن . وعارضه البرلمان . وتوقف بعض الوقت ، ثم توقف نهائيا بعد أن أصابه التيفوس . فتوقف عن الحركة تماما .

وعندما انتصرت قوات الامبراطور فريدريش الاكبر على قوات الامبراطورة ماريا تريزا النمساوية زحف على ولاية بوهيميا .. ولكن على غير ما توقع النمساويون ، عــــاد الامبراطور منسحبا أما السبب فيرويه لنا الدكتور لوكوف طبيب الامبراطور : لم يكن الامبراطور معتدل المزاج فى هذا اليوم ، كان عصبيا جدا ، وكان رجلا كافرا . ولا يؤمن بوجود اله أو معجزة أو أن الدعاء الى الســــماء من الممكن أن يحقق شــــيئا ما .. وكان الناس حول الامبراطور يصلون له . وكان الامبراطور عاقلا . فقد امتنع عن الطعام .وكان يحتفظ بأنواع من العقاقير جاءت اليه من الشرق ولابد أن أحدا قد نصحه بأن يتناولها كلما مرض . وتناول الذى لا أعرفه . وشفى الامبراطور من الدوسنتاريا .. ولكن الالوف من جنوده قد خلعوا ملابسهم وتفرقوا فى الغابات بسبب الاسهال الدموى الشديد .. وقرر الامبراطور وهو حزين تماما أن نجمع اشياءنا ونعود . ولا داعى للحرب !

وقد لعبت الدوسنتاريا دورا هائلا في انقاذ الثورة الفرنسية ــ هكذا يقول الطبيب الساخر الممتع هانس تسنسر في كتابه «الفئران والقمل والتاريخ» . يقول : في سنة ١٧٩٢ قرر الامبراطور فريدريش فلهلم الثاني اعداد جيش من خمسين الفا للزحف على قوات الثورة الفرنسية والقضاء عليها . وراجع الامبراطور الخطة مع قواده .. وسألهم ان كان النصر مؤكدا . قالوا : نحن متحدون وهم متفرقون . نحن أقوياء وهم فلاسفة ..

وقرر الامبراطور الزحف . وتقدمت القوات . ولكن فجأة تفرقت القوات كل جندي في مكان .. وكان الجنود يسابقون الضباط في البحث عن مكان يتوارون فيه . فقد اذابتهم الدوسنتاريا .. وكان منظرا غريبا عجيبا .. كل هذه القوات قد تدلت على شواطيء الراين تعاني من آلام هذا المرض المفاجيء !

وفي سنة ١٨٠١ ارسل نابليون قائده الجنرال لكلارك ومعه ٢٥ الف جندي لاخماد ثورة نشبت في هايتي . ونزلت القوات الفرنسية الى شواطيء الجزيرة . وتراجعت امامها القوات الزنجية . ثم تقدمت الحمى الصفراء تحصد الفرنسيين وقتلت منهم ٢٢ الفا .. ولم يبق حتى من هذا العدد سوى ثلاثة آلاف فرنسي عادوا الى فرنسا سنة ١٨٠٣ !

يقول كوركوف طبيب نابليون : لو كان نابليون قد توقف بعض الوقت في بولندا . واعاد تنظيم قواته . وراعى الاجراءات الصحية ما كان هذا مصيره أمام موسكو . ان المرض قد هزمه قبل الجليد وقبل القوات الروسية . المرض اولا . والجليد ثانيا والارهاق ثالثا والروس رابعا .

يقول كوركوف ايضا : لقد انسحب نابليون من موسكو ومعه مائة الف جندي .. اما الباقي فموتى ومرضى ومتجمدون وقتلى .

اما المريشال الفرنسي ناى فقد امره نابليون بان يصمد .. وصمد الماريشال حتى لم يبق معه سوى عشرين جنديا وضابطا .. وهؤلاء الجنود ماتوا بالدوسنتاريا والتيفوس .. بل ان هؤلاء الجنود قد اكلوا جلود الاحذية .. واكلوا لحوم البشر .. كان الجندي ينكفىء على الجندي الاخر ويبحث في جسمه عن مكان لم يصب بشيء ويأكله .. ويرتمي الى جواره مسموما او مريضا . ثم ميتا بعد ذلك !

* * *

ان العلم الحديث قد كشف للانسان ان هناك كائنات اصغر منه واقوى منه .. ليس الحيوان الطيب هو الذي اجمل من الانسان واكثر فضيلة .. وهو الذي احق بالعناية والاحترام .. وانما هناك كائنات اصغر واحقر وافه مما يتصور .. هذه الكائنات الضئيلة هي التي قضت عليه وابادته وجعلته يشعر انه اصغر وافه .. وعلى ذلك يجب ان يتواضع الانسان قليلا او كثيرا .. فليس هو السيد المطاع الامر الناهي القادر على كل شيء .. او القادر على كل شيء الا شيئا واحدا : هذه الحشرات او هذه الميكروبات التي لا يدريها .. ويجب ان يتفرغ لها ، فهي لا تكف عن التكاثر والاتحاد دفاعا عن حياتها .. ويوم ينقرض الانسان سوف تكون هذه الكائنات وارثة للارض وما عليها ومن عليها !

لو خافنا الناس والكلاب نظرية!

أديبة فرنسا كوليت هى التى قالت : لو لم أكن انســـانا لتمنيت ان اكون حيوانا . ولمـــا سئلت : اى الحيوانات تختـــارين ؟ قالت : ان اكون قطة تلعب مع كلب فى قفص قرود على جبل الاسود . ولما سئلت مرة اخرى : ولـــكن لماذا ؟ قالت كوليت : فقط ان اعيش بغريزتى بلا خوف .. بلا حدود بلا سدود بلا تدخل من احد من رجال القانون او الدين .. من هـــذه الاكاذيب التى يســـميها الناس : حضـــارة الانسان ..

اننى لا أرى الانســـان اســـعد من الحيوان .. اننى لا أرى الطائرات اخف من الطيور .. اننى لا ارى الرجال اشـــجع من الاسود ولا اكرم منها .. اننى لا اصـــدق ان الانسان هو اجمل وأذكى وأقوى هـــذه المخلوقات على الارض .. اننى كلما عرفت الحيوان ازددت احتراما له ، واحتقارا للانسان .. اسعد لحظات عمرى هى التى اشعر اننى فيها مثل قطة أو مثل كلبة .. وأن كل

الذين حولى ليسوا من البشر .. ولذلك اجد سعادتى الكبرى فى أن اغمض عينى حتى لا ارى آدميا واحدا .. واعيش بخيالى مع مالا عدد له من الحيوانات .. اننى عندما افتح عينى أجد الانسان ، وعندما أطبقهما اجد الحيوان — ولذلك سعادتى الكبرى أن اقفل عينى والباب والنافذة واسحب الغطاء على راسى وأمــوء كالهرة السعيدة بانها تجردت من انسانيتها المزيفة ! » .

وكلام كثير آخر جميل تقوله كوليت التى الفت كتبا عناوينها : السلام عند الحيوانات .. كيكى اللذيــذة .. سبع محاورات مع الحيوانات ..

ولكن أحب الحيوانات الى كوليت : القطة .. لماذا ؟ لديها الكثير جدا الذى تقوله عن نعومة القطــة ونظافتها .. ورشـــاقتها .. وتسللها فى الليل دون أن يشعر بها احد .. كأنها فكرة أو كأنها شبح أو كأنها مرض .. أو كأنها شىء يطير دون ان تدركه جاذبية الارض ..

تقول كوليت ايضا : لا أعرف لماذا هم فى الشرق يعتقدون أن القطة لها سبعة أعمار .. وانها من الممكن أن تموت أكثر من مرة .. أو من الممكن ان تعيش أكثر من مرة .. ان القطــة — وهى شرقية الأصل — يجب أن تعيش مائة عمر .. فكل ما يحتاجه الانسان فى الدنيا ، هو أن يكون ناعم الحركة والملمسة والفكر .. لان تعاسة الانسان هى خشونته .. خشونة الكلمة والفعل !

* * *

وهذه القطط دخلت أوروبــا مع الحروب الصـــليبية . وكانت حيوانا غريبا . ولكن بسرعة عرف الاوروبيون فضائلها : انهــا

تهجم على الفئران تأكلها ويكفيها ذلك فخرا . وقد كانت عند الفراعنة حيوانا مقدسا . وكان العرب هم الذين نقلوها الى اوروبا والاسلام قد طلب من الناس الرحمة بالقطة بل ان الرسول عليه السلام يروى : أن امرأة دخلت النار بسبب قطة حبستها : لا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من فضلات الأرض .

ومع اكتشاف الميكروب وطرق العدوى بدأ الناس يخافون من القطط والكلاب أو من الكلاب فقط . لان القطة تنظف نفسها بلسانها فلا تترك ذرة تراب فى فروة جلدها . ولكن العلماء يؤكدون انه رغم هذه النظافة المؤكدة فانها تنقل الميكروب ايضا . بدأ الناس يشعرون بالخوف من القطط والكلاب ويحترسون فى معاملتها وفى الاقتراب من اظافرها وانيابها وفمها .. ورغم تحذيرات الاطباء فان الناس مضوا يحبون القطط والكلاب ويطعمونها ويقبلونها . واكثر الاطباء يحذرون من القبلات بين الرجال والنساء ويرون أن الفم اقل مكان فى الجسم كله نظافة وطهارة . وان العدوى مؤكدة من طريق الفم . فهل سمع الناس هذه النصيحة ؟ طبعا لم ولن يسمعوها . ويقول أطباء آخرون : (ان الفم يتغير طعمه ويصبح اللعاب قاتلا للميكروبات عند القبلات الحارة . وان القبلات التى تنقل الميكروبات هى الباردة التى لا احساس فيها) .

وليست كل القطط مفيدة : اى تقتل الفئران ، انها القطط الضالة اى أن القطط التى تفيد الانسان هى التى لاتستفيد من الانسان .

* * *

ولكن عرف الانسان ان القط حيوان نظيف ، ولكنه غبى وعنيد .. وليس مفيدا مثل الكلاب . فالكلاب يسهل عليها أن تتعلم . فتكون للحراسة وللصيد ولانقاذ الجرحى فى الحرب والسلام ..

وقد حصلت الكلاب على نياشين عسكرية . وصعدت تسفن الفضاء.

وعاش الناس الوف السنين يتغنون باخلاص الكلب لصاحبه ووفائه حتى الموت : فكثيرا ما عاشت الكلاب تحت أقدام أصحابها، حتى اذا مات الصاحب امتنع الكلب عن الطعام حتى الموت . وفى القرآن الكريم قصة أهل الكهف الذين ناموا فى كهفهم وظل كلبهم نائما بالباب اكثر من مائتى سنة ..

وكان نوم الكلب واسمه « قطمير » رمزا للوفاء الطويل،والانتظار الذى لا يعرف الملل !

وكان من عادة الناس فى الريف المصرى أن يكتبوا على خطاباتهم كلمة « قطمير » — حتى لا يضيع الخطاب !

حتى جاء عالم روسى اسمه بافلوف فجرد الكلاب من وفائها ونزع من السعادة الانسانية كلها حبها لاخلاص الكلاب .. أو حبها للاخلاص فى الكلاب . وخرج بنظرية تقول : لا الكلاب عندها اخلاص ولا الانسان عنده وفاء .. وانما كل ما هنالك مجموعة من الأفعال والأفعال المنعكسة المترابطة .. مثلا : اذا أتينا بالكلب وقدمنا له الطعام وفى نفس اللحظة رحنا ندق جرسا . فان لعاب الكلب يجرى مع رؤية الطعام وصوت الجرس .. واذا سمع صوت الجرس دون طعام فان لعابه يجرى .. وكل تصرفات الحيوان والانسان مثل هذا الكلب تماما .. فالكلب الذى يرى صاحبه فينام عند قدميه أو يأكل أو يشرب .. ويعتاد على ذلك ، فاذا تغيب الصاحب لسبب ما ، فان هذا الكلب لا يأكل ولا يشرب .. لا حبا ولا اخلاصا .. ولكن مجرد فعل ورد فعل .. فلا اخلاص ولا وفاء لا عند الناس ولا عند الكلاب !

ولكن الناس يرون فى الكلاب رغم ذلك ، اخلاصا وحبا وطاعة عمياء — يفتقدونها بين الناس !

* * *

واذا كانت اديبة فرنسا كوليت قد كتبت كثيرا عن الحيوانات فلا ينافسها الا اديب بلجيكا مترلنك الذى الف كتابا عن « حياة النحل » . وهو لا يقصد النحل بالذات .. ولكن ينظر الى الانسان من خلال النحل .. ويتمنى لو كان للانسان بعض مالدى النحل من حب واخلاص وصدق وتعاون وانكار للذات .. ولكن احدا لا يستطيع ان يالف النحل او يستانسه او يجعله طيعا مثل الكلاب .. ولذلك بقى النحل مثل كثير من الحشرات والحيوانات التى يراها ولا يقترب منها اى يعجب بها من بعيد ! .

واستفاد الانسان من طائر قديم واستخدمه فى نقل الرسائل من مكان الى مكان هذا الطائر هو « حمام الزاجل » وقد استخدم الفراعنة هذا الحمام .. واستخدمه الاغريق . ويقال ان البحارة الاغريق كانوا يطلقون هذا الحمام قبل نهاية الرحلة التى يقومون بها . ويعود الحمام الى مكانه وفى جناح كل منها او فى رجلها علامة وهذا معناه أن البحارة قد وصلوا فى سلام .. وفى ذلك الوقت لم يكن احد يعرف وضع الرسائل فى سيقان حمام الزاجل .

وبعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية توقف الاوروبيون . لاسباب غير معروفة الآن من استخدام حمام الزاجل الذى انتشر فى الشرق الاوسط . فقد كان خلفاء بغداد يسرفون فى استخدام حمام الزاجل . فلا يوجد قصر من قصور الخلفاء أو الولاة ليس به برج أو قفص . وكثيرا ما يكون قفص حمام الزاجل فى قاعةالاستقبال فى قصر الخليفة . وكثيرا ما تلقى الخليفة أو السلطان او الوالى

مفاجأة تهبط من السماء عليها ويفتحون رسالة الحرب أو السلام أو الحب ..

وفى سنة ١٥٩٠ عندما حاصر ملك فرنسا هنرى الرابع مدينة باريس ، لم يجد الفرنسيون وسيلة للافلات من هـذا الحصـار الا بحمام الزاجل يطلقونه فى سماء باريس يحمل الاخبار ويحمل اليهم الاخبار .. ويقال ان الانجليز قد استخدموا الصقور واطلقوها على الحمام ولكن الحمام اسرع فى الطيران ، وأكثر طاعة لغريزته ولكن الصقور لم يكن من السهل ترويضها أو التحكم فى طيرانها أو انقضاضها على حمام الزاجل .

ومن اشهر حوادث حمام الزاجـل فى القرن التاسـع عشر أن المليونير اليهودى روتشيلد كان يتابع معركة واترلو بين نابليـون وولنجتون . وارسلوا له اخبار المعركة عن طريق حمام الزاجل . ولم يكن احد يشك فى ان نابليون هو الذى سوف ينتصر . ولذلك هبطت اسعار البورصة . وتقدم روتشيلد واشترى كل الاسـهم لان الحمام نقل اليه ان ولنجتون الانجليزى هو الذى انتصر . وقد عرف روتشيلد هذه الانباء قبل ان تعرفها الحكومة البريطـانية . وارتفعت الاسهم وعاد روتشيلد وباع كل ما عنده . فكسب الملايين!

وفى سنة ١٨٤٠ استخدم الصحفى الالمانى رويتر حمام الزاجـل بين فرنسا وبلجيكا ، حيث لا توجد خطوط تلغرافية .

ورغم وجود الخطوط التلغرافية ظل استخدام حمام الزاجـل منتشرا بين الدول وقد ظهر حمام الزاجل بصورة واضحة جدا فى الحرب بين فرنسا وبروسيا سنة ١٨٧٠ . ومن أشهر الرسـائل التى عرفها المقاتلون فى ذلك الوقت ما بعث به مستشـار المانيـا بسمارك فقد ارسل رسالة مع حمامة لاحد قواده . الرسالة تقول: طبعا فهمت !

وواضح انه يخشى ان تقع هذه الرسالة فى يد الفرنسيين .ولكن القائد فهم ما يقصده بسمارك .. ولم يفهم احد غيرهما شيئا حتى اليوم !

وكان الفرنسيون يضعون حمام الزاجل فى بالونات . ويطلقون البالونات الى السماء . وبكل بالون قفص . ولا يكاد يرتفع البالون ويخرج من المناطق المحاصرة حتى يدفع الحمام باب القفص ويخرج. ويقال أن حمام الزاجل قد حمل أكثر من مليون رسالة الى اهل مائتى الف فرنسى .

وعيب حمام الزاجل ان نشاطه محدود . فهو يعود الى المكان الذى عاش فيه . والذى يحدث هو أن الناس ينقلون الحمام الى اى مكان ثم يطلقونه فاذا به يعود الى مكانه الاصلى ..

مهما كانت المسافة .. قد تكون الفا او عشرين الف كيلو متر .. ويستطيع حمام الزاجل أن يطير بسرعة خمسين ميلا فى الساعة ولا يتوقف عن الطيران حوالى العشرين ساعة ..

ولكن رجلا ايطاليا وجد حلا لهذا النشاط المحدود لحمام الزاجل فقد قرأ عبارة للشاعر الالمانى شيلر تقول : مالم يتمكن العقل من السيطرة على كل شىء ، فان الجوع والحب قادران على أن يتحكما فى تصرفات الناس !

قرأ رجل ايطالى اسمه مالاجولى هذه العبارة وكان يحب حمام الزاجل ففهمها على هذا النحو : ان تجويع حمام الزاجل هو الذى يجعله يطيع الاوامر .. وابعاده عن انثاه أيضا .

ولذلك لجأ مالاجولى الى حيلة .. فكان حمام الزاجل اذا هبط عنده اطعمه كثيرا .. ولكن أبعده عن الانثى أو عن الذكر حتى

لا يكون جنس .. ثم نقله الى مكان آخر حيث يكون الجنس .. وبعد التمرين اصبح حمام الزاجل بدلا من أن يهبط في مكان واحد ، فانه يهبط في مكانين .. وكان هذا هو أول تعديل في سلوك حمام الزاجل !

غير أن العلم الحديث لم يهتد الى تفسير واحد لسلوك حمام الزاجل . هناك راى يقول : ان الحمام يهتدى بجاذبية الارض .. وراى يقول بضوء النجوم .. وراى يقول انها ملوحة الهواء او الماء .. وراى يقول بأن هناك بوصلة في رأس حمام الزاجل يضبطها ذهابا وايابا .. ولكن لا يوجد تفسير واحد يقنع الجميع ..

وقبل أن تعلن الحرب العالمية الاولى بليلة واحدة كانت الجيوش تنظم حمام الزاجل وتكشف عليها وتطعمها .. تماما كما تفعل بقواتها المسلحة قبل دخول المعركة . وفي المانيا وحدها في ذلك الوقت ثلاثة آلاف جمعية لتربية حمام الزاجل ..

وحاول الكثيرون أن يلقنوا حمام الزاجل دروسا اخرى كما فعل الهاوى الايطالى مالاجولى .. ولكن لم يصلوا الى نتيجة معقولة .. ولكن رجلا ايطاليا آخر هو الذى الغى مهمة حمام الزاجل تماما . ذلك الرجل هو ماركونى الذى اكتشف الاتصالات اللاسلكية بين الدول .. ولم يعد هناك ما يخيف احدا او يعوقه .. فالعالم كله أصبح قريبا جدا .. ففى امكانك أن تتصل بأى مكان في نفس اللحظة وأنت جالس في بيتك !

* * *

ولا شك أن ذكاء القط اقل من ذكاء الكلب . وكلاهما محدود الذكاء . والقدرة على تعلم هذه الحيوانات محدودة ايضا . وحمام

الزاجل ليس ذكيا ولكنه ينطلق غريزيا وبصورة لا نجد لها تفسيرا علميا .

وربما كان الحصان أذكى هذه الحيوانات جميعا . فقد استطاع أحد النبلاء الالمان أن يجعل حصانا اسمه هانس أن يكتب بساقه الارقام .. او ان يعلمه الجمع والطرح والضرب ، فكان يكتب المئات بساقه اليسرى والعشرات بساقه اليمنى . ولم يحدث انه اخطأ قط ..

واستطاع النبيل الالماني فلهلم فون دوستن أن يجعل الحصان يكتب كلمات المانية طويلة ..

واستطاع ايضا أن يروض احد الخيول العربية على كتابة اللغة الالمانية بدقة . هذا الحصان اسمه « عربى » وكان عربى يخطىء فى كتابة بعض الحروف ويصر على ذلك . ولكنه كتب اكثر من مائة وخمسين كلمة المانية ..

وجاءت الحرب العالمية الثانية وشغلت الناس عن تلقين الخيول ان تتعلم أو تتكلم ..

* * *

ولكن اثر هذه الحيوانات وهذه الحشرات وهذه الميكروبات فى تاريخ الانسان طويل عريض .. ولكنه لم ينته بعد . وكل ما على الانسان فقط ان يسجل ما يحدث له بسببها ، وما يحدث لها بسببه .. ولكن فى ذهنه دائما انها هى الاقوى رغم ان احدا لا يصدق ذلك ، او لا يريد !

عندما أعلن موسوليني حرب الايقاف ضد الأغنام!

ليس بالخبز وحـــده يعيش الانسان . وانما يعيش الانسان بالخبز واشياء اخرى . واذا لم يجد الانســـان الخبز ، فلابد ان يبحث عن شيء آخر بديل .. وملكة فرنسا عندما ثار الشعب عليها يطلب الخبز . قالت الملكة : ولماذا الثورة اذا لم يجدوا الخبز : فلياكلوا البسكويت . وكانت هذه العبارة امطاراً من البنزين على نار الغضب. فالملكة ظنتان الشعب يجـــد الخبز والبسكويت معا . فاذا لم يجد هذا فيمكنه ان يتجه الى ذاك..

ولم تفهم الملكة ان الشعب لا يجد الاثنين . ومهمة العلم الحديث الآن هي ان يجد الناس الخبز والبـــديل من الخبز حتى لا يثور . او حتى لا يموت .

والناس لا يموتون عادة بسبب الجوع فقط . وانما بسبب المرض، أو بسبب الحوادث او بالحروب . ولذلك من الضروري أن يكون عدد الناس محددا حتى تكفيهم موارد الطبيعة .. فاذا لم تكف فعلى

الانسان أن يهز رأسه ليجد حلا لهذه المشاكل الحيوية . وقد وجد الانسان الحل عن طريق الكيمياء . فهى تعوضه عن الذى فقده . وهى التى تملأ فراغ الجيب والمعدة ..

فالانسان مثلا عندما كان يجد السكريات فى عسل النحل اتجه الى تربية النحل ، وعندما عجز عن اطعامه اتجه الى استيراد السكر من القصب ، ثم راح يعتصر السكر من البنجر . وكان ذلك أيام نابليون وفى حروبه .

وظل النحل حشرة هامة جدا فى ليالى أوروبا . فالنحل مصدر الشمع ، والشمع هو رونق الكنائس . وظلت الكنائس هى المستهلك الاول لشمع العسل . وعندما انتشر الغاز ومن بعده الكهرباء لم يعد أحد فى حاجة الى شمع النحل .. وبعد ذلك ظهر السيكارين ليعلن انه ليس من الضرورى أن يميت الانسان نفسه من أجل السكر فى القصب وفى البنجر وفى العسل .. وعندما اعلن أن السيكارين خطر على الصحة ، وانه يؤدى الى الاصابة بالسرطان عاد الناس الى عسل النحل وعندما أعلن أن النحل أيضا يموت من المبيدات الحشرية الموجودة فى الحدائق . وأن السموم موجودة فى الزهور التى يمتصها النحل ، وأن نسبة من السم تنقل الى العسل نفسه ، عاد الانسان ليبحث عن السكريات فى الفاكهة . ولكن سموم المبيدات الحشرية قد انتقلت أيضا الى الفاكهة . وعندما حار الانسان ما الذى يفعله قال له الأطباء أن الجسم الانسانى قد تشبع بالسموم فلا خوف عليه . هنا عاد الانسان الى البحث عن السكريات من كل مصدر .

ولم يعد السمن أو الزبدة كافية لاطعام الانسان . وقد ظهرت هذه المشكلة أيام حملات الجيوش الفرنسية فى المناطق الاستوائية . فالجنود يحتاجون الى الزبدة . ولكن الزبدة تذوب فى الجو الحار .

وقد تلقى نابليون الثالث خطابا من احد قواده يقــول لـه : مطلوب معجزة . ان جنودنا لا يجدون الزبدة فالحر جهنم . والزبدة تتبخر . واعلن نابليون عن مكافأة ماليةكبيرة لمن يجدحلا . وفى ذلك الوقت تصادف أن أحد العلماء الفرنسيين كان مشغولا بالبحث عن حل .

هذا الرجل اسمه ميج موريس . هذا الرجل اهتدى الى السمن الصناعى . وصنع هذا السمن من مواد نباتية وحيوانية معا . فاستخدم الدهون الحيوانية وبعض الزيوت النباتيــة . وكان ذلك ميلاد السمن النباتى أو الصناعى . وأنتجت فرنسا هذا السمن على نطاق اوسع . ثم جاءت هولندا فاستخدمت بعض الزيوت النباتية وزيت الحوت وانتجته بكميات اكبر . واشتهرت هولندا بذلك لدرجة ان كثيرا من الدول تطلق على كل انواع السمن الصناعى اســم : الهولنــدى ..

واقبل على هذا السمن الصناعى فقراء الناس طبعا.اما الاغنياء فعندهم الموارد الطبيعية الغالية الثمن ..

وفى اثناء الحرب العالمية الثانية حاول الالمان استخراج الزبدة من الفحم . ونجحت التجربة . ولكن لم يتحمس لها احد . وانما جعلوها نكتة . ووقفت تجارب السمن من الفحم عند هذا الحد ، ولم يدفعها احد الى الامام الا بعد ذلك بعشرات السنين فى امريكا .

وعاد الالمان الى استخراج الســكر من الخشب . واستخراج السيكارين من القطران فى سنة ١٨٧٩ . وكان السكارين هذا اشد حلاوة من الســكر ٥٠٠ مرة وبأســعار أرخص من استخراجه من الخشــب .

ولم يفلح العلم الحديث فى اســتخراج بروتينات الحيوانات فى المعامل . ولذلك عاشت الحيوانات ليأكلها الانسان . ولكن هــذه الحيوانات دفعت ثمن هذه الحياة غاليا . فلكى يكون طعمها لذيذا يجب أن نذبحها فى سن صغيرة !

واذا كانت بعض الأطعمة لا تكفى الانسان ، فهناك الصــوف الطبيعى والحرير الطبيعى والقطن والكتــان ، كلها لم تعد كافيــة لاحتياجات الانســان صحيح أن الاقمشــة هى ليست الا نوعا آخر من ورقة التوت التى تغطت بها حواء .. والأزياء ليست الا تنويعا فى شكل ورقة التوت . وقد جاء وقت على الانسان كان كل شىء امامه متوافرا فى الطبيعة . أما فى العصور الحديثة ، وبعد تزايد السكان لم يعد الصــوف يكفى للملابس ولا الحرير ولا القطن ولا الكتان . فالانسان يأكل الاغنام . ودودة القز تعمل حتى الموت ، ولكن الانسان يطلب المزيد . ولذلك كان لابد من أن يجد حلا . والذين حاولوا كثيرون جدا . وربما كان الكيميائى الانجليزى روبرت هوك سنة ١٦٦٥ هو أول الذين حاولوا ان يجدوا بديلا من الحرير الطبيعى فقد اهتدى الى محلول . وصب هذا المحلول فى اناء به ثقوب رفيعــة . ونزل السائل على شكل خيوط حريرية .

واهتدى كيميائى فرنسى الى شىء من ذلك ، وعرض اختراعه فى باريس سنة ١٨٨٩ هــذا الرجل شاردونيه . وحاول الألمــان شراء الاختراع . فاعتذر الرجل بأنه باهظ التكاليف . وانه ســوف يوالى البحث من سوائل ارخص . وقامت ثورة بين علماء الكيمياء وبين الذين يربون دود القز والذين ينسجون الحرير . وكانت التهمة: ان هؤلاء العلماء يريدون خراب العالم والقضاء على مئات الالوف من الانوال اليدوية لغزل الحرير الطبيعى !

وعلى الرغم من أن اليابان هي أكبر مصدر للحرير الطبيعي ، فانها حاولت أيضا أن تجد بديلا عنه حتى لا تتفوق عليها الدول الصناعية أو التجارية الأخرى . ان اليابان أرادت ان تغزو البلاد الأخرى قبل أن تتعرض هي لغزو يخرب بيوتها ويبيد ديدان القز عندها . وفي نفس الوقت كانت مدينة ليون الفرنسية مركز تجمع خيوط الحرير الطبيعي في أوربا كلها وحاول العلماء فيها أن يجدوا علاجا للموقف . فاقبل بعضهم على دراسة الحرير الصناعي واستحضاره في المعامل .

أما الامريكان فقد كانوا أسرع الجميع في الاهتداء الى خيوط جديدة اختاروا لها اسما يونانيالشكل: نايلون . ونجح الامريكانفي اختراع أنواع من الخيوط ناعمة طويلة . يمكن أن تصل الى الوف الكيلو مترات دون أن تتقطع .

وقبل الحرب العالمية الاولى بالضبط اهتدت المانيا واليابان في وقت واحد الى صناعة الصوف ـ أي الى الصوف الصناعي . ودخلت اليابان في حرب مع استراليا أكبر مصدر للصوف الطبيعي في العالم . وهاجمت دول كثيرة الصوف الصناعي في المانيا واليابان، باعتباره « جنونا » نازيا أو فاشيا . وأن هذا الصوف كساء الفقراء . وأن هذا الصوف الصناعي اختراع حقير يقصد افساد جمال الطبيعة ـ أو جمال صوف الأغنام في استراليا ، حتى تبقى استراليا هي سيدة هذه الصناعة ، وتظل بريطانيا هي صاحبة هذه التجارة . أما العالم كله فيجب أن يرضى بأن يكون زبونا ذليلا !

اذن لقد دخلت المعامل في حرب مع الأغنام ودود القز :

بل ان الأبقار هي التي دخلت في حرب مع الأغنام . فقد اهتدى

العلماء الى ان لبن الأبقار هو أحسن مصدر للصوف الصناعى .

وفى نوفمبر سنة ١٩٣٥ أعلن موسولينى على الشعب الايطالى وعلى العالم : أن ايطاليا سوف تنتج الصوف من لبن الأبقار . وكان هذا الاعلان ردا على تهديد أوربا لموسولينى بأنها سوف تضرب عليه حصارا شديدا بسبب حربه مع الحبشة . واقبل علماء الكيمياء على البان الأبقار يحولونها الى خيوط صوفية مستخدمين من اللبن مادة الكازين . ومن العجيب جدا أن الفراعنة استخدموا اللبن فى تثبيت الألوان . هذه حقيقة مؤكدة . وانهم استخدموا هذه المواد بنفس الطريقة التى اهتدى اليها علماء الكيمياء ! واستخرج الايطاليون مادة لاينتال . ومن هذه المادة خرجت البدل والبنطلونات الايطاليـــة ، ولا تـــزال !

وأصبح لبن الأبقار من أهم المواد التى يستعين بها العلم الحديث فى صناعة البدائل أو العجائن ..

كما أن العلم الحديث قد استغنى أيضا من المخلفات الحيوانيةـــ الاسمدة العضوية . واهتدى العلم الحديث الى الاسمدة الكيماوية فى تخصيب التربة . وفى تغذية النباتات التى تعيش عليها الحيوانات التى يعيش عليها الانسان .

وهناك بعض المنتجات الحيوانية لم يعرف الانسان لها بديلا بعد. او عرف لها البديل ، ولكن ليس بالدرجة المطلوبة . ففراء الثعالب مثلا لا يزال مطلوبا . وكانت الصين حتى أوائل القرن التاسع عشر اكبر مركز لتجارة الفراء بكل أنواعها حتى أن أمريكا انشأت خطـــا

ملاحيا بينها وبين الصين . ولكن رجلا أمريكيا اسمه : استور اقام مركزا فى شمال امريكا . بل انه انشأ مدينة اسمها استوريا . كلمة هامة تجدها على ماركات السجائر وغيرها وعلى الفنادق الكبرى . فهذا الرجل استور قد حول بذكاء تجارة الفراء الى شمال امريكا ودخل بها فى حرب مع روسيا وجاء الانجليز واستولوا على هذه المدينة . ثم استردتها أمريكا . وبقى الانجليز سادة هذه التجارة .

حتى وقع حادث عجيب سنة ١٩١٩ عندما ذهب بعض التجار الكنديين يعرضون نوعا غريبا من فراء الثعلب الفضى . وكان هذا النوع من الفراء زلزالا فى أسواق الفراء . فقد استطاع هؤلاء الكنديون أن يختاروا عينات من الثعالب وان يزاوجوا بين بعضها البعض حتى انتهى التزاوج والتهجين الى نوع فضى نادر . ولكن بسرعة عرف العالم سر هذا الثعلب .واقبل التجارعلى تربية الثعالب فى غابات واسعة . فقدلاحظ التجار أن الثعالب التى يحبسونها يكون فراؤها خشنا .أما اذا عاشت الثعالب فى ظروف طبيعية أوكالطبيعية فان فراءها يكون اكثر نعومة وليونة . ولاحظوا أيضا أن الثعلب يميل الى أن تكون له زوجة واحدة مما يؤدى الى الزيادة البطيئة فى النسل . فحاولوا أن يعددوا زوجات الذكور . ولكنها رفضت أول الأمر . فافسدوها فأصبحت للثعالب الذكور أكثر من زوجة . وانتهوا الى أنّ ثلاث زوجات هو الحد الاقصى للثعلب الواحد .. ولكن اهتدى علماء الكيمياء باستخدام بعض المقويات الى أن الثعلب من الممكن أن يكون له حريم من اناث دون أن يؤثر ذلك على فراء صغاره .

وفى ذلك الوقت — أى سنة ١٩٢٤ كان ثمن فراء الثعلب الفضى سبعة آلاف جنيه !

وجاءت الحرب الثانية فأوقفت هذا الجنون . وفى سنة ١٩٣٨

دلت الاحصائيات على ان فى كندا وحدها اكثر من عشرة آلاف حظيرة للثعالب الحظيرة الواحدة مساحتها الوف الافدنة من الغابات !

وظهر منافس خطير للثعلب : حيوان الشنشيلا فى بيرو ..

ثم ظهرت اغنام كاركول فى ايران .

وكان التجار يلجأون الى اجهاض الأم قبل ان تلد بقليل ثم يسلخون جلد الوليد . حرصا على أن تظل فروة الحيوان المسكين اكثر نعومة . وفى بعض الأحيان يسلخون الولد بعد ولادته العادية بساعات ..

ولابد أن اناقة المرأة هى المسئولة عن حياة بعض الطيور وموت أكثر الحيوانات . مثلا : لولا ان سيدة فرنسية جاءت من الجزائر لتزور مارى أنطوانت ما عاشت مئات الالوف من النعام . فقد جاءت هذه السيدة تهدى الى الملكة ريش نعام لتضعه على راسها او لتكون مروحتها . وأصبح ريش النعام موضة . واقيمت مزارع للنعام فى الجزائر . وحوت هذه المزارع عشرات الألوف من هذا الطائر الذى ينزعون ريشه مرتين فى السنة . وكان لابد من العناية به وبصحته نظرا لرواج تجارة ريش النعام . ولاحظ تجار الريش ان ذكر النعام اذا كانت له اناث كثيرة ، وضعت الاناث بيضا قليلا . فهى اذن ليست مشكلة الأنثى . وانما هى مشكلة قدرة الذكر على ان يكون زوجا لعدد كبير من الاناث . وحددوا للذكر ثلاث اناث فقط تضع مائة بيضة فى السنة .

وبعد ذلك جاءت التماسيح . فهذا الحيوان لابد من قتله ليكون

جلده حذاء أو شنطة أو حزاما لسيدة انيقة . ولابد ان يكون ذلك فى سنه الصغيرة . وبعد سلخه لابد من دباغة الجلد وتلوينه او الاحتفاظ بلونه الطبيعى ..

وفى كاليفورنيا مساحات هائلة مغلقة على التماسيح .

وجاءت الثعابين لتقوم بنفس دور التماسيح . فجلدها حزام او جزمة أو شنطة . والثعابين كثيرة الأنواع والاحجام والالوان . ولكن الثعابين لها مهمة حيوية فى البلاد الحارة . ففى الهند مثلا تجد أن الثعابين تأكل الفئران . والفئران اذا تكاثرت اكلت محاصيل القمح والذرة . ولذلك يجب الابقاء على الثعابين لانقاذ الغلال . وفى الهند دعوات صارخة للابقاء على الثعابين من أجل الجياع من البشر ! ولكن المرأة حريصة على اناقتها ولو مات اهل الهند جوعا !

ومن اجل اناقة المرأة أيضا نزل الرجل الى أعماق البحر بحثا عن اللؤلؤ فى قلب البحار . وهذا اللؤلؤ موجود فى الخليج العربى ـــ او كان موجودا ـــ وفى شواطىء اليابان والصين. وقد ارتفع اللؤلؤ على اعناق الجميلات . ويقال أن اللؤلؤة تحزن على صاحبتها ويتغير لونها . ويقال أن لونها يتغير اذا بعدت عن موطنها . ويقال: ان الملائكة اذا بكوا نزلت دموعهم الى البحر فاصبحت لوليات ! وكثيرا ما قيل أن اللؤلؤ اذا ذاب فى النبيذ فى ليالى العشق أصبح سحرا . وسعادة للرجل والمرأة ـــ يقال !

اما طريقة استخراج اللؤلؤ فهى أن ينزل الغواص او الغواصة ـــ اكثرهم من النساء ـــ الى الماء ... ويصيدون حيوان اللؤلؤ

ويفتحونه ويستخرجون من بطنه حبات اللؤلؤ .. وحيوان اللؤلؤ يستغرق وقتا طويلا يصل الى السنة والسنتين فى تكوين حبة واحدة .

وقد اهتدى رجل صينى منذ سبعة قرون الى أنه فى الامكان مساعدة هذا الحيوان على انتاج اللؤلؤ بصورة أسرع . فكان يفتح المحار ويضع فيه حبا صغيرا .. ذرة رمل أو ذرة من المحارة أو الحصى .. وفى بعض الأحيان اهتدى الى شىء غريب فكان يضع حصاة صغيرة ويرسم على هذه الحصاة بوذا . ويضعها بعد ذلك فى جسم حيوان اللؤلؤ .. ثم يجىء هذا الفنان العظيم ويغطى هذه الصورة لبوذا باللؤلؤ .. ويكون لحبة اللؤلؤ بعد ذلك سحرها العميق فى نفوس المؤمنين ...

وجاء أستاذ يابانى سنة ١٨٨٩ وقام بتطوير هذه الحيلة . هذا الاستاذ اسمه متسكورى . وأدخل فى جسم حيوان اللؤلؤ حبات صغيرة من الصدف . ويجىء الحيوان ويغطيها بهذه المادة الفضية الشفافة .

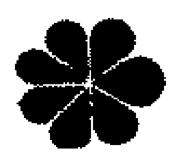
* * *

ولكن رجلا واحدا استطاع أن يجعل « اللؤلؤ الصناعى » اشهر تجارة فى العالم واستطاع أن يقنع العالم كله أن اللؤلؤ الصناعى اجمل واروع . وانه يصعب على اى انسان أن يفرق بين الاثنين . وفى ذلك الوقت كان التمييز صعبا . ولكن من السهل معرفة ذلك الآن بمجرد وضع اللؤلؤ فى الضوء فيكون اللؤلؤ الطبيعى أكثر شفافية من اللؤلؤ المزروع فى جسم حيوان اللؤلؤ . هذا الرجل

ميكوموتو الذى اشترك فى المعرض الدولى للؤلؤ بأكثر من مائة الف حبة .. وصنع ناقوس الحرية الامريكى من اللؤلؤ . وقدمه فى معرض دولى ..

وقد رأيت جزيرة ميكوموتو هذه فى اليابان . ورأيت ملايين من حبات اللؤلؤ . وأعترف باننى لم اعرف اهمية هذا اللؤلؤ اوضرورته لأحد . وقد كنت العب بحبات اللؤلؤ لعبة الجوز والفرد . فنجد بائعات اللؤلؤ يجلسن على الارض . وقد وضعت كل واحـــدة « قلة » من اللؤلؤ .. واجلس أمامها والعب : جوز ولا فرد .. ونفتح محار اللؤلؤ .. فنجد أحيانا حبة واحدة وأحيانا حبتين أو ثلاثا .. واذكر اننى كسبت فى هذه اللعبة الوف الحبات . ولا اذكر الان بالضبط اين نسيت هذه الحبات عندما سافرت من اليابان الى جزر هاواى الى امريكا الى اوربا بعد ذلك .

فقط عندما رجعت الى مصر عرفت اننى اضعت ثروة طائلة — ولم اكن ادرى ذلك — فقد كنت مشغولا فقط بالفرجة والكتابة والسفر ، وهى جميعا اروع من كل ما فى العالم من لؤلؤ — واعتقد ان اكثر نساء العالم لا يرين هذه الفلسفة !



شجرة واحدة تكفي:
هزها وانت تعرف!

بعد هـذه الرحلة الطويلة فى حياة الحيوان ، هل له مستقبل ؟ هل ستتحول الحيوانات بعضها الى بعض ، كان يكون القرد انسانا ؟ هل تتحول بعض الزواحف مرة اخرى وتكون طيورا ؟ هل تزداد الاصابع فى اقدام الحيوانات ؟ هل الانسان نفسه سيكون كائنا آخر ؟ ان عشرات الالوف من السنين لم تغير من الحمار ، فهو حمار منذ كان حمارا ، والخنزير كذلك ..

ان نظريات العلماء من مدرسة دارون قد لاحظوا التشابه الكبير بين القرود والانسـان . وقال بعضهم : أصله قرد ـــ أى الانسان أصله قرد وعلى ذلك فمن الممكن أن يتطور القرد فيصبح انسانا فى المستقبل . صحيح أن التاريخ لم يحفظ لنـا حتى الآن تلك القرود التى تحولت الى انسان . ثم انه ليس بين القرود فصيلة واحدة تعرف النطق أو تعرف كيف تغير من أسلوبها فى الحياة . وكل ما يقوله العلماء هو أن مرحلة من مراحل تحول القرود الى بشر ، قد فقدناها .. أو قد ضاعت منا . ولكن ليست هذه اجابة

.. انما هى اجابة تغرى بالتساؤل : ولكن لماذا هذه المرحلة بالذات ؟ من الذى حرص على اخفائها لكى يدوخنا بعد ذلك ؟

اذن يمكن أن يقال : بأن هذه الحيوانات لم تتحول الى حيوانات اخرى فى مئات الالوف من السنين فلن يطرأ عليها اى تغير آخر .. لأن الماضى هو صورة المستقبل ، او هو الحروف الأولى من الماضى والمستقبل !

علماء الجيولوجيا يقولون : اننا مقبلون على عصر جليدى آخر .. وأن المناطق الشمالية والجنوبية من الأرض سوف تتغطى بالجليد .. وسوف يؤدى ذلك الى انقراض حيوانات اخرى كثيرة . تماما كما انقرض حيوان الماموث عندما هاجر الى الشمال فمات من البرد .. وفى نفس الوقت استطاعت حيوانات أصغر حجما وأضعف قوة من التكيف مع البيئة فعاشت . فالقوى الذى لا يجارى البيئة يموت ، والضعيف الذى يجاريها يتقيها ويعيش . انها قاعدة فى الحيوان وفى الانسان أيضا !

* * *

ثم هذه الزواحف الضعيفة هى بقايا مملكة هائلة كانت تعيش على الأرض ، هل هى أيضا سوف تنقرض .. علماء الجيولوجيا يقولون : هذه نهايتها لا محالة . ولكن لماذا ؟

الجواب انه يجب أن ننظر الى : الظروف الحيوية .. أو الى البيئة الحيوانية والنباتية والانسانية والجوية اى الحياة (الاجتماعية) أو (الجماعية) للحيوانات معا .. ولسنا فى حاجة الى أن نسافر الى غابات الامازون الهائلة أو الغابات الهندية أو الواحات الافريقية والاسيوية كما كان يفعل دارون وبقية العلماء فى القرن التاسع عشر .. وانما شجرة واحدة تكفيك . هزها .

وانت ترى الفراشات والحشرات المتسلقة : هذه الشجرة مثل فنجان في يد قارئة الطالع .. مثل كوتشينة يلعبها قارىء الحظ .. ولكن هذه الشجرة تستطيع أن تعرف كيف تتعايش هذه الكائنات معا .. أو كيف يتربص بعضها ببعض أو يعيش بعضها على بعض .. نظرة واحدة الى شجرة تدلك على مستقبل حياة هذه الكائنات، معا ومستقبلها مع الانسان — وهو الأهم . فلا يزال الانسان هو الذى يحدد لهذه الكائنات أعمارها ومستقبلها . فمثلا فى الهند : الثعابين تعيش على الفئران ، والفئران تعيش على القمح وعلى القمح يعيش الانسان .. اذا قتلنا الثعابين زادت الفئران وأكلت القمح وأرهقت الانسان .. واذا قتلت الثعابين والفئران وانفردت الدودة بالقمح جاع الانسان . واذا قتل الانسان الدودة أيضا توفر له القمح .. ولكن فى نفس الوقت اذا زاد عدد الناس ولم يجدوا القمح مات الانسان .. انها سلسلة طويلة من الكائنات يعيش بعضها على بعض . والمستقبل فى يد الانسان .

مثلا : البعوضة تنقل الحمى الصفراء . يقضى الانسان على هذه البعوضة باستخدام المبيدات وباستخدام وسائل العلاج عاش الانسان وماتت هذه البعوضة أو انقرضت !

واذا نظرنا الى الانسان القادر على كل الحيوانات لم نجد هذا الانسان يفوق الكثير من الحيوانات من الناحية الفسيولوجية — أى من ناحية وظائف أعضاء جسمه . فهناك شبه كبير بين الانسان والقرد والحصان والضفدعة والأرنب . أو بين الانسان والحصان فى نمو الجنين وفى الحمل والولادة وفترة الحضانة الطويلة .. فالانسان ينمو ببطء .. ورغم هذا التشابه فان الانسان هو الاقوى.

وأهم من ذلك أن الانسان لا يزال اكثر الحيوانات الكبيرة عددا .

فقد أعلن المعهد الدولى للزراعة فى روما عن عدد الحيوانات الكبرى على الأرض بعد الحرب العالمية الثانية فكانت هكذا : فى العالم ٧٠٠ مليون بقرة و ٦٠٠ مليون من الاغنام . و ٣٠٠ مليون خنزير و ١٠٠ مليون حصان .. ومثل هذا العدد من البشر أو اكثر . فعدد سكان العالم حوالى الفى مليون نسمة .

ومن المعروف عندنا أن خسائر الانسان فى الحرب العالمية الثانية كانت هائلة . لاشك فى ذلك . وأن هذه الخسائر تساوى الدموع التى سالت على خدودنا حزنا على ما أصاب الانسان على يد الانسان . ولكن خسائر الحيوانات فى هذه الحرب كانت أضعاف خسائر الانسان .

فى أمريكا ما بين ١٩٣٨ و ١٩٤٨ زاد عدد سكان العالم ١٠ ٪ .. ونقص عدد الحيوانات .. وزاد عدد الأبقار فى أمريكا بسبب العناية الفائقة بمزارع وحظائر تربيتها . بينما نقص عدد الخنازير ١٨ مليونا وعدد الاغنام ٢٦ مليونا وعدد الخيول ١٨ مليونا !

وفى اثناء الحرب الاهلية فى الصين نقص عدد الطيور بمقدار ٢٠٠ مليون ونقص عدد الطيور فى أمريكا اثناء الحرب العالمية الثانية بمئات الملايين حتى أصبح عددها حوالى ٧٠ مليونا .. وسبب ذلك أنه لم تكن هناك أسواق للبيض .

والانسان حريص على هذه الحيوانات والطيور لأنها مصدر غذائه .. ولو وجد الانسان موردا آخر للبروتين ، ما تردد لحظة واحدة فى ابادة هذه الطيور والحيوانات معا . فكأن بقاء هذه الحيوانات سببه أن علوم الكيمياء لم تتطور بدرجة كافية .. وعلماء الكيمياء فى العالم هم الذين سيقررون ان كانت هذه الحيوانات

ستعيش أو تنقرض . ولن يمضى وقت طويل حتى تتحول هـذه الحيوانات الكثيرة الى حيوانات نادرة أو حيوانات للزينة !

* * *

ومن المؤكد أن الانسان قد قتل الملايين من هذه الحيوانات والطيور عندما اخترع السهام والنبال .. وأضعاف هذه الكائنات قد قضي عليها الانسان عندما اكتشف البارود .. وفى أمريكا ، وبسبب الزحف الى الغرب ، احرق المهاجرون الجدد الغابات والمراعى فماتت ملايين الحيوانات وانعدمت تماما .. فالجاموس الوحشى أثناء الحرب الأهلية الأمريكية كان عدده يبلغ ستين مليونا أى ضعف عدد سكان أمريكا فى ذلك الوقت . فأين هذه الجواميس الآن ؟ انها فى حدائق الحيوانات فقط ؟ .. وهناك نداءات كثيرة من جمعيات انسانية تطلب الرحمة بهذا الحيوان . ولكن هذه الجمعيات نفسها لا يتوقف اعضاؤها عن اكل اللحوم .. اذن هذه الجمعيات لا تطالب بالابقاء على الجواميس الا خوفا عليها من التلاشى .. ولو كانت هـذه الجواميس بالملايين ما طالب احد بالحرص عليها !

وهناك حيوانات أخرى سوف تبقى شيئا قليلا . ولن يكون عددها بمئات الألوف أو الملايين . لأن الذى يحدد وجودها هـو احتياج الانسان الى الفرجة عليها .. مثل كل حيوانات حديقـة الحيوان : الأسود والنمور والضباع والذئاب . وهذا هو أحد أسباب اقبال الناس على حدائق الحيوانات . فالناس يذهبون لرؤية هذه الحيوانات فى الاقفاص لأنهم لن يروها فى أى مكان آخر .. ولذلك لا توجد حديقة حيوانات فى أواسط افريقيا قد حوت أقفاصا للقرود .. لأن الناس يجدون القرود على الأشجار وفى الشوارع !

وبعض الطيور قد طال عمرها لنفس السبب . أو لأسباب أخرى جمالية . فالببغاء وطيور الكنارى قد أبقى عليها الانسان لأنهـا

جميلة الريش رشيقة الحركة أو لأن لها أصواتا جميلة . وكذلك عاش الطاووس .. ولا يذكر أحد في كل العصــــور ان أحدا أكل الطاووس لأنه نادر الوجود وهو لذلك غالي الثمن . فقط في ايران وأثناء مهرجان قورش والاحتفال بمرور ٢٥ قرنا على انشائه للدولة الفارسية . في هذا المهرجان قدمت ايران للملوك والرؤساء لحم الطاووس. .والطاووس اشترته ايران وبعثت به الى مطعم ماكسيم الشهير في باريس وحملته الطائرات ساخنا من باريس الى مدينة برسبوليس فى مخيمات الملوك والرؤساء ـــ ولو قدموا الى الطاووس في سندوتش ما أكلته . لكن في هذا الجو الخيــــالى ومع الألوان والموسيقى والاكواب من ذهب ، وعلى مسمع ومرأى من كل رؤوس العالم ، فلابد أن يكون طعمه لذيذا وأن يكون له مثل السحر في الجسم والنفس .. ومن المؤكد أن هذا هو آخر عهد الانسان بالطاووس محشوا بالفستق والصنوبر وأبى فروة !

* * *

أما بقية الطيور النافعة للانسان أى التى تأكل الديدان الضارة والحشرات فى الحقول ، فانها أخذت فى الانقراض . سببب ذلك : الهواء الفاسد فى المدن والمبيدات الحشرية فى الحدائق والحقول . ان هذه الطيور رغم حرص الانســان عليها ، لأسباب مصلحية أو انسانية أو جمالية ، فانها سوف تنقرض . لمــاذا ؟ لأن الانسان اما أن يعيش أو تعيش هذه الطيور . طبعا لابد ان يعيش الانسان ـــ كما عاش دائما ـــ على جثث غيره من الطيور والحيوانات والانسان أيضـــا !

فقط كل الكائنات التى تعيش فى أعماق البحار قد عاشت لأنها بعيدة عن متناول الانسان . ولكن هذه الكائنات لن تظل وقتا طويلا بعيدة عن الانسان . فاذا اقترب منها ، كان الموت قريبا أيضا . وسوف يجيء دورها طبعا .

اذا كان الانسان حريصا على الحيوان لانه مصدر غذائه وكسائه ووسيلته فى الانتقال ، فان هناك حيوانات رغم ذلك قد ماتت . الخيول مثلا : كانت وسيلة الانتقال للانسان . وكان الحصان احدى أدوات الحرب . وقد حاول الانسان فى الحرب العالمية الاولى ان يدفع بالحصان لخوض غمـــار معارك الفرسان وكانت معـــارك انتحارية . وفى الحرب العالمية الثانية ابتعدوا به تماما .. وفى الحروب القادمة ، لن يكون للحصان وجود . والحصان الآن لم يعد اداة النقل والمواصلات فى العالم . ولذلك فلن يعيش طويلا الا فى السيرك والا فى اصطبلات سباق الخيول . أى أن الحصان سوف يبقى لأسباب رياضية وجمالية ..

وفى القرن الماضى أنشأت كل من بريطانيا وأمريكا اصطبلات للتقاعد . فالحصان الذى تقدمت به السن ، وجاء الارهاق فخلع أوصاله ، لابد أن يستريح فى حظيرة حتى الموت مثل كل الناس ! ولكن لن يتسع وقت الانسان لمثل هذه الرقة . فسوف تموت الخيول فى الحقول وفى السيرك وبعد ذلك يكون لها قفص فى حدائق الحيوانات الى جوار الحيوانات النادرة !

حتى الأغنام .. سوف يجىء دورها فاذا استطاع الانسان ان يحصل على صوف جيد دون حاجة الى الأغنام فهذه نهايتها ، لأن الانسان قد اخترع الخيوط الصناعية . واستطاع أن يضع خيوط الصوف الصــــناعية فى المواد الكيماوية لتعيش أطول وانعم واكثر ليونة . بل ان بعض الخيوط الصوفية الطبيعية عندما وضعت فى المواد الكيماوية نمت . ومعنى ذلك انه يمكن تنمية الخيوط الحيوانية دون حاجة الى الحيوان نفسه . ولكن الخيوط الصناعية ما تزال اقل جودة من الخيوط الطبيعية . ولكن مع تقدم الكيمياء سيصل الانســان الى خيوط اقوى واجود واكثر نعومة ولمعانا . فاذا وصل

الى ذلك ، انتهت مهمة الأغنام التى عاشت للانسان وعايشته وماتت من اجله عشرات الألوف من السنين . واتخذت مكانها المتواضع فى متاحف التاريخ الطبيعى أو ارسلت من ينوب عنها فى حدائق الحيوان الى جانب الزرافة والغزالة والقرد !

ولا تزال هناك مشكلة أمام الانسان هى التى ستجعل الاغنام والأبقار والطيور اطول عمرا : وهى أن الانسان لم يجد حتى الان مصدرا بديلا للبروتين الذى يجده فى اللحوم . ولذلك سوف تبقى هذه الكائنات مصدرا وحيدا للحم . وهناك نظرية تقول :

ان الانسان أصبح اقل ميلا لتناول اللحوم من اى وقت مضى .. صحيح أن الانسان كلما أصبح مقتدرا اشترى لحما أكثر . ولكن هذه النظرية معناها : ان الجياع اقل تناولا للحم . ولما كان عدد الجياع أكثر من عدد القادرين ويزدادون بمرور الوقت فان عدد الذين يأكلون اللحوم سوف يكون اقل . أو لن يزيد عددهم مما يجعل عددا أكبر من الأغنام والأبقار والطيور ينعم بالحياة . ولابد ان يدخل فى حسابنا ايضا أكثر من الف مليون نسمة لا يأكلون اللحوم فى الصين والهند .

واذا نظرنا الى ما أكله أهل باريس مثلا فى ١٨٨٩ نجد أن الفرد كان يستهلك ١٥٤ رطلا فى السنة . وبعد ثلاثين سنة نجد أن الفرد أصبح يستهلك ١١٠ أرطال .. بينما يتضاعف ما يستهلكه الفرد من النبيذ فى نفس المدة !

وفى أمريكا كان الفرد يستهلك فى سنة ١٩٠٠ ما يعادل ١٥٠ رطلا فى السنة . ولكن فى سنة ١٩٣٨ هبط ما يستهلكه الى ١٢٥ رطلا .

وفى الحروب يزداد استهلاك الفرد .. وبعد الحروب يهبط الاستهلاك .

فهذا الاعراض عن أكل اللحوم هو الذى يكسب الحياة لملايين الأبقار والأغنام والطيور .

ولكن تقدم الكيمياء ونشوب الحروب هو الذى سيهلك هــذه الكائنات . .فكل هذه الكائنات لها اعمار مربوطة فى أصابع الانسان، ان شاء أبقاها وان شاء أهلكها .

* * *

ولكن يجب الا نتصور أن الانسان هو أقوى الكائنات : الجراثيم أقوى منه . . ثم أن الانسان عندما لم يطق أن يتحمل ضغط الجو فى البالون الذى أطلق فى أوروبا استطاعت بطة وديك أن يرتفعا دون أن يصابا بأذى من الهواء والضغط . . وعندما أطلق الانسان قنبلته الذرية على جزر بيكينى : عاشت الخنافس والخنازير والماعز . واخترقتها الأشعة ولم تمت . . ثم عاد التراب الذرى فغطى هذه الحيوانات ولم تمت فى حينها ولا بعد ذلك بسنوات . . ولم يكن فى قدرة صانع القنبلة الذرية أن يواجه الشعاع والتراب .

من يدرى ربما انقرض الانسان وجاءت كائنات أخرى من كواكب أخرى تتفرج على هذه الحظيرة الكبرى التى اسمها : الكرة الأرضية . . تماما كما تذهب تتفرج الآن على ما أحدثه بركان فيزوف بالقرب من نابلى عندما تجمد الشعب كله وتحولوا الى تماثيل حجرية .

من يدرى ربما فعلت كائنات أخرى أكثر عقلا ووضعتنا فى حدائق للحيوانات الاقل وراحت تتفرج علينا كما نتفرج الآن فى متاحف التاريخ الطبيعى على الجماجم والاعمدة الفقرية للانسان الاول ـــ ربمـــا !

قرود في كل مكان !

وكنت افضــل ان تكون الصفحات التالية في اول هذا الكتاب .. فهي تصف الحيوان وسلوكه دون تحفظ .. اى دون قيود عليه ..

والحيوان حر .. هو بالضبط ما يتمنى ان يفعله الانسان . ولــكن الحضارة تجيء وتقيــد الانسان وتضع الفرامل والضوابط والقواعــد والحلال والحــرام واللائق وغير اللائق على كل مشاعره الحيوانية والانسانية ..

ولكن بعد أن عرفنا جوانب من حياة الانسـان يمكننا ان نعرفها اعمق واوضح اذا عدنـــا عشرات الألوف من الســـنين .. أو اذا ذهبت الى حديقة الحيوان .. ففى الحديقة نجد الانسـان متخفيا وراء جلد الحيوان ..

ولكن الحيوان اكثر صراحة ..

لان الحيوانات لم تتعلم الكذب بعد ..

ولذلك فهذه الحيوانات هى دليلنـــا الذى لا يخطىء الى فهم الانسان مرة اخرى ..

فان كان قد فاتك أن تفهم الانســـان من مئـــات الصـــفحات السابقة ، فهذه هى فرصتك فى ان تستدرك ما فات وأن تفهم غيرك ونفسك ..

فاذا شعرت بالخجل فلأن الحيوانات لا تخفى ما تشعر به هى .. وما تشعر به أنت !

* * *

واذا ذهبت الى حديقة الحيوانات . وسمعت من يصرخ وراءك ويقول : ياحيوان فلا داعى لأن تلتفت وراءك لترى ماذا سيحدث .. فكل ما فى الحـــديقة حيوانات : التى فى الاقفـــــاص .. والذين خارجهـــا .

واذا وقفت أمام قفص القـــرود ورأيت القـــردة تفلى ابنتها الصغيرة فلا تضحك .. فلنا أجداد يعملون ذلك فى الريف.أما فى المدينة كالكوافير يقوم بهذا العمل أيضا مستخدما أحدث ما وصل اليه عقل الانسان .

واذا أنت التقيت ببعض الســـودانى وتزاحمت عليه القـــرود وضحك طفلك الصغير ، فاظن انه لا داعى لأن تضحك أنت . لأنك قد فعلت شيئا من ذلك فى المكتب أو الدكان أو المصنع الذى تعمل فيه . فمكان العمل هو قفص اقسى من قفص القـــرود . وأنت محكوم فىداخل القفص بقوانين ولوائح وقواعد ومخاوف.. واذا اشار رئيسك فى العمل بالعلاوات او الأرباح فانك تقفز مثل

هذا القرد واكثر .. وليست العلاوات الا انواعا من الفسول السودانى الذى يلقى لنوع آخر من القرود ..

واذا رايت القرد — امام كل الناس — يركب ظهر الانثى . فليس القرد قليل الأدب ، ولا نفسه انفتحت لمجرد رؤيتك . ولكنه فى حالة خوف . والخوف يثير الحيوان والانسان أيضا . والناس فى جو الخوف يتصالحون .. انهم يواجهون الموت بالقبلات ، ويواجهون الموت بغريزة حب البقاء .. والبقاء عن طريق الجنس ..

واذا كان القرد ليس له مستقبل فى أن يكون انسانا . فمن المؤكد ان الانسان له ماض . وهذا الماضى مازال حروفه الغامضة يمكن قراءتها فى جبلاية القرود .. فاذا لم يكن هذا القرد جدنا البعيد .. فهو قريب من جدنا البعيد . واذا كان الانسان قد اكتسب عادات جديدة من مئات الألوف من السنين .. فان العادات القديمة التى عاش بها من ملايين السنين ما تزال مصونة مكنونة فى اقفاص القرود ..

ولهذه الأسباب كان الكتاب الممتع الصعب أيضا الذى كتبه العالم دزموند موريس وعنوانه « القرد العريان » من اروع الكتب التى صدرت أخيرا فى العالم بلغات متعددة .

واذا كان هذا الكتاب لم يلق التأييد الكامل من علماء الحياة والدراسات الانسانية والحيوان ، فانهم — عادة — لا يتفقون على راى واحد .. ولكنهم امام هذا الكتاب اتفقوا على انه خلاصة دراسات وتأملات عميقة ومثيرة أيضا . وان به نظريات جريئة وجديدة ولابد ان تدير آلافا من الأدمغة يمينا وشمالا .. وبعد ذلك فى امكانها ان تتساقط من التعب أو اليأس .

هناك ١٩٣ نوعا من القـــرود من بينها نوع واحد فقط ليس جسمه مغطى بالشعر : وهذا القرد العريان له صـفات غريبة أخرى من بينها مثلا أنه يقضى نصف عمره بحثا من معنى سلوكه وتصرفاته .. ويمضى النصف الثانى من عمره يحاول أن ينسى هذه المعانى . وهذا القرد العريان يعتبر نفسه عاقلا . والحقيقة أنه عاقل حقيقة ، ولكنه أكثر الحيوانـــات شراهة من النـــاحية الجنسية. فالحيوانات كلها معتدلة ، وكل هذه الحيوانات تخجل من الجنس ، ولذلك فالذكر عند العناق لا يواجه انثاه ..

والحيوانات لها مواسم . والانسان ليست له مواسم للقبلات والحمل والرضـــاعة والولادة .. فكل وقت عنده هـــو الوقت المناسب لأن يكون « حيوانا » ومن الضرورى أن نعيد النظــــر فى الحيوانات الأخرى ، وخصوصا الحيـــوانات الراقية مثل القرود لنعرف كيف عاش هذا الانسان ومن أين جاءت عاداته كلها ، كيف نشأت وكيف تطورت وتحورت حتى أصبحت على الصورة التى نراها اليوم .. ولا نفهم الكثير من مقدماتها وأسبابها ..

ولعل من المناسبة هنا أن نذكر انه فى احدى حدائق الحيوانات يوجد « سنجاب » وهو حيوان صغير أليف يظهـــر فى الحدائق ويداعب الأطفال . هذا الحيوان وضعوه فى قفص على انفراد .. وكتبوا على القفص .. هذا السنجاب أفريقى نادر . ولا نعرف أسمه العامى .. فنحن لم نر قبل الآن سنجابا له قدم سوداء .. وأنف أحمر ..

وأمام هذا السنجاب النادر نجد علماء الحيوانات يبحثون عن وجه الشبه والخلاف بينه وبين الأنواع الأخرى ، لابد أنه كان من سلالة انعزلت من بقية الـــ ٣٦٦ نوعا من السناجيب التى عاشت

فى العالم كله . ولابد أن هذه الفصيلة النادرة قد انعزلت تماما واصبحت لها عادات خاصة ، ولها نداءات جنسية خاصة . ولابد انها مرت بظروف غريبة . وانها توافقت مع هذه الظـــروف . واصبحت لها الوان واشكال وعادات مختلفة من بقيـــة الانواع الأخـــرى ..

نفس الموقف يجب أن نأخذه من الانســـان ـــ هـــذا القرد العريان ـــ نتساءل كيف عاش . ولماذا بقى . وكيف تطور .. وكيف تحول من مرحلة أكل فيها الحشرات الى مرحلة اكل فيهـــا أوراق الشجر . ثم الثمار .. ثم انتقل من الغابات الى الأرض الواسعة .. ثم كيف تحول من التقاط الثمار الى صيد الوحوش .. ثم الى زراعة الأرض .. ثم كيف حاول الهرب . واستخدم رجليه .. واستخدم يديه فى صناعة أدوات حياته ..

وان كان الانسان مثل بقية الحيوانات الثديية التى يبلغ عدد انواعها ٤٢٣٧ قادرا على أن يحتفظ بدرجة حرارة مناســـبة فى الحر والبرد .. صحيح ان بعض الحيوانات الثديية ـــ اى التى لها اثداء ترضع بها أطفالها ـــ تعتمد على جلدها الغليظ وشعرها الكثيف فى حفظ درجة الحرارة فى الشتاء . والوقاية من حـــرارة الشمس فى الصيف .. والوطواط وهو طائر ثديى عريان فى معظم أماكن جسمه .. ولكن يوجد شعر أيضا يغطيه ويحميه .. وهناك حيوانات أخرى مائية ثديية بلا شعر مثل الحيتان والدرافيل .. ولكنها لا تقوى على مواجهة الشمس كما يفعل الانسان ..

والانســان فى تاريخه الطويل فقد القدرة على الابصار . وفقد قوة السمع والشم . أما الحيوانـــات الأخرى وخصوصـــا آكلة اللحوم مثل الانسان فعندها قدرات خارقة على الرؤية والسمع

والشم . ففى سنة ١٩٥٣ اجريت تجارب على قدرة الكلاب المتوحشة على الشم ، فاثبت العلماء أن قدرتها أقوى من الانسان مليون ونصف مليون مرة ..

والانسان مثل الحيوانات آكلة اللحوم قاتل ايضا . وبعض الحيوانات لا تقتل لمجرد القتل . وانما لاسباب وجيهة : الجوع .. او جوع صغارها ..

وحتى الحيوانات التى استؤنست ما تزال عندها غريزةالصيد .. والانسان ايضا . فالكلب الاليف يحب أن يخرج به سيده الى الشارع ليمارس لعبة الصيد والمطاردة .. وهى لعبة لانها ليست خطرة . وكذلك القط الذى تلقى اليه بالطعام فيداعبه كانه فأر صغير .

وبعض الكلاب تخفى طعامها .

وبعض الضباع تخفى طعامها فوق الشجر ..

وهذه الحيوانات آكلة اللحوم لها طرق معروفة فى الصيد .. والأسود تبعث واحدا منها يهاجم الفريسة حتى تهرب .. واذا ما هربت وجدت أمامها عددا آخر من الأسود . والذئاب تحاصر الفريسة .. اما الكلاب المتوحشة فانها تمشى فى طابور طويل . وتظل تهاجم الفريسة واحدا واحدا حتى تنزف الفريسة وتموت.

هناك خلاف هام بين هذا الانسان وبين القرود الاخرى . هذا الخلاف هو ان طفل الانسان يستمتع بفترة طفولة طويلة . هذه الفترة يعيش فيها مع أمه . ويتعلم منها الكثير . وفى نفس الوقت يكبر عقله وينضج . ولا يزال يكبر حتى السابعة من عمره .

ويبلغ العقل نضجه التام فى الثالثة والعشرين أما الحيوانات الأخرى فلها فترات طفولة صغيرة .

والانسان لم يستمتع بهذه الطفولة الا بعد عادات أخرى اكتسبها .. وهى ان الرجل هو الذى انفرد بالصيد والقتال . لأن المرأة فى حالة الحمل لا تقوى على ذلك ولهذا ذهب الرجل وبقيت المرأة فى البيت مع اطفالها . والمرأة فى البيت بلا خوف من هجمسات الذكور الآخرين لأن هناك اتفاقا روحيا بين الذكر والأنثى ، أن تبقى هذه الأنثى له وحده . وان تبقى وفية مخلصة له اذا ذهب للصيد فى الغابات . هذا الاتفاق لم يتم بين الذكر والأنثى الا بعد ان كان هناك حب بينهما . وهذا الحب أدى الى الارتباط والارتباط ادى الى قيام وحدة من رجل وامرأة وانشاء أسرة أى جو مناسب لتربية طفل لاستقرار الاب والأم والاطفال .. واذا كان من طبيعة الحيوانات الأخرى ان تتعاون فالانسان أيضا حيوان متعاون ولكنه حيوان منافس ايضا . وكثيرا ما أدى به التنافس الى القضاء على الأسرة وعشرات الأسر .. واذا كانت رغبة الانسان فى التعاون هى التى جعلته يخلق الأسرة ، فان رغبته فى التنافس هى التى جعلته يبتكر الزوجات ويخطف الأرض ويقتل القبائل الأخرى .. وأكثر من ذلك جعلته يبتكر أدوات جديدة فى الدفاع عن النفس وفى القتال .. وجعلته يشعل النار فى عقله ويلقى بضوئه ودمائه على الأجيال القادمة .. تاريخ الانسان أضواء باهرة تنعكس على بحار من الدم ترفع شعارات اسمها : حب الانســـــان لأخيـــه الانسان ..

أما لماذا سمى الانسان بالقرد العريان فهنـــاك آراء كثيرة . هناك رأى يقول ان طفل القرد عندما يولد يكون عاريا من الشعر تماما .. ثم ينبت له الشعر كلما كبر . والانســـــان لأن طفولته

طويلة فقد ظل جسمه خاليا من الشعر .. ثم أصبحت هــذه الصفات وراثية من مئات الألوف من السنين ..

ومن المعروف أن الجنين فى الشهر السابع والثامن يكون جسمه مغطى بالشعر وقد رأيت ذلك فى الأطفال الذين ولدوا قبل الأوان .. وبعد ذلك يختفى هذا الشعر كلما تقدمت بهم السن .. وإن كانت هناك حالات نادرة معروفة فى الكتب العلمية لأطفــال ظل شعرهم طويلا يغطى معظم الجسم .. كالقرود تماما ..

ويقال أيضا أن الحيوانات التى يتغطى جسمها بالشــعر . تعيش عليها ومعها حيوانات طفيلية كثيرة . وكان الانسان يعيش فى الكهوف .. ويقال لأن الانسان قادر على أن يستخدم يديه راح ينتزع شعره ويحلقه .. ولأن الانسان قادر على أن يستخدم يديه وأصابعه . على عكس الحيوانات الأخرى . وهناك نظرية تقول ان الانسان عندما اخترع النار لم يعد فى حاجة الى اغطية من الشعر .. أو فروة من الشعر .. وانه قادر على ان يجد الدفء فى ضوء الشمس نهارا . وان يجد الدفء أمام النار ليلا .. وان هــذا الدفء هو الذى أغناه عن حاجته للشعر الذى يغطى جسمه كله .

ويقال ان الانسان قــد عاش مئات الألوف من السنين يتنقل بين البر والبحر وأنه كان يعيش على اكل السمك . وعندما كان يصيد الأسماك كان الماء يغمر جسمه كله . ولا يبقى الا رأسه على سطح الماء .. ولذلك — مثل كل الحيوانات الثديية الأخرى — أصبح جسمه خاليا من الشعر .. وكلها نظريات تجتهد فى تفسير خلو جسم الانسان من الشعر ، أكثر من الحيوانات الاخرى ..

وربما كان لشعر تفسير جنسى آخر .. فمن الملاحظ ان الذكور من الحيوانات الثديية بها شعر أكثر من الاناث ولذلك أصــبحت

الانثى الناعمة البشرة مثيرة من الناحية الجنسية للرجل . وهى حريصة على أن تكون أنعم ايضا . بينما يحرص الرجل على أن يكون اكثر خشونة .. ولذلك يطلق شاربه ولحيته .. ويترك الشعر فى صدره وتحت ابطه بينما تحرص الأنثى على أن تكون ملساء ..

وليس معنى ذلك أن الانسان يحب البشرة الناعمة ، ولذلك زال الشعر من جسم المرأة . ولا معنى ذلك أن المرأة احبت الشعر فى جسم الرجل فظهر الشعر .. ولكن معناه أن الانسان احب الواقع .

نعود مرة اخرى الى قفص القرود الذى نقف أمامه فى حديقة الحيوان .. ان القردة لم تذهب الى حلاق ولا الى صانع احذية والى مصمم ازياء .. ولم تضع الأحمر والأبيض والسوتيان .. والكورسيه والكعب العالى .. ولا الغمز بالعين ...

كل هذا يدل على أن الحضارة الانسانية علمت الانسان أن يكون شهوانيا .. وان يكون مشتعلا جنسيا . وأن يفكر فى الجنس ويهرب منه ويعود اليه .. وبسبب الجنس يحب وبسبب الحب يتزوج وبسبب الزواج تكون لــه اسرة واولاده .. يهرب من الأولاد والزوجة باسم الكراهية ليقع فى الحب ، الذى هو اسم مهذب للجنس .. فهو يدور حول نفسه هاربا قلقا خائفا فى قفص محكم معقد اسمه الغريزة الجنسية . واسمه تجارب التاريخ الذى طواه ملايين السنين قطعتها القرود على الأشجار وتحتهـا وفى الصراع مع الحيوانات الأخرى تحركت ساقاها .. وتساومت فتحركت يداها واهتز عقلها ايضا . وسكنت الكهوف .. واستقام ظهرها .. وكبر عقلها .

وأصبح انسانا لا يختلف كثيرا عن القرود وان كان هو يتوهم انه مختلف عنها تماما .. ولكنه قرد يصنع الأقفاص لغيره .. ولنفسه .. ويجمل أقفاصه هو مكيفة الهـواء اذا كانت على الأرض .. ومكيفة الهواء والضوء والضغط اذا كانت فى طريقها الى القمر .

والانسان قاتل من يومه ..

كان يقتل بالحجارة والفأس والسيف . وما يزال يقتل . فقد اصبحت لهذه الأسلحة أسماء جديدة : الصاروخ والطائرة والدبابة . فهو — اذن — لم يتغير .

والحضارة لم تطور رغبته فى القتل . وانما هذه الرغبة هى التى طورت الحضارة الانسانية وغيرتها وصبغت بالأسود والأحمر طريقها وأهدافها .. والانسان — هذا القرد العريان — كان صيادا فى الغابة ، يعيش على التقاط الفاكهة : التفاح والرمان والتوت . وما يزال . ولكنه يصيد تفاح الخدود ورمان النهود وتوت الشفاه .

فالحضارة الانسانية لم تضع الفرامل على رغبات الانسان . وانما رغبات الانسان هى التى اشعلت فرنا ضخما شوت فيه كل معالم الحضارة الانسانية . فلا يزال الانسان أكثر الحيوانات الراقية شراهة جنسية : يجوع اليها ، وينشدهـا ويجدهـا ويطاردها ويعود اليها . ويبدأ الانسان هذا الشوق الجنسى فى سن مبكرة . ثم يعرف اللعب الجنسى . والمداعبة . والمطاردة . والصيد . والانتباه الجنسى والهياج الجنسى .. والاشباع ..

والانسان حيوان شهوانى أكثر من الحيوانات الأخرى ..

ولكن الانسان هو أول حيوان يحرص على ان تكون له اسرة. اى تكون له امرأة واحدة . يحرص عليهـا ومن الضرورى ان تحرص هى أيضا عليه . والانسان كحيوان صياد كان يخرج من الكهف الى الصيد فى الغابة . ويبقى فترات طويلة . ويترك وراءه انثاه وأولاده . وهى بذلك تكون عرضة لعدوان الذكور الآخرين. ولابد من حماية لها أثناء غيابه .

ولذلك عرف الانسان الحب . وعرف العطف على الأنثى . وعرفت الانثى حماية الذكر . وهذا الحب كان ضروريا للانسان . لأنه عقد غير مكتوب وبمقتضاه يصبح لهذا الذكر الحق فى ان يحتفظ بهذه الأنثى . ويصبح لهذه الانثى الحق فى ان تعيش فى كهف هذا الرجل ولهذا الرجل والا تسلم نفسها لذكور آخرين ..

ولكى يبقى هذا « العقد » محترما كان على الذكر أن يحترم عقود الآخرين .

وفى الوقت الذى بدأ فيه جسم الانسان يضعف بدأ عقله ينمو وينضج . ولذلك لم يعد هذا الانسان فى حاجة الى عضـلات الحيوانات وسرعتها فى الجرى والهرب . وانما عقله هداه الى أساليب اخرى لالتقاط الفاكهة من الغابة . وهداه ايضا لاستخدام اسلحة اخرى للقتال والدفاع عن النفس .. وهداه الى وضـع حدود اجتماعية لتحميه وتحمى ذريته . وفى اثناء فترة الصـيد هذه استطاع الانسان أن يحرك أصابع يديه . وهو وحده القادر على ذلك من كل الحيوانات الأخرى . وهذه الأصابع هى التى مكنت الانسان من ان يستخدم الأدوات وأن يصنعها أيضـا . وهذا ما لم تفعله كل الحيوانات الاخرى ..

وتمكن الانسان — خلال مئات الألوف من السنين — ان يصلب عوده . وأن يقف وتعلم الانسان ان يكون له رفيقة واحدة . هذه الرفيقة هي الشريكة . أو هي اللصيقة . او التابعة .. فلم تظهر كلمة الزواج أو كلمة الزوج الا فيما بعد ذلك بالوف السنين .

وهناك اختلاف آخر بين الانسان والقرد مثلا ..

ففي فترة الحمل عند القرود — اقرب الحيوانات الينا — تعزف الأنثى من كل صلة جنسية . بل انها تبعد تماما عن الذكور . فيما عدا الانسان — هذا الشهواني — لا يقوى على الحرمان الجنسي طويلا . ولذلك فمن الممكن ان يقرب زوجته معظم فترات الحمل وكأنه بذلك اراد ألا تتجه زوجته الى ذكر آخر .. وكأن الأنثى أرادت هي الأخرى الا يتجه الذكر الى انثى أخرى . فاصبحت هذه العلاقة ممكنة رغم الحمل .

وقد ورث الانسان من مرحلة الصيد القديمة ، هذه النعومة في البشرة .. فهو اذا عانق المرأة التصقت باكبر مساحة ممكنة من هذا الجسم العريان . وأصبح الجسم الانساني شديد الحساسية للملامسة . وفي هذا الجسم الانساني مراكز كثيرة قادرة على اشعال الحس . والانسان اكتشفها واعتاد عليها ويلهبها كلما اراد ذلك .. ولذلك في استطاعة الانسان أن يكهرب نفسه وغيره بمجرد أن يمر بأصابعه على الجسم الانساني العريان .

ومن الملامح الغريبة عند الانسان : الشفتان ..

وقد اعلن كثير من العلماء أن الشفتين ليست لهما ضرورة

خاصة . وكان من الممكن أن يكون الفم مجرد فتحة . ولكن الانسان هو الذى جعل للشفتين معنى خاصا .. ويقول علماء آخرون : ان شفتى الانسان قد كبرتا وتضخمتا لأن الانسان له طفولة طويلة . أى انه يرضع ثدى أمه سنوات عديدة بينما نجد القردة ترضع صغارها فترات أقصر .

ولكن الغريب فى شكل الشفتين انهما مقلوبتان الى الخارج . على خلاف شفتى القرد .. فانهما حادتان بلا طبقة شحمية . فاذا اقترب منك القرد وقبلك فانه يطبع فكيه فقط على وجهك أعلى عنقك . ولكن القبلة من شفتى انسان ملتصقة ومندمجة وعميقة أيضا . ففى استطاعة الانسان أن يعانق الشفتين بالشفتين ..

وفى الشفتين خلايا عصبية كثيرة . ولذلك فالانسان قد جعل هاتين الشفتين ذراعين تتعانقان .. وتنقلان الحرارة والوهج الجنسى الى كل الجسم بل ان هناك نساء يغمى عليهن عند القبلات . وبسبب المعانى الكثيرة التى تحملها القبلة وتثيرها ، فان تسليم الشفتين هو موافقة مبدئية بتسليم بقية الجسم الانسانى .. وكما أن الطفل الصغير يرضع بشفتيه ، فان الطفل الكبير يرضع أيضا بشفتيه احساسات أخرى ومعانى عميقة ومثيرة .

وبعد الشفتين تجىء الأذنان ..

يقول بعض العلماء ان أذنى الانسان كانتا طويلتين — كأذنى الحمار مثلا ثم ضمرت الأذنان بمرور الوقت حتى أصبح لها هذا الشكل الذى نراه .. وهناك شبه بين أذنى الانسان وأذنى القرد .

ولكن هنـــاك خلافا واضحا : هذه الشـــحمة التي تتدلى من الأذن .. من اين جاءت ؟ ولماذا كانت ؟ وما فائدتها ؟ ليست لهـــا فائدة . ولكن الانسان خلال مئات الألوف من السنين قد استخدم هاتين الأذنين في الاثارة الجنسية .. امسك الأذنين بأصـــابعه اثناء اللقاء الجنسي . واعتاد ذلك واصبحت لهذه الشـــحمة هذه الدلالة الجنسية . واصبحت جرسا يضغط عليه فاذا كل الحواس الأخرى تصرخ وتثور وتنفتح ..

أما النهدان فهمـــا عند انثى القـــرد العريان متضخمـــان .. وتتضخمان عند الاثارة الجنسية أيضا .

ويقال أن النهدين مظهر من مظاهر الامومة . وضرورة لها . ولكن اثداء القرود ليست في ضخامة اثداء المرأة . على الرغم من ان اثداء القرود اكثر افرازا للبن . ولكن اللبن الكثير والرضاعة العنيفة عنـــد صغار القرود لم تؤد الى تضخم ثديي القـــردة ، ولكن انثى الانسان لها نهدان يتضخمان وهذا التضم ليس بسبب الامومة ، ولكن بسبب الانوثة .. فالنهدان جهـــاز تنبيه جنسي ايضا . اعتاده الانسان واستراح اليه وعليه .

والأنف يختلف عن كل الأنوف عند الحيوانات الأخرى . والخلايا والمراكز العصبية الموجودة في الأنف كثيرة . واذا كانت خاصـــة الشم عند الانسان قد ضعفت فان هذه الحســـاسية تقوى عند العناق . ويصـــبح الأنف قادر على أن يشم وعلى الاســـتمتاع بالشم ولذلك كانت الاثارة عن طريق العطور ورائحة الجســـم الانساني نفسه .

هذه الاختلافات في الهيئة والسلوك الانساني قد اكتسبناها من مئات الالوف من السنين .. واكتسبنا معها وبسببها هذا العقل

الذى نمتاز به عن الحيوانات الاخـرى ولكن ما الذى تغـير فى الانسان الآن .. هل ما يزال الانسان كما كان من مئات الألوف من السنين .. هل نحن مختلفون عن أجدادنا فى الرغبة والانجاه والاشـباع ..

لم يتغير شىء .. وانما الأسـماء فقط هى التى تغيرت .. فالبيت بدلا من الكهف والعمل بدلا من الصيد . والحب بدلا من السطو . والزواج بدلا من التزاوج ..

كما ظهرت بعض القيود التى نسميها : القانون .. القواعد .. الاصول .. التقـاليد ولكن متى ظهرت هذه الحواجز . هـذه الفواصل . هذه الأسلاك الشائكه . هذه العلامات البيضاء على الأرض . علامات المرور العاطفية.متى ظهرت . متى أصبحت لها هذه القوة ؟ ..

عندما ظهر الغرباء فى حياتنا ..

فبين الرجل وأنثاه لا قيود . ولا تقاليد . ولا عـادات . الا ما اتفقنا عليه . وهو حر فى بيته . وهى أيضا . وفى استطاعة الأنثى أن تمشى عارية . والرجل أيضا . ولكن عندما يظهرشخص غريب : تنكمش الحركة ويتغطى الجسم . وتنزوى المرأة . ويبعد الرجل عن زوجته ..

واذا كان الرجال معا يذهبون الى الصـيد ويتركون النسـاء وحدهن فقد حدث كثيرا أن ذهبت النساء للصـيد أيضا . هـذا الاختلاط حتم اقامة الفوارق والحدود . وعرفت الانسانية معانى العيب والحرام والشرف . اى ان المرأة لا يحق لها أن تعطى للغير ما ليس للغير .

وقد أسرف الرجال فى وضع الحواجز واقامة الجدران بين ما يخصهم وما يخص غيرهم . وفى العصور الوسطى كان الرجل يضع « حزام العفة » حول زوجته . ويضع على الحزام قفلا يحتفظ بالمفتاح فى جيبه .. عاما .. وعشرين عاما . ويترك فى الحزام فتحات للضرورة الحيوية فقط . وكان البعض من المتزمتين يضع الحزام كالسد المنيع على زوجته عندما ينهضان من النوم كل يـــوم !

وقد اعتاد الرجل منذ وقت طويل ان تكون له امرأة خاصة . وان يكون جسمها خاصا به . وأن يكون لهما مكان خاص ينامان فيه . (وفى كل اللغات العالمية نجد ان كلمة « نام » الرجل مع المرأة اى عاشرها كأنها زوجته) .. اذن لقد عرف الانسان الزوجة الخاصة . والبيت الخاص . وعرف السرية والخصوصية فى كل تصرفاته الجنسية والعاطفية .. بعيدا عن عيون الآخرين ومن أيديهم أيضا .

* * *

ولو نظرنا الى مكان مزدحم بالرجال والنساء لوجدنا هنـــاك حرصا شديدا على الا يصدم احد باحد .. أو يصطدم رجل بامرأة. لأن الملامسة لها معنى جنسى . وان كنا فى حياتنا العادية لا نقول ذلك . وانما فقط نقول : عيب ان نصطدم بسيدة .

هذه قلة ذوق .. هذا سوء تربية .. ولكن المعنى الحقيقى أن جسم هذه السيدة ليس مباحا . وانما هو خاص . وليس من حقك أن تلمسه .. وانما من حق غيرك ، وان كانت هذه الملامسة مسموحا بها فى أماكن الزحام الشديد ، لانه لا مفـر من ذلك ، ومسموحا بها للحلاق والترزى والطبيب .. ولو فرضنا أن سيدة

اصطدمت برجل فى الزحام ، ولم يعتذر لها لقالت انه قليل الأدب .. ولكن لو ذهبت الى الطبيب نفسه للعلاج فانها تنزع ملابسها أمامه . ويتحسس جسمها . ويولدها . ولا يتهمه أحد بسوء الادب لأنه فى المرة الأولى لم يكن له حق . و فى المرة الثانية له هذا الحق !

وبسبب هذا العدد الهائل من الغرباء فى كل مكان . كان من الضرورى أن تخفى المرأة معالم جسمها . وقد دفعت المرأة نفسها وراء الأبواب والجدران وتحت الملابس الوف السنين . ولكن عندما أصبح « العمل » ضرورة حيوية .. خرجت المرأة واخفت ملامحها أيضا لأن كشف هذه المعالم والنظر اليها ولمسها بالعين او باليد ليس من حق كل الناس !

ولذلك نحن نطلب الى الطفلة الصغيرة اذا جلست ان تضم ساقيها . والا تفتحهما حتى تعتاد على ذلك .. لأن فتح الساقين لا يليق أمام كل الناس .. وكذلك المرأة عندما تضحك فانها تحاول الا يكون صوتها عاليا . وأن تخفى ضحكتها وراء يدها .. أو تنحنى لتخفى ضحكتها أيضا .

والسبب هو أن الضحك واللعب لهما دلالة جنسية خاصة ، ويجب الا تكون عامة !

ولكن ما الذى تفعله المرأة بملابسها الآن ؟

ان ملابس المرأة تخفى جسمها ولا تخفيه .. بل ان الملابس تبرز جسم المرأة اكثر مما تتستر عليه . فقد يكون الصدر مترهلا ذابلا . ولكن السوتيان يشده ويدوره ويبرزه . وهذه الاستدارة والتضخم والبروز لها دلالة جنسية . فمن المعروف أن النهدين يتضخمان عند اللقاء الجنسى .

وكذلك ارداف المراة . فهى حريصة أيضا على ابراز الردفين وتكبيرهما .. ولذلك تستخدم الكورسيه .. وأحيانا تستخدم الارداف الصناعية المصنوعة من القطن . وكما أن المراة تحقن صدرها بالشمع . فانها تحقن أردافها أيضا .

فكأن المراة لا تخفى جسمها . وانما هى تخفيه ليظهر اكثر . فلماذا ؟

نعود الى جبلاية القرود : ففى عالم القرود نجد أن الخوف والزحام يدفعان الحيوانات الضعيفه الى الاستسلام للذكر القوى او الانثى القوية . وأول ما يفعله القرد الضعيف أن يدير ظهره للحيوان الاقوى . ويعتليه الحيوان الاقوى والخوف فى جبلاية القرود سببه الزحام على القوة . وعلى السلطة . وعلى الطعام وعلى الانات . ولا يملك الضعيف فى هذا الزحام الوحشى الا أن يعطى نفسه لمن هو أقوى منه . وليس لدى القرود الا جسمها .. فتضعه أمام الذكر الاقوى !

وفى عالم الانسان أيضا . فالمراة عندما تخرج الى الشارع . تحرص على أن تكون جميلة ومثيرة فهذا الجمال والاثارة هما محاولة للفت نظر الرجل . وفى نفس الوقت تذويب رغباتهالعدائية او العدوانية .. الى مجرد رغبة .. الى اعجاب .. الى اشتهاء .. وبذلك تنجو المراة من شر الرجل . وتنجو أيضا من الاعتداء عليها .. ولولا خروج النساء الى الشارع لانهدمتالحياة الزوجية وانهدمت الأسرة الانسانية . فخروج المراة الى الشارع خفف حدة الرجال الاخرين الشبان والمتزوجين .. فكأن المراة عندما تخرج الى الشارع جميلة انيقة مثيرة عارية بارزة النهدين والردفين تقول : من الممكن أن تحبنى ولكنى بعيدة جدا !

ومعروف لنا جميعا أن المرأة عندما تخرج الى الشارع سوف تكون موضع نظر الرجل .. اى رجل .. فهى لا تستطيع أن تسد عيون الناس . ولا أن تسد أفواههم . ولكنها فقط عن طريق اشباع العيون تقطع أيديهم .. واذا كانت العين بصيرة ، فمن المؤكد ان الأيدى ستكون قصيرة — وهذا هو المطلوب !

فلماذا كل هذه الممنوعات والقيود ، ولماذا هذه الاثارة فى نفس الوقت ، لماذا تفتح النوافذ لتهب العواصف الباردة ولماذا تشعل المدفأة فى نفس الوقت ؟

لأن الرجل حيوان « بريالة » .. فاذا سال لعابه ، أصبح حيوانا ذاول ذليلا .. وكان المرأة هى وحدها القادرة على تحويل النمر الى قط وتحويل الذئب الى كلب .. الى قرد عريان .. الى عريان .. فكان المرأة هى وحدها التى تقوم بترويض الرجل الشرس فى الشارع وفى البيت .. وهى وحدها القادرة على أن تحمى الحدود التى وضعها الرجل .. وعلى ازالة الحدود وازالة الرجل أيضا !

وقد اعتاد الانسان شيئا جديدا : اعتاد أن ينظر .. أن « يبص » وأن يجد متعة فى النظر والبصبصة .. واعتادت المرأة أن تكون منظورة .. ملفتة .. وتصبح المتعة مشتركة بين الجميع .

ولذلك نجد متعة أيضا فى مشاهدة الأفلام والمسرحيات حيث نجد أناسا آخرين يحبون ويعشقون ويقبلون ويتزوجون .. انهم يقومون بكل شيء بالنيابة عنا .. اننا نشاركهم فقط بعض اللحظات . بل اننا نعلن عن الأفلام العاطفية باظهار البطل والبطلة

فى حالة هناق حار . ولا أحد يسأل نفسه : طيب هو يمانقها ويقبلها واحنا اخذنا ايه ؟ . .

لا شيء طبعا . ولكن اثناء عرض الفيلم نندمج مع البطل والبطلة وننسى أن الذى أمامنا هو تمثيل فى تمثيل . . ولكن النظر متعة . . ولذلك عندما يتعانق البطلان نحس بالكهرباء ويسيل اللعاب . . وتتعالى آهات الحرمان . . آهات صاحب العين المصيرة واليد القصيرة !

وفى الصحف والمجلات صور عارية . . وفى الروايات قصص عارية . . وصفحات غرامية من نار . . كل هذا نبحث عنه . لأنه لذة . ومتعة . ومشاركة بالعين فقط . . !

وفى هذه المناظر حماية للأسرة وتعجيل بأن تكون لكل انسان أسرة أيضا !

وفى البلاد التى يسمحون فيها بالدعارة . . تجد ان هذه الدعارة تحمى الأسرة أيضا . فالرجل يذهب الى احدى الغانيات بلا حب ولا مقدمات . فتمتد يده دون أن يراها . . أى يكون طويل اليد قصير النظر . . ولذلك لا يفكر فى أن يتزوج غانية . . أو يترك زوجته وأولاده وبيته من أجل غانية . . أو من أجل واحدة تملأ الذراعين وتسقط من العينين .

والدعارة هذا العفن الاجتماعى والأخلاقى — هو أحد السموم التى يحمون بها الأسرة — أو كأنه أحد الأسمدة العضوية التى يستخدمونها لتغذية التربة ؟ .

ورغم المحاولات الكثيرة للتخلص من القيود العائلية . أو التخفيف منها تعيش الأسرة أقوى وأبقى علاقة اجتماعية . فقد

حاول المفكرون أن يبحثوا عن وسائل للحمل بدون أب معروف ..
وحاولوا وضع الأطفال فى مكان عام دون حاجة الى أم أو أب ..
كل هذه المحاولات الفكرية والعلمية قرأ الانســان عنها ولكن لم يتحمس لها . فما يزال الانسان حيوانا اجتماعيا .. يريد الزوجة الواحدة والطفل والبيت الخاص . وان تكون له خصوصيات . وان تكون هناك ، حدود عليه وحدود له .. وان يكون له أطفال . وان يتولى هو تربية أطفاله وهذه هى احدى مشكلات الأسرة واحــد أعبــاء الزوجين .. والمجتمع والدولة .. وتربية الطفل ليست مشكلة حيوانية .. فلا شكوى القرود منها .. وانما هى مشكلة انسانية جديدة ومتطورة كما سنرى !



من قلوب الأمهات خرجت موسيقى الحنان !

عندما يولد القرد، فانه يمسك بامه . يمسك بشعرها وجلدها . ويتعلق بها . كانه تدرب على هذه العملية فى بطن امه ومنذ وقت طويل .. ولا يستطيع الطفل الانسانى ان يفعل ذلك الا بعد وقت طويه .

فالقرد الصغير لا يحتاج من امه الى تربية او تدريب .. ثم انه ليس عبئا يصيبها بالقرف والغثيان وينخفض ضغط الدم عندها .. وينفخ صدرها .. ويعتمد عليها ..

أما الطفل الانسانى فانه عبء قبل أن يولد فلا تكاد أمه تحمل فيه حتى ٢٦٦ يوما تطلق هذا الجنين كأنه قذيفة .. ولا بد أن تصرخ الأم بأعلى صوتها . ولا بد أن يبكى الطفل أيضا . ويحرص الأطباء على أن تصوت الأم وعلى أن يبكى الطفل . فاذا حدث ذلك تلفت الطبيب يتلقى التهانى من الأهل على أنه أبكى الأم وطفلها .

وينزل طفل القرد ومعه « خلاصه » هذا الخلاص تقوم أم القرد بقطعه ثم ابتلاعه . وبعد ذلك تقوم بلعق السائل الذى يغرق جسم

الطفل ثم تغسل جسمه تماما .. أما الطفل الانسانى فانه يولد عاجزا تماما على فعل أى شىء .. وأمه كذلك مرهقة لا تقوى على عمل شىء لهذا المولود ..

ولا بد ان قطع الخلاص على طريقة القرود كان اسلوب اجدادنا من الوف السنين ، فيما عدا انهم لا يأكلون الخلاص . ولا بد ان حاجة الأم الى مساعدة الاخرين فى هذا الموقف ترجع الى مئسات الألوف من السنين عندما كان الانسان صيادا يترك زوجته اياما حتى يعود اليها بالطعام . فكان يجتمع حولها نساء كثيرات يساعدنها على ولادة الطفل والعناية به حتى تفيق الأم من آلام الولادة ..

وبعد يومين من ميلاد الطفل الانسانى يبدأ لبن الام فى السيولة النشطة . فاذا اعطت الأم ثديها لابنها ، ظـل يرضـع حـوالى العشرين شهرا .. والرضاعة الحديثة تكتفى بسبعة أو تسـعة شهور فقط .

وعندما تتوقف الأم عن ارضاع طفلها يعاودها المرض الشهرى وتصبح قادرة على الحمل من جديد .. ولذلك تعتبر الرضـاعة الطويلة محاولة لتحديد النسل أيضا .

والرضاعة عند القرود ليست مشكلة .. ولكنها عند الانسان ــ هذا القرد العريان ــ مشكلة كبرى . فالطفل الانسانى غير قادر على أن يطعم نفسه ، وعلى الأم أن تسـاعده فهى تحمله على صدرها . وهى تضع ثديها فى فمه . وهذه مشكلة . فحلمة الثدى ليست ممدودة بدرجة كافية . وليس من السـهل ادخالها فى فم الرضيع . ولذلك فالأم تضع ثديها بين شفتيه بحيث تكون حلمة الثدى بين سقف الفم وبين لسانه . ثم انه يجب ان تكون الرضاعة سهلة فى الايام الخمسة الاولى ، واذا فشلت الأم فى ذلك فسوف تكون هذه مشكلة معقدة للطفل بعد ذلك ..

وأحيانا تشعر الام ان طفلها يرفض ثديها . وهى لا تدرى . ولكن عند الطفل اسباب وجيهة جدا . كأن تضغط الأم بطفلها على صدرها . فلا يعرف كيف يتنفس : فمه الصغير مليان باللبن وأنفه الصغير ملتصق بصدرها .. ولذلك يجب أن تراعى الام ذلك . وهذا يجعلنا نقول مرة اخرى ان صدر الام ــ ثدييها ــ ليس جهازا للأمومة . وانما هو علامة من علامات الأنوثة .. والجنس . فهذه الاستدارة المرنة . وهذا البروز وهذه الحلمة غير المدودة لا تجعل الرضاعة سهلة على الطفل . ويكفى أن ننظر الى زجاجات اللبن التي يرضع منها الطفل . فحلمة الزجاجة طويلة ممدودة ولذلك يسهل على الطفل أن يرضع منها . ولو عرف الزجاجة لرفض ثدى الأم .. وتشبه هذه الزجاجة النموذجية ثدى القردة .. فثدى القرد مترهل يسهل على الطفل ان يمسكه . كما ان حلمة الثدى طويلة ممدوده تدخل بين شفتيه بسهولة تامة . بينما الطفل الانسانى يجد صعوبة فى وضع الحلمة فى فمه . ولا يقوى على امساك الثدى بسهولة القرود .. فكأن ثدى المرأة خلق للرجل وليس للطفل .. !

وهناك ملحوظة هامة وتحتاج الى تفسير جديد . فقد دلت الأبحاث على ان ٨٠٪ من الأمهات يضممن أطفالهن الصغار اثناء الرضاعة على الذراع اليسرى .. وقد يكون تفسير ذلك أننا نعتمد على الذراع اليمنى اكثر من الذراع اليسرى فتضع الأم طفلها على الذراع التى لا تستخدمها عادة .

ولكن لوحظ ايضا أن ٧٨٪ من الامهات اللاتى يستخدمن الذراع اليسرى يضمن الطفل اثناء الرضاعة على هذه الذراع اليسرى ايضا !!

اما تفسير ذلك فهو أن التقلب على الجانب الأيسر من الجسم .

وأن الطفل وهو جنين قد اعتـــاد على سماع دقات قلب الام .
وعندما يولد الطفل عاجزا ضائعا فى هذا العالم الكبير فان الام تعيده الى جنبها الى حضنها كأنها تعيده الى احشائها فى ذلك المكان الأمين الذى يستمع فيه الى دقات قلبها من جديد .. ودقات قلب الام هى الصـــوت الوحيد الذى يجعله يشعر بالأمن فينام . والمرأة تفعل ذلك بالغريزة أو نتيجة لمحاولات طولها عشرات الألوف من السنين .

وقد أجريت تجارب على اطفال صغار وضعوا فى غرفة واحدة فى الوقت الذى وضع جهاز تسجيل يذيع دقات قلب ـــ أى ٧٢ دقة فى الدقيقة ـــ فلوحظ أن الأطفال ينامون بسهولة . ولوحظ أيضا أن هؤلاء الأطفال يرضعون كثيرا . كما أن وزنهم قد زاد .. على عكس الأطفال الذين وضعوا معا بلا جهــاز تسجيل فى غرفهم . فهؤلاء الأطفال يبددون طاقاتهم فى البكاء .

واجريت تجربة أخرى على ثلاث مجاميع من الأطفال : اطفال فى غرفة بها جهاز يدق ٤٠ دقة فى الدقيقة .. واطفال فى غرفة فيهـــا جهاز يدق ٥٢ دقة فى الدقيقة .. والغرفة الثالثة بها جهاز مسجل عليه دقات قلب حقيقى .. فلوحظ أن اطفال الغرفة الثالثة هم أسرع الجميع الى الهدوء والى النوم .

ولا بد أننا حين نتحدث عن أن الحب مصـــدره القلب وليس الرأس ، نشير الى أن هذه الحقيقة التى عرفناها اثناء الطفولة .. فنحن نشير الى الأمن والأمان الى جوار الام .

ولا بد أن تكون « مرجحة » الطفل .. وهدهدته حتى ينام .. سببها أن الطفل يستشعر خفقات قلب الأم .. ولا بد أن هذا هو الذى يجعله ينام .. وهذا الاهتزاز أو هذا الصوت الذى يسمعه

يعيده الى هدوئه عندما كان فى بطن أمه .. وهذا ما نفعله نحن الكبار .

فلا يكاد الانسان يجلس الى مقعده حتى يحاول ان يتأرجح به .. أو عندما نهز أرجلنا .. كل هذه محاولات لأن نهدىء انفسنا .. أو محاولات لأن نعيد هزات وصوت قلب الأم .

وليس من المصادفة أن تكون كل الموسيقى الجديدة التى يستريح اليها الشبان هى موسيقى الدقات العالية .. دقات الطبول .. دقات القلوب المصنوعة من الجلد .. هذه الدقات تهز الاذن وتتأرجح لها المشاعر .. وقد اختار الشبان فى العالم اسما لهذه الموسيقى هو : موسيقى الخفقان .. موسيقى دقات القلب . ومن الغريب أيضا ان الكثير من الشبان بعد حفلاتهم الموسيقية الصاخبة ينامون .. ولذلك يحرص هؤلاء الشبان على ان يناموا أثناء العزف الموسيقى .. ثم يصحون بعد ذلك بعد أن استراحت اجسامهم واعصابهم ايضا .. ان هذه الموسيقى قد اعادتهم الى طفولتهم .. الى قلب الام .. والى حنان النغم .. فناموا كأنهم اطفال صغار كأن موسيقى الخنافس قد صدرت من قلوب الامهات!

وبعد ذلك يتوالى نمو الطفل : بعد شهر واحد يستطيع أن يرفع رأسه اذا نام على الارض . وبعد شهرين يرفع صدره وبعد ثلاثة يمد يده الى الأشياء . وبعد أربعة يستطيع أن يجلس فى حجر أمه . وفى الخامس يمكن وضعه فى مقعد . وفى السادس يمكن أن يجلس وحده وفى السابع يعتمد على أمه فى الوقوف . وفى الثامن يعتمد على اثاث الغرفة فى الوقوف . وفى التاسع يزحف . وفى العاشر تساعده أمه على المشى . وفى الحادى عشر يعتمد على أثاث الغرفة فى المشى . وفى الثانى عشر يستطيع أن

يصعد السلم بيديه ورجليه وفى الثالث عشر يقف دون مساعدة .
وفى الرابع عشر تجىء اللحظة الكبرى .

انه يستطيع ان يمشى دون مساعدة ! وفى هذه الاثناء يكون قد عرف الطفل بعض الكلمات . ويصبح قادرا على أن يحفظ بسرعة وفى السنة الثانيــة يعرف ٣٠٠ كلمة وفى الثالثــة ٥٠٠ كلمة وفى الرابعة ١٦٠٠ كلمة . وفى الخامســة ٢١٠٠ كلمة وهذه مقدرة فذة عند الانسان انفرد بها عن كل الحيوانات الأخرى . وقد أجريت تجارب كثيرة على تدريب القرود على الكلام .

فمثلا : اتوا بقرد وجعلوه يعيش فى نفس بيئة طفل انسانى . وبعد سنتين لم يستطع القرد ان ينطق أكثر من بابا .. وماما .. كوب .. وأن كان الشمبانزى عنده مقدرة على تقليد الحركات ، فانه عاجز تماما عن تقليد الأصوات . على الرغم من أن الأجهزة الصوتية عند الشمبانزى اقوى من أجهزة الانسان .. ومعنى ذلك ان الجهاز الصوتى لا يكفى .

ولكن العقل هو الفارق بين الانسان والقرد . وهناك طيور اقدر من الشمبانزى على تقليد الأصوات .

فالببغاء يستطيع ان ينطق جملة طويلة ولكنه لا يستطيع ان يضيف كلمات اخرى ولا يستفيد من هذه الكلمات المحدودة التى عنده .. ولكن هذه اللغة ضرورة عند الانسان الذى كان يجب أن يخرج فى جماعات للصـــيد . وكان لا بد ان توجد هنــاك وسائل للتفاهم والتخاطب بين الصيادين .. فاللغة ضرورة حيوية عند الانسان ..

والطفل الانسانى ككل اطفـــال الحيوانات الثـدبية له صرخة معروفة هذه الصرخة تدل على أنه يشكو من ألم . وبعض الطيور

لها صرخات أيضا . والطفل الانسانى عندما يتألم أو يجوع أو نتركه وحده أو اذا ظهر امامه أو حوله شىء غير مألوف أو اذا سحبنا من تحته شيئا يستند عليه .. فانه يصرخ .

فهو يصرخ اذن بسبب : التعب أو الخوف . واذا صرخ الطفل الانسانى يجب أن يكون هناك من يساعده ويحميه . وفى هذه الحالة يجب الاقتراب منه وهزه هو أو السرير الذى ينام عليه . وصرخة الطفل توتر عصبى واحمرار فى الرأس ودموع فى العين ، وفتح للفم وسحب للشفتين الى الخلف وتنفس مرتفع . وعندما يكبر الطفل فانه عندما يصرخ يتجه الى أمه ويتعلق بها . وكل هذه معلومات معروفة . ولكنها ضرورية لمشكلة اخرى سوف أعرضها حالا .. مشـــكلة الابتسام والضحك .. فالابتسام له علاقة بالصراخ . فالصراخ نداء الى شخص بعيد .

والابتســـام حديث مع شخص قريب . وملامح الوجه عنـــد الصراخ هى نفسها ملامح الوجه عند الابتسام أو الضحك : صراخ وفتح للفم وسحب للشفتين الى الخلف وتقلص عضلى واحمرار فى الوجه .

واذا استطاع الطفل أن يميز أبويه فى الشـــهر الثالث ، فان البكاء يتحول الى ضحك . فالطفل الضاحك هو الذى يعرف أباه ، والطفل العاقل هو الذى يعرف امه . وعندما يعرف الطفل أمه فانه يخاف من الآخرين .

والضحك معناه : أن الخطر ليس حقيقيا . واذا عرف الطفل الضحك ، فان الأم تستطيع أن تلعب معه دون أن يصرخ .

وهناك اناس كثيرون اذا ضحكوا لا تعرف ان كانوا يضحكون او يبكون .. فملامح الوجه واحدة . والصوت نفسه واحد . واذا كنا نقول عادة : ان فلانا ضحك حتى بكت عيناه ، فيمكن ان يقال

من الطفل : انه بكى حتى ضحك .. فالطفل يبكى حتى يجىء احد . فاذا جاء توقف من البكاء . فاذا عرف هـذا الذى جـاء فانه يبتسم .. ثم يضحك .. وكثيرا ما يتوقف الطفل عن البكاء فجأة ويضحك .. نفس الملامح مع خلاف بسيط فى لمعان العينين ..

وعنـدما يعرف الطفل كيف يضحك فانه يصبح لعبة الأبوين والاقارب .. ويدخل الطفل مرحلة هامة من حيـاته .. مرحلة الكائن الاجتماعى الصغير ..

والشـمبانزى يبتسم ويضـحك ويلعب مع صـغاره .. والشمبانزى اذا ضحك فانه يمد شفتيه الى الأمام . وهى قريبة من الضـحك الانسانى وعندما يخـاف الشمبانزى فانه يسحب شفتيه الى الخلف ويكشف عن أسـنانه . فالحيوانات تضحك وتلعب . والانسان أبرع الحيوانات كلها فى اللعب وفى فنون اللعب .. وكلما كبر الانسان اتسعت أمامه فرص اللعب بانواعه المختلفة .. اللعب جسميا وعقليا وفنيا .

واذا نحن نظرنا الى الشبان عنـدما يستمعون الى مطربهم المحبوب . او يتفرجون على العازفين الذين يعشقونهم . نجد أن هؤلاء الشبان يصرخون . ويشدون شعورهم ويدقون صـدورهم ويمسك الواحد منهم الآخر .. انهم يصرخون كأنهم يتألمون مع انهم سعداء . ولكن الانفعال اذا ما كان بالغ الشدة فانه يتحول الى شعور بالألم .. فصرخاتهم ليست استغاثة بأحد . وانما صرخات بقصد تنبيه الآخرين الى أن هذا هو شعورهم واحساسهم .. وانهم فى شدة السعادة التى بلغت أقصى درجات الالم ..

ولو اتينا بشاب أو شابة واجلسناها مع المطرب الذى هو فتى احلامها فانها لا تصرخ ولا تشـد شعرها ولا تدق صـدرها .. فالصرخة ليس لها معنى هنا . لأن الصرخة نداء الى الآخرين ..

لان الصرخة .. لغة .. عبارة .. كلام لا بد ان يسمعه انسان آخر .. او آخرون :

ومن العجيب أن الطفل الصغير يتوقف عن الصراخ في الشهر الثالث فجأة . وسبب ذلك ان الطفل يكون قد عرف أمه . والأم الهادئة قادرة على تهدئة الطفل . والأم العصبية تجعل طفلها عصبيا أيضا ..

الأم التي تبتسم لطفلها فانها تهدئه . ولكن اذا فوجيء الطفل بأن أمه تضحك بصوت مرتفع على غير العادة ، فانه يرتبك ويضطرب ولا يعرف ما الذي تقصده أمه

واذا الأم افتعلت ضحكة أو ابتسامة ، فان الطفل يدرك ذلك أيضا ، ومن المستحيل خداع طفل صغير . وهذه حقيقة تعرفها الأمهات . وسبب ذلك أن الطفل جهاز شديد الحساسية شديد الملاحظة . وانه اذا اعتاد على صوت ولهجة ونبرة وملامح الأم . فاذا تغيرت لأى سبب فانه يدرك ذلك وبسرعة وبدقة !

والابتسام تفاهم متبادل .

ومعناه : لا خوف . وعند الشمبانزى علامات تدل على المودة . ولكن الابتسام عند الانسان ميزة خاصة . ولكن لماذا انفرد الانسان بالابتسام

سبب ذلك أن جلدنا ناعم .

عريان من الشعر . فالقرد الصغير عندما يولد فانه يتعلق بأمه . ساعة ولادته ويوما بعد يوم يظل القرد متعلقا بأمه . وعندما يتركها لاول مرة ، فانه بسرعة يعود اليها ويمسك بها . فالقرد الصغير عنده طريقة للوصول الى منطقة الأمان . حتى عندما يكبر القرد ويزداد وزنه وتطرده أمه فانه يعود الى صدرها يتعلق به .. والطفل الانسانى عندما يولد فانه يكون عاجزا عن عمل شيء . وليس لديه

شيء يمسكه أو يتعلق به . ولذلك لا بد أن يعتمد على الأم نفسها . وعلى اقترابها منه ومعاملتها له . ويجب أن يصرخ حتى تجيء . والشمبانزى لا يحتاج الى هذه الصرخات ، لأن أمه أمامه موجودة . أو لأنه يتعلق بها . ولذلك فالانسان الصغير محتاج الى علامة الى اشارة تدل على أنه فى حاجة الى معونة ومحتاج الى اشارة اخرى ميقول انه قد تحققت له المعونة وانه استراح الى ذلك . والابتسام هو المكافاة التى يمنحها الطفل لأمه .. فهو اذا ابتسم كانه قال لها : شكرا .. واذا ابتسمت هى فكأنها قالت له : عفوا !

وابتسامة الطفل فى الأسابيع الأولى تكون غير مركزة .. انها ابتسامة عامة .. ولكن بعد ذلك تصبح للطفل قدرة على التركيز : على عينى الأم .. ولو قدمنا الطفل فى هذه المرحلة ورقة مرسومة عليها عينان .. لابتسم لها ايضا .. وفى الشهر الرابع تتركز نظرة الطفل على وجه الأم .. وفى الشهر السابع يتعرف الطفل على أمه .. وابتداء من هذا الشهر ينطبع فى نفس الطفل كل ما تفعله الأم حتى نهاية حياته .. انه ابتداء من هذه اللحظة تتحدد مسئوليتها الكبرى .

وتظهر عند الطفل نزعات عدوانية يصاحبها الصراخ المتقطع . وتقلص اليدين والرجلين . واحيانا يبصق الطفل ويخربش . تكون هذه الحركات غير متناسقة أول الأمر .

وبعد ذلك تتركز على العدو .. أو الشخص المخيف . وهذا يدل على أن الطفل بدأ يثق بنفسه وبقدراته .

وعندما يكون هناك اطفال كثيرون معا ، فان استعدادهم للعدوان يكون أشد واعنف .. ومهمة الأم هنا هى تلقين الطفل وتدريبه وتعليمه وتصحيح سلوكه . والطفل الانسانى يتعلم بالتقليد والتلقين .. وهذه موهبة لم تتطور عند الحيوانات الأخرى .

ومن المؤكد ان كل تصرفاتنا هى ثمرات لبذور غرست فى الطفولة .

ولكننا ننسى ذلك .. كل ما يفعله الانسان من تلقاء نفسه ويسمى ذلك سلوكا اخلاقيا ، ليس فى الحقيقة الا ما ترسب فى نفسه منذ الطفولة .. ومن الصعب أن نغير آثار الطفولة وآثار الغريزة ايضا .. كما أنه من الصعب أن تغير التقاليد والعادات التى ترسبت فى طفولة المجتمع الانسانى . فاذا ظهرت افكار جديدة تهز القديم ، فان القديم ، يقاوم ويتحمس له الناس . لأن الجديد يريد أن يقتلهم من طفولاتهم أو يجردهم من تاريخهم .. ولكن الجديد يسود مع بقاء القديم ايضا ..

وهناك مجموعات تجردت من كل القديم ، وتعلقت بالجديد .. هذه المجتمعات انهارت وانحلت وابتعدت عن الرواسب القوية الأخلاقية والاجتماعية . وهناك مجتمعات تجمدت طفولتها على ماضيها .. ولكن المجتمعات السعيدة — كالانسان السعيد أيضا — هى التى تأخذ من الجديد ما ينفعها ، وتحتفظ من القديم بما ينفعها ايضا .. اى المجتمعات التى اكتسبت هذه القدرة المتوازنة بين الماضى الكريم والمستقبل الباهر .. ولذلك كانت مهمة الأم صعبة .. كيف تغرس فى نفس طفلها ما هو نافع له وللناس ، وتبعده عن الذى يضره ويضر غيره ..

ولكن الانسان كائن محب للاستطلاع حتى ولو ادى ذلك الى ضرره .. يريد أن يعرف .. أن يمد عينيه ويده .. وخياله .. ويلعب اول الأمر ، ثم يحول اللعب الى فن : رسم . نحت .. تمثيل .. موسيقى ؟

القرد والسلسلة والقرد الذكي !

كل الحيوانات الثديية عندها رغبة شديدة فى ان تتشمشم فى كل ما تجده كأنها تريد ان تعرف : ما هذا ! ولماذا ! وهل الذى تجده شىء يصلح للاكل . والقرد هو اكثر هذه الحيوانات رغبة فى الاستطلاع . اما الانسان فهو اكثرها شراهة ويمكن ان يقال ان الانسان حيوان ((دباغ)) اى يأكل اى شىء وفى اى وقت ..

وكلما اصبح الحيوان متخصصا فى طعام معين ، اصبح عالمه ضيقا محدودا وفى نفس الوقت خانقا ايضا .. فالحيوان الذى يأكل النمل لا يرى الا هذه الحشرة(١) .

وتصبح الدنيا من اولها لآخرها لا معنى لها الا اذا كانت على شكل نملة .. واذا اختفى هذا النمل لأى سبب مات هذا الحيوان .. !!

ولأن بعض الحيوانات تخصصت فى بعض الطعام ، فان الطبيعة قد أعطتها نوعا من الحماية . فحيوان القنفذ يستطيع ان يحدث

---

(١) أنظر الطبعة الاولى من كتاب « من أول نظرة » ص ٤٥١ وما بعدها ..

اصواتا وضوضاء كما يحلو له وهو آمن تماما . لان له درعا من الشوك يحميه من الأعداء .. لكن الحيوانات الاخرى التي ليست لها حماية يجب أن تكون في حالة يقظة مستمرة .. فالانسان يجب أن يبحث من طعامه في كل مكان ، وأن يكون البحث واعيا والا فسات .

والقرود عندها حب استطلاع شديد . تماما كالانسان ، ولكن عندما تكبر القرود ، فان هذا الاستطلاع يتوقف ، ولا يتطور على عكس الانسان الذي يقوده السؤال الى جواب ثم الى سؤال آخر وهكذا ..

وهناك نوعان من السلوك عند الانسان : حب الجديد والخوف من الجديد .. فكل شيء جديد ربما كان خطرا .

ولذلك يجب أن يقترب منه باحتراس وان يبتعد عنه باحتراس أيضا ، ولكن اذا تجنبنا كل ما هو جديد أو كل ما هو مخيف فكيف نعرف أو كيف نتعلم أو كيف نوسع مجال الاستطلاع عندنا من أجل العثور على الطعام والوقاية والدفاع والسيطرة ؟ هذه الرغبة في أن نعرف هي التي تجعل ما ليس مألوفا شيئا مألوفا ، وبذلك نكتسب تجربة جديدة ، وندخرها ونختزنها ونتذكرها فيما بعد ..

فالطفل الانساني يريد ان يعرف ، يمد يده الى كل شيء ، ويضع أذنه على كل باب ويلتقط كل ما يدور حوله ، ويجرب ، وقبل أن تصبح هذه الرغبة الشديدة عند الطفل شيئا خطرا يجب أن يتدخل الوالدان .. ونحن نقول عادة من هؤلاء الاطفال الذين يستطلعون كل شيء بشراهة : انهم يتصرفون كالوحوش .. ولكن الأصح أن يقال : ان الوحوش هي التي تتصرف كالأطفال — أي عندما تحاول الحيوانات أن تعرف وترتقي بمعرفتها يختلط لديهما الاندفاع بالاحتراس ..

ومن مظاهر الاستطلاع عند القرد وعند الانسان ايضا : اللعب، فاللعب عند القرود يشبه اللعب عند الطفل الانسانى ، فالصغار عموما يحيون الشيء الجديد . يمسكونه ، ويرمونه ويكسرونه ، ويخترعون اشكالا جديدة من اللعب وليست لديهم قدرة على التركيز ولا قدرة على ان ينقلوا الى آبائهم معنى الالعاب او الحركات التى اكتشفوها . اما الطفل الانسانى فيستطيع الى حد ما ، والفرق بين القرود الصغيرة والأطفال الصغار : ان القرود كلما كبرت قويت عضلاتها والأطفال الصغار كلما كبروا قويت عقولهم ..

واذا اعطينا القرد الصغير ورقة وقلما ، فانه يمسك القلم ويرسم به على الورق ، وعندما ينظر الى ما احدثه القلم على الورق يفرح به .. فهذه الخطوط شيء جديد ، ويظل يرسم بالقلم على الورق ، وأحيانا يرسم دوائر ناقصة .. وأحيانا خطوطا متقطعة .. أما الطفل الانسانى فيهتدى الى الدوائر والمربعات .

والاطفال والقرود يحبون الخبط والرقع .. أى يحبون آن يلعبوا بالأشياء التى لها صوت ، وكلما كان الصوت مدويا كان تعلقهم بهذه اللعب اكثر .. يحبون البمب .. والبالونات ومسدسات الفل ..

والطفل الانسانى عندما يبلغ الثالثة من عمره يعرف كيف يرسم الدائرة ، ويرسم الوجه الانسانى وذلك بأن يجعل له عينين وفما وأذنين .. ثم يجعل الذراعين والساقين تخرج من الراس ..

وهذه مرحلة استكشاف واكتشاف ايضا ، فالطفل يستكشف قدراته على اللعب ، ويكتشف أنه قادر على أن يلعب ، ولكنه لا يقدر على أن ينقل هذا الذى يمارسه الى والديه فيقول لهما ما الذى صنعه أو اهتدى اليه ، وانما هو رسم فقط ! .. انه

كالذى وجد قرشــــا على الأرض ، وراح يلعب به فقط ولــكن لا يعرف ان كان هذا القرش له معنى آخــر .. أو يســتطيع أن يشترى به اى شىء .. او بعبارة اخرى : ان القرش لعبة ، اى انه يساوى ثمنه لعبا ، اى أن اللعب لذة مدفوعة الثمن فورا . فهو فى مرحلة اللعب لمجرد اللعب .

وفى عالم الاصوات : لا نجد أن للقرد الصغير او الكبير تجارب فى عالم الصوت ، فهو غير قادر على ان يكتشف شيئا جديدا ، ولا أن يقوم بتركيب كلمات أو حروف ، ولا هو قادر على التــلاعب بالحروف والكلمات ، كما يفعل الأطفال عندما يكتشــفون قدرتهم على الكلام ، فانهم يفرحون باختراع كلمات أخــرى : اى بقلب الحروف ولخبطتها .. انها مهارة جديدة اكتشفوها فى أنفسهم .. وان كانت القرود لها أصوات معروفة ثابتة .

وان كانت لها ايضا عادة دق الأرض بالأرجل والأيدى للتعبير عن الضيق أو الفرح ، ولكنها دقات معروفة محدودة ، كمــا ان القرود فى بعض الأحيان تنفخ فى الأجسام المفرغة الخوف .. ولكن القردة لم تستطع أن تجعل الشىء المفرغ عودا أو قيثارا ، ولم تجعل لهذه الاصوات قواعد ومعنى .

ولم تحاول القردة أن تجعل فرحتها منظمة .. او حركاتهــــا مدروســـة كالرقص عند الانســـان . أو كالألعاب الرياضــيه .. فالرياضة هى حركات ذات ايقــاع ، هذا الايقاع متنوع من لعبة الى لعبـــة ..

حتى الكتابة هى أيضا نوع من الرسم ، فالحروف عبارة عن رسوم والكتابة أصلها لعب أيضا .

وعن طريق هذه الاكتشافات نقلنا افكارنا الى غيرنا ، ونقلنا افكارنا من جيل الى جيل ، وأصبح لنا تاريخ مشترك . ثم وضعنا لكل هذه الالعاب قواعد ..

ولا شيء جديد فى عالم الحيوان .

ولكن الجديد فى عالم الانسان .

فهو دائما يبحث عن الجديد ويتمسك به ، فاذا أصبح مألوفا اتجه الى غيره ، ولو وقفنا عند الذى نعرفه لتجمدنا وليس الجديد فقط فى خطوط الأزياء والتسريحات والسيارات والاثاث ، ولكن الجديد فى أسلوب التفكير نفسه فالبحث عن الجديد والبعيد هو جوهر الحضارة الانسانية .. وهو الفارق بين الانسان والقرد ، أو بين القرد العريان والقرد ..

واذا رجعنا الى لعب الأطفال لوجدناه موجها الى الآباء فى أول الأمر ، فالأب يلاعب طفله ، والطفل يلاعب والديه ، وعندما يكبر الطفل ، فان اللعب يتجه الى غيره من الأطفال .. أى يكون الطفل نشاط اجتماعى ، فيكون للطفل شلة من الأطفال يلعبون معا ، وهذه مرحلة دقيقة جداً فى حياة الطفل وسوف يكون لها أثر خطير فى حياته ، فالطفل الذى يحاول أن يعزف على الآلات الموسيقية ويفشل وهو صغير ، سيجد صعوبة شديدة فى محاولة ذلك عندما يكبر والطفل الذى يفشل فى أن يكون له أصدقاء وهو صغير ، ستصبح الصداقة صعبة عليه عندما يكبر . واذا كانت علاقة الطفل بالأشياء المادية كالبيانو أو كالناى صعبة فى الطفولة ، فان علاقته بالأطفال سوف تكون أصعب وأعقد .

والطفل الذى انعزل عن مجتمع الأطفال ، أى الذى ليست له

علاقات اجتماعية ، سيجد نفسه فى وضـــع سىء وســـوف تكون علاقاته الاجتماعية معقدة ومرهقة أيضا ..

ومن التجارب التى أجريت على القرود مثلا : اننا اذا عرفنـــا قردا من القرود الأخرى .. سنة وراء سنة ثم أتينا له بعـــد ذلك بقرود فانه يظل عاجزا عن المشاركة معها فى اللعب أو اللهو حتى فى الجنس .. بل انه يفقد رغبته الجنسية تماما ، وقد لاحظ العلماء ان القرود التى تنعزل طويلا اذا وضعت فى مجتمع القرود فانهـــا تقف الى جوار الحائط وتدق الأرض برجلها .. واحيانـــا تخفى وجهها بيديها .. كانها فى حالة خوف أو خجل او عجز من الاشتراك فى اى عمل جماعى ..

وتربية الطفل لهـــا جانبان : تربية داخلية وتربية خارجية ، ولننظر ماذا يحدث فى عالم القرود : فالأم تترك طفلها يتعلق بها ، فاذا خاف عاد اليها فالأم تحميه بحنانها وترضـــعه مكافأة على سلوكه الذى لا يضره ، وهذه هى مرحلة الأمان عن طريق الحنان ، أما عندما يكبر القرد فان الأم تطرده بعيدا عنها ، لكى يشترك مع القرود الأخرى فى اللعب فاذا عاد اليها فانها تضربه وتقسو عليه.. كأنها تريد أن تقول له : انك كبرت على حضن الأم ، فابحث لك عن حضن آخر ، وفى هذه المرحلة نجد الأم اقل حبا لطفلها . ولا تنطلق لحمايته الا فى حالة الخطر الشديد أما اذا لم يكن هنـــاك خطر ، وجاء طفلها الصغير يتعلق بها فانها تطرده وتضربه،وبعد ذلك يتعلم القرد الصغير ان يبعد عن أمه ، وان يدافع هو عن نفسه ..

وكذلك الطفل الانسانى تماما ، اذا لم تحسن الأم تربية طفلها فى المرحلتين فان النتيجة سوف تكون سيئة وقاسية ..

والطفل الانسانى الذى يفقد الحنان وهو صغير ، ثم أصبحت

له علاقات اجتماعية بعد ذلك ، فانه سوف يكون عاجزا عن تعميق هذه العلاقات الاجتماعية ..

واذا عرف الحنان فى الطفولة وعرف الحماية الزائدة والعناية البالغة فمن الصعب عليه ان يجد الشجاعة على خلق علاقات اجتماعية جديدة ، وانما سيظل كالطفل متعلقا بأمه ..

ولا يريد احدا آخر غير الأم ، فاذا فقد الأم فانه يظل يبحث عن الأم او بديل عن الأم . وسوف يصدمه المجتمع لأنه بطبعه قاس ، ولأنه ليس أما لأحد ..

والانسان الذى يخاف من المجتمع يكون انسانا انسحابيا أو هروبيا ، وهذا الانسان الهروبى لا يريد ان يعرف شيئا جديدا ، لأن الجديد مخيف وهو لا يريد أن يخاف .

فالذى يعرفه أحسن ، وهو لذلك ليس اجتماعيا ، ولا يحب ان يكون وقد يكون له نشاط جسمى ، ولكن نشاطه يجب ان يكون متكررا ، اى لا يأتى بحركات جديدة ، وانما هو أسير العادة التى استراح اليها .

بل اننا نجد الكثيرين من الهروبيين لهم حركات ثابتة .. يهزون رءوسهم او أيديهم أو ارجلهم بصورة متكررة او يرضعون أصابعهم ، وتكون لكل واحد منهم « لازمة » .. لماذا ؟ لأن هؤلاء الهروبيين قد وجدوا البيئة مخيفة ، معادية ، لا ترحب بهم ، ولذلك وجدوا الراحة فى ان يجعلوا سلوكهم مألوفا ، مألوفا أكثر من اللازم . أى جعلوا أنفسهم مفهومين .. عاديين .. لا يخاف منهم أحد أو لا يلتفت اليهم .. ومن الممكن ان تلاحظ ذلك فى الناس الذين حولك . فالذى يقول عبارات واحدة لا يغيرها فى الرد

على كل شيء هو انسان (عادي) ــ أي يجعل العادة تتحكم فيه. حتى أصبح هو نفسه (عادة) اجتماعية ، لا يخيف أحداً ، ولا يخاف من أحد ، وهنـــاك مثل شعبي يقول : آفتي : معرفتي ، وراحتي : ما أعرفش ــ ومعناه انه لا شيء يخيف أكثر من المعرفة ، ولا شيء يريح أكثر من الجهل ! ..

ولا بد أن يكون المثل الأعلى عند هذا الطراز من الناس هو أن يأتي بالأعمال الرتيبة .. مثل دقات القلب فدقات قلب الأم تريح الطفل . وكل عمل يكون متكرراً على شكل دقات القلب هو شيء مريح أيضا . أو هو شيء يجعلنا نخفف من حدة التوتر .

وفي استطاعتك أن تلاحظ من ينتظر مكالمة تليفونية انه يدق باصابعه بشكل منتظم أو يهز قدميه .. أو يتحرك في الغرفة .. والطالب أثناء الامتحان يضع القلم في فمه .. أو يلعب بشاربه .. ويكون ذلك بايقاع متكرر مثل دقات القلب .

وهذه الحركات .. أو هذه (اللازمة) لها فائدة : فهي تساعدنا على احتمال الشيء الجديد الذي ننتظره في خوف .

واذا نحن أسرفنا في استخدام هذه (اللازمة) فانها تصبح فكرة متسلطة علينا .. أي اننا نضع القلم في أفواهنا دون أن يكون هناك امتحان .. أو نروح ونجيء في الغرفة من غير مناسبة .. من غير أن تكون لنـــا قدرة ارادية على ضبط هـــذه الحركات والتوقف عنها ! ..

وهذه (اللازمة) تولد من الملل .. واذا ذهبنا الى حـــديقة الحيوانات وجدنا الحيوانات منعزلة في اقفاصها الحديدية .. وهي منعزلة عن العالم الواسع . وعن العلاقات الجماعية .. أي عن

الاتصالات بالحيوانات الاخرى ، فهى فى حالة انسحاب وانزواء . كانها هربت من الحيوانات الأخرى ، أو هربت منها الحيوانات الاخرى .

ومن الافضل أن ننظر لانفسنا ونحن نقف أمام اقفاص الحيوانات .. ان هذه الاقفاص الحديدية تشبه الموانع النفسية الشديدة التى نحيط بها أنفسنا وننسحب وراءها ، وننكمش وننطوى ونتقوقع ونجتر تجاربنا ولا نضيف الى أنفسنا شيئا اجتماعيا جديدا . وانما نفرز من انفسنا نسيج دودة القز ونتسوارى وراءها .. أو نندفن ، ومن مظاهر هذا السلوك الانسحابى عند الحيوانات : انها تدور حول نفسها وتثير نفسها جنسيا .. والانسان يفعل ذلك ايضا فى المعسكرات والسجون والمستشفيات والاقسام الداخلية للمدارس ، ونجد القرود تلعب فى اثنيها باعواد الشجر ، ونجد الفيل واقفا فى مكانه يهز رأسه يمينا وشمالا ساعات طويلة ؛ وبعض الحيوانات تشد شعرها ، أو تعض نفسها او ترضع ثديها .

وقد يكون السبب ايضا هو التوتر الشديد او تكون النشأة غير السليمة .

يمكننا أن نقوم بتجربة بسيطة وذلك بان نلقى شيئا فى قفص قرد اعتاد ان ينعزل فان هذا القرد لا يحاول أن يتجه الى هذا الشىء الذى القيناه فى قفصه ، ومعنى ذلك انه لا شىء يثيره أى لاشىء جديد يثيره .. واذا كان الحيوان لا يلتفت الى الشىء الجديد ، فلن يعرف شيئا واذا كان الانسان لا يثيره الشىء الجديد ، فسوف يظل محدود المعالم ويكون بذلك اقرب الى الحيوان .

واذا ذهبنا الى حديقة الحيوانات يجب ان نتذكر المدن الانسانية التى نعيش فيها ، انها أيضا مثل حدائق الحيوانات : كل انسان له

قفص ، هذا القفص من أعواد حديدية ، هذه الأعواد هى الممنوعات النفسية والاجتماعية وهى تحصرنا وتعصرنا ..

والصحة النفسية والاجتماعية انما تتحقق اذا ما نحن ركبنا عربة يجرها حصانان : احدهما حب الجديد والآخر الخوف من الجديد .. والعقل الانسانى قد علمنا أن نتجه الى الجديد ، بخوف .. أو على الأصح باحتراس . واذا كان الانسان قد مات بسبب رغبته فى المعرفة . فان الانسان حى لان بعض الناس مات من اجل أن يعيش غيره ليعرف أكثر واكثر ..

واذا نحن نظرنا الى (القرداتى) فماذا نجد ؟ نجد قردا مربوطا فى سلسلة واذا وقف القرداتى ونحن أيضا ، وجدنا القرد ياتى بحركات من الشقلبة والرقص ، ومعنى ذلك ان القرداتى قد علم القرد ان ياتى بهذه الحركات . اى ان القرد مربوط بسلسلة اخرى هى : العادة على اتيان هذه الحركات ..

فكان القرد مشدود بسلسلتين واحدة تراها وواحدة اخرى لا تراها ولكن هناك سلسلة أخرى تشد القرداتى الى القرد : فهذا الرجل يعيش فى عالم محدود ، عالم القرود ، ويمشى فى أماكن محدودة . ويعود الى بيته ويجلس الى جوار الحائط ولا ينـــام الا والقرد الى جواره والا على صوته ، ولو قطع القرد السلسلة وهرب لاحس الرجل أن قلبه هو الذى انقطع .. فاى الاثنين هو القرد ؟ أيهما هو المربوط بالآخر .. من المؤكد ان القرد هو المربوط فى الرجل ، ومن المؤكد ايضا أن هذا الرجل العـــاقل مربوط من القرد .. وبالقرد ..

فليست الحيوانات هى وحدها المحبوسة فى اقفاص ، وليس الانسان هو الذى يذهب الى الحديقة ليتفرج على القرود .. انها ايضا تتفرج عليه وعلى قيوده التى لا يدرى بها ! ..

فكلما ان هـــذا الرجل اسمه (قرداتى) فهذا القرد اســـمه « انساناتى » !

وكلنا كذلك !! ..



لولا سلامك .. سبق كلامك !

لسببين يعتدى حيوان على آخر : دفاعا عن الارض التى يعيش عليهـا ، او حرصـا على السلطة التى يتمتع بها فى القبيلة اى انه يدافع من السلطة او عن اللقمة .

وهناك حيوانات تدافع عن الارض ولا يهمها السلطة .. وحيـوانات تدافع عن مركزها ولا تهمها الارض . اما الانسـان فانه يدافع عن الارض والعرض والسلطة .

وفى جبلاية القرود نجد أن القرد الاقوى هو الذى يسيطر . أما قوته فهى فى عضلاته أو فى حيويته . فاذا كانت حيويته هى مصدر قوته فانه يمتلى كل الاناث وكل الذكور ايضا . ولكنه عندما يأكل يكون سخيا يترك طعامه لغيره من ضعاف الجبلاية !

وكما تطـور الانسان فى علاقاته الجنسية فاصبحت له أنثى واحدة ، تطور ايضا فى ممتلكاته . فكل واحد له شىء يملكه : ارض أو بيت . وقد وصل الانسان الى هذا الوضع منذ كان الاقوياء من الرجال يسافرون بعيـدا للصـيد . وكانوا يتركون بيوتهم

واولادهم . ولذلك كان لا بد ان يتفقوا على قاعدة يحترمها القوى والضعيف وخصوصا الضعيف عنـدما يغيب القوى . واذا كان القانون يحمى الضعيف من القوى ، فكانه يحمى الاقوياء — وهم القلة — من الضعفاء وهم الاغلبية الساحقة . .

وعندما يشعر الحيوان برغبة فى العدوان فان تغيرات هائلة تجرى فى داخله . هذه التغيرات هى نوع من التعبئة العامة لكل قوى الحيوان المختزنة وياخذ هذا الاستعداد شكلين : قوة تدفعه الى الهجوم وقوة أخرى تسحبه وتمسكه . قوة تقول له تقدم . وقوة اخرى تقول : حاسب !

ومن هذا الصراع فى داخله يتقرر موقف الحيوان .

ولكن عندما يتهيأ الحيوان للهجوم يفرز الجسم مادة الادرينالين فى الدم وتنشط الدورة الدموية كلها .

فالقلب يدق بسرعة . وينسحب الدم من الجلد والاحشاء الى العضلات والمخ . ويرتفع ضغط الدم . وتزداد الكريات الحمراء . وتصبح للـدم خاصية التجلط بسرعة . ويتوقف الهضم . ويجف اللعاب . ويتوقف نشاط المعدة تماما وحركة الامعاء . ويصعب على الحيوان أن يتبول . ثم ان الكبد تفرز السكر فى الدم . وينشط الجهاز التنفسى . ويقف الشعر ويتبلل بالعرق . وبسرعة السحر يختفى التعب . ويحشد الجسم كل قدراته من اجل البقاء . والدم يندفع الى الأماكن التى تحتاج اليه . والى المخ لكى يتمكن الحيوان من تقدير الموقف . كما ان سرعة التجلط معناها ان اى جرح سوف يجف بسرعة وبذلك لا يضيع الدم عبثا . ونشاط الرئتين معنـاه أن الحيوان يسحب كميات كبيرة من الأوكسجين . ووقوف الشعر يعرض الجلد للهواء الذى يقوم بتبريد هذا الجسم الملتهب . ولذلك

لا يكون هناك خوف على الحيوان من درجات الغليان التى يصـــل اليها !

وكلما ارتقت الحيوانات اصبحت لها عادات وتقاليد أو طقوس فى التهـــديد . فالحيوان يتقدم ويتأخر ويدور وينحنى . وهـــذه الحركات تبين كيف استعد الحيوان للمعركة ، وهى فى نفس الوقت تخفف من حـــدة الحيوان .. وكثيرا ما انتهت هـــذه الرغبـــات العدوانية عند هذا الحد !

واذا انسحب الحيوان من المعركة بلا قتال أو بقتال ، استعاد جسمه نشاطه العادى .. فريقه يجرى وبوله ايضا !

والتبول عند الحيوان له دلالة خاصة عند الثدييات : فالتبول دليل على أن هذه المنطقة التى يتبول فيها خاصة به . فهو يترك اثره فيها . والكلاب عندما ترفع رجلها عند احد أعمدة النـــور ، فهذا هو المعنى . واذا كانت الكلاب تفعل ذلك بإسراف فى المدن ، فلأن فى المدن عددا كبيرا من الكلاب . وهذا يثيرها ويدفعها الى أن يحدد كل كلب مكانه وارضه ! وقد اكتسب السيد قشطة عادة أخرى : فله ذيل مريض ، وهذا الذيل يتحرك بسرعة يمينا وشمالا ينثر مخلفاته على أوسع نطاق ممكن . وبذلك يحدد الارض التى تخصه . وبعض الحيوانات لها غدد تفرز رائحة كريهة . هـــذه الروائح هى انذار لكل الحيوانات الأخرى . هـــذه أرض تخص حيوانا آخر .. فاحترس !

وقد اتخـــذ التهديد شكلا صوتيا آخر عند بعض الحيوانات : النباح والمواء والفحيح والزئير .. واحيانا الانتفاخ : عند الطيور فلها أكياس هوائية تجعل حجمها اكبر وشكلها مخيفا !

وهناك اشارات للتفاهم بين الحيوانات : فعندما يقف الشعر يدرك الحيوان الآخر أن هناك خطرا .

ولذلك فالديك له عرف والأسد له معرفة تجعل الرأس أكبر . وكذلك العرق عند الحيوانات تكون له رائحة خاصة تؤكد النزعة العدوانية ..

كل هذا يحدث للحيوانات داخليا أما التغيرات الظاهرة فهى أن عضلات الحيوانات تكون فى غاية القوة والمرونة فالحيوان يروح ويجىء ويدور وبعض الحيوانات لها طقوس فى الرقص .

رقصة القتال . أو رقصة الحرب .

فالحيوان يدور حول الحيوان الآخر . وحول نفسه . وهــذا الدوران معناه أن هناك توازنا بين رغبته فى العدوان وبين رغبته فى الامتناع من ذلك .. وخصوصا عندما يلوى جسمه ويحنى رأسه ويدق الأرض بقدميه !

وأحيانا نرى نوعا من التراجع أو المراجعة . ولذلك يقــوم الحيوان بحركات غريبة لا علاقة لها بالعدوان كأن الحيوان قـد وضع « عقله فى شىء آخر » فيأكل مثلا أو يهرش فى جسمه .. أو ينظف فروته أو يجمع الأعشاب أو الأخشاب كأنه يبنى عشا وهميا . وبعض الحيوانات تنام فجأة .. أو تتثاءب وتتمدد .

بعض العلماء يقول : ان الحيوان اذا أكل فهو جائع حتما . اذا هرش فان حشرة تلسعه . ومن الطبيعى أن يجوع الحيوان عندما تتبدد طاقته الهائلة فى حالة التعب أو العدوان !

ولكن هــذه الحركات التى يأتيها الحيــوان ليست الا محاولة

لتخفيف درجة التوتر . أو ليست الا نوعا من الانسحاب . وقد ينتهي الموقف هكذا . وينصرف كل حيوان الى سبيله .. ولكن اذا فشلت هذه الحركات في تهدئة الحيوانات كأن تكون قطعانا كبيرة . وكان يكون هناك زحام على الأرض والطعام والسيادة استخدمت الحيوانات أنيابها وأظافرها وقرونها .. وذيلها يكون كالكرباج .

ولكن من النادر ان يقتل الحيوان حيوانا آخر . ومن النادر أن يفعل حيوان ما يفعله مع فريسته . فالأسد اذا التقى بأسد فانه يضربه ويجرحه ولا يقتله ولا يأكله .. أى أن الأسد لا يقتل الأسد كما يفعل بفريسته من الغزلان .. فاذا انتصر الأسد القوى على الأسد الضعيف اكتفى بهذا النصر . وتركه . أما المنهزم فعليه أن يؤكد انه انهزم ! وعليه أن يهرب اذا استطاع .

وهناك لغة للتفاهم بين الحيوانات : من بينها أن ينكمش المهزوم وأن ينام على الأرض ويحنى رأسه ويغمض عينيه ولا يزأر .. وأحيانا نجد الحيوان المنهزم يعرض جسمه للحيوان المنتصر . كأن يقدم له احدى يديه .. وقد ينقض الحيوان المنتصر فيعض يد خصمه . أو يضربها . أو يكتفي بهذا الاستسلام .

وبين القرود نجد الشمبانزى يمد يده كأنه يتسول .. وخصوصا الاناث ، والاناث تعطي نفسها للذكر . وفي هذه الحالة يتم الاستسلام والسلام وينحسم الموقف والذكور الضعفاء تفعل ذلك أيضا !

وهذا هو قانون الغابة : الحيوان يهزم الحيوان ولا يقتله . واذا استسلم له تركه . وانتهى الخلاف ..

وكل هذه التغيرات الداخلية تحدث للانسان . مع فارق أن كل

هذه الاضطرابات تبدو على وجهه . وهذه مزايا القرد العريان — اى .. الانسان .

فوجهه يصفر ويحمر .. من الغضب ومن الخجل . أما شعر الانسان فلا يقف .. رغم اننا نستخدم هذا التعبير !

وعند الغضب تنحنى الذراع وتجتمع اصابع اليد على شكل قبضة وهذا استعداد من بعيد . او تهديد من بعيد . وأحيانا نضرب المنضدة أو الحائط او نضرب رءوسنا . ولكن ما نزال على مسافة من الخصم .

وكثيرا ما نوجه هذا الغضب الى الشخص الذى جاء يخلصنا . ولذلك نقول : ما ينوب المخلص الا تقطيع هدومه .. والسيدة التى تكسر الأطباق فى حالة غضب مع زوجها ، لم تقصد تحطيم هذه الآنية وانما هى تقصد أن تحطم رأس زوجها ! وهذا بالضبط ما تفعله القرود فهى فى حالة الغضب تحطم الأغصان والثمار وجدران القفص !

والسلام باليد هو نوع من الاستسلام . فالذى كان فى نيته أن يضرب بيده يجدها ممدودة . واصابعه متراخية . وهى عملية تحويل الغضب الى تهدئة .. وهدوء . وكذلك « الطبطبة » على الكتف تهدئة أيضا . وخلع البرنيطة عند السلام تشبه الديك عندما يخفض « عرفه » والأسد عندما يخفض شعر رأسه .. وخلع البرنيطة مع انحناء الرأس يجعل جسم الانسان اقل طولا ، واقل صلابة .. على خلاف ما يحدث عند العدوان او القتل . وعند العدوان نحملق فى الخصم . فاذا اغمضنا العين أو نظرنا الى الأرض كنا بذلك نهدىء أنفسنا أو نعلن أن الحالة لم تعد فى حاجة الى الحذر والترقب . ونحن فى حديثنا العادى لا ننظر الى الذين

نتحدث اليهم طوال الوقت ، وانما نقط فى نهاية كل جملة لنعرف وقع الكلام ..

وكذلك وضع النظارة السوداء على العينين يجعلنا نبدو متربصين أو عدوانيين . ولذلك فالذى ينظر الينا من وراء منظار يجعلنا نشعر بأنه ليس وديا .. فالنظارة عبارة عن عينين مفتوحتين بلا أجفان ولا رموش !

وقد اكتسبت بعض الحشرات مثل هذه النظارات .. أو مثل هذه العيون نجد أن العيون مرسومة على أجنحة الحشرات . فاذا أحست خطرا نشرت أجنحتها فظهرت هذه العيون لامعة باهرة رهيبة تخيف أعداءها !

وبعض الأسماك لها أيضا هذه العيون وكذلك الطيور . ونحن نستخدم الأقنعة ذات العيون . وبعض شركات السيارات تجعل المصابيح الأمامية ذات أشكال مخيفة . وهذا ضرورى فى الزحام فى المدن .

بل ان الشركات لم تكتف بهذه « العيون المخيفة » وانما جعلت للسيارات أسماء مخيفة أيضا !

ولذلك فالسلام باليد هو اعلان وقف اطلاق النار من العينين وتجىء القبلات بعد السلام .. كما نفعل مع رجال الدين أو الآباء . أما تقبيل يد السيدات فله معنى آخر : فالرغبة العدوانية الجنسية قد تحولت الى مجرد لمس اليد باليد وبالشفتين — أى الحد الأدنى من تحقيق رغباتنا الخفية !

ومن الغريب ان الأحاديث بين الرجل والمرأة تتخذ شكلا « طفوليا » .. فيتحول الرجل الى طفل .. أو يقول كلاما مثل كلام الأطفال فيكون ضعيفا بطيئا مثيرا للشفقة . أى انه يحول

نزعاته العدوانية الى نزعات استسلامية أو سلامية .. ويتحول الرجل والمرأة الى أسلوب الحمام . فيشرب الواحد من كوب الآخر .. أو يمسك الواحد بمنقار الآخر : وهذا نوع من التقبيل !

والمثل الذى يقول : لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك مثل سليم وصحيح .

أما « الطبطبة » فلها معنى آخر : نحن نجد عند القرود أن القرد الذى انهزم أو استسلم يقترب من القرد الآخر « ويفليه » .. وهذه « التفلية » تهدىء أعصابه . وكذلك الطبطبة هى نوع من الاقتراب البرىء .. وقبول لهذا الاقتراب . فلا خوف ولا عدوان !

وفى مواجهة العـــدوان أو الغضب نقوم نحن بأعمال أخرى لا علاقة لها مطلقا بالعدوان . مثلا نشـــعل سيجارة . أو نمسح النظارة . أو نلعب فى شواربنا أو ننظر الى الســـاعة أو نحرك عقاربها . أو نرتب الأوراق التى أمامنا أو ننظر من النافذة . أو نطلب أى رقم فى التليفون . أو نقضم أظافرنا بأسناننا أو نطقطق أصابعنا ..

ونحن قادرون على الكذب بملامحنا ولكن لا نقدر على الكذب بانفعالاتنا أو بهذا النشاط الفسيولوجى فى داخل الجسم . وهناك أناس كذابون محترفون : الممثلون .فهم قادرون على الكذب بالملامح وعلى توجيه نشاط الجسم وجهة أخرى لا نقدر نحن عليها فى ظروفنا العادية .

والانسان لأنه يحرص على أن تكون له أرض خاصة وبيت خاص وزوجة خاصة . وأن يكون خاصا فى كل مكان يشغله ، نجده يضع صورة أولاده على مكتبه أو صورة زوجته . وكذلك يحرص على أن يضع فى سيارته نوعا من العرائس أو الزينات لكى يجعل سيارته مختلفة عن السيارات الأخرى .. ملايين السيارات الأخرى التى

تشبهها . وكذلك السائق الذى يضع عبارات على سيارته من الخلف ومن الجوانب . انه يريد أن يجعلها مختلفة عن السيارات الأخرى .. واذا سألته لماذا ؟ قال لك : انها هكذا ألطف وأجمل .

ولكن هذا الجواب ليس صحيحا . وانما الصحيح انه يريد أن يجعلها مختلفة . يريد أن يجعلها خاصة به هو .. ومن الضرورى أن نتذكر هنا ما تفعله الكلاب على أعمدة النور . نفس الموقف وان كان الأسلوب مختلفا فكلاهما ــ كلانا نحن والكلاب ــ يريد أن يؤكد انه هنا .. وان هذا المكان خاص به وحده . وانه مضطر أن يفعل ذلك فى مواجهة الزحام الشديد بين الناس والكلاب !

وهناك تصرفات يومية بسيطة ولكن معناها أبعد مما نتصور .. مثلا عندما نكسر اشارة المرور . ويدركنا عسكرى المرور . فما الذى نفعله ؟ الأفضل أن تتحدث الى عسكرى المرور وأنت فى سيارتك . أى فى مكانك . فى أرضك . فى بيتك . هذا يعطيك شيئا من الطمأنينة . وفى هذه الحالة يحسن أن تجعل أسلوبك متوسطا لطيفا . سوف يجىء العسكرى اليك .. أى الى حدود مملكتك .. وهو مضطر أن يحول هذا الاقتراب العدوانى الى اقتراب ودى . وبذلك تكون أنت وديا وهو أيضا . ولذلك يمكن تسوية الموقف لصالحك . ولكن اذا نزلت من سيارتك ، أى تركت أرضك . وذهبت الى أرضه . فالموقف فى يده . وهو سيده .. والنتيجة ضدك عادة !

وقد تطورت وسائل الاقتراب من أرض أعدائنا .. ومن أعدائنا فكان لا بد أن يقترب الانسان من عدوه جدا ليشتبك معه ثم اخترع السهام والنبال ، فأصبح فى الامكان قتله عن بعد .. والآن تحولت ا سهام الى صواريخ وقنابل وفى هذه الحالة نحن لانصيب العدو وانما نقتله .. أما الحيوانات فهى تهزم عدوها فقط ..

رقم الإيداع ١٧٩٣ / ١٩٨٩
الرقم الدولي ، ٣ ـ ٠١ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق
القاهرة ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ، ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)

عاشت و تعاملنا !
هذه الحيوانات !

وراء جنكيزخان
ربع مليون حصان !

خنازير كولومبوس
ملكت العالم الجديد !

القرد و السلسلة
و القرد الذي !

[illegible]

هو يسقط
و الريش يطير !

من عجائب الحيوانات !
[illegible]

توجد في كل مكان !

نظرية التطور
[illegible]

طب الحيوانات
يعرفون كما يعرفون في القديم !

سخافة على الناس ولهيب
نظرية !

كل عصر
لحضارات خاصة !

فهم الحيوانات
[illegible]

من يعرف الإنسان كثيرا !
يحترم الحيوانات أكثر

ذهب كل أحد
تدحرجها الأغنام !

[illegible]

خلقها الله وجناحها
لتفضيل علينا إتقان !

هذه الكائنات الناجحة
لأنها عرفت الحيوية

لو نام الأرنب قليلا
لتركته السلحفاة !

عندما أعلن موسوليني
حرب الذباب ضد الثقافة

شجرة والمرأة تكفي :
هزهما وأنت تعرف !